SALEEM BARAKAT

رواية
NOVEL

سليم بركات

دلشاد

فراسخ الخلود المهجورة




دلشاد
فراسخ الخلود المهجورة

دلشاد (فراسخ الخلود المهجورة) / رواية عربيّة
سليم بركات / مؤلّف من سوريّة
الطبعة الأولى ، ٢٠٠٣
حقوق الطبع محفوظة



المؤسّسة العربيّة للدراسات والنشر
المركز الرئيسي :
بيروت ، الصنايع ، بناية عيد بن سالم ،
ص. ب : ٥٤٦٠ ـ ١١ ، العنوان البرقي :موكيّالي ،
هاتفاكس : ٧٥١٤٣٨ / ٧٥٢٣٠٨
التوزيع في الأردن :
دار الفارس للنشر والتوزيع
عمّان ، ص.ب : ٩١٥٧ ، هاتف ٥٦٠٥٤٣٢ ، هاتفاكس : ٥٦٨٥٥٠١
E - mail : mkayyali@nets.com.jo
تصميم الغلاف والإشراف الفنّي :
®
خطوط الغلاف :
زهير أبو شايب / الأردنّ
لوحة الغلاف :
سليمان منصور / فلسطين
الصفّ الضوئيّ والتنفيذ الطباعيّ :
مطبعة سيكو / بيروت ، لبنان

ISBN 9953-441-91-X

رواية
NOVEL

سليم بركات

دلشاد

فراسخ الخلود المهجورة



الفـرسـخ الأول

(ترجمان الحيلة)

هواءٌ من نَفَس الليل مسَّ شعلةَ السراج فوق المصطبة الحجرية، فتماوج ظلُّ القلم ذي النصل النحاس فوق السطور السود، الممتدة من فراغ الشهوات البيضاء إلى فراغ الشهوات البيضاء. تعلقت المعاني عناقيدَ ناضجةً بسهم الظلِّ، قبل أن يرفع دِلْشَادْ شَاهْنُور يده عن الورقة المختمرة بخيال صناعتها من عجين الذُّرة. نظر إلى السراج، ثم إلى الباب المطعَّم بخمس مرايا دائرية صغيرة من الداخل، ثم إلى النافذة الموصدة بعلوم أسرارها خلف ستارة القماش الكيكلادي الأصفر من نَسْج عذراوات جزائر إيجة: لامنافذ ليعبر الهواءُ المرصَّع بخرز الفرات البارد. إنها الشعلة، إذاً، تدور على أقفال الليل بمفاتيح الضرورات المُحتبسة في دورة النُّور - الدورةِ الموعودة بأهرامات من الحقائق التي تتأفَّف، أبداً، على مسمع الله، من كونها حقائق حتى الندم.

خاطب دلشاد الشعلةَ بلسان الطبائع الصامتة. وَعَدَها بزيت من كُلْيَة السَّمور يبتهج بنَفْحِه المحرورون، فهدأتِ اللَّجْلجةُ في كلام النار المُهذَّبة كنصلِ ذهبٍ. عاد دلشاد إلى سطوره المنتفخة من كَرَم الحبر. عاينَ التوافقَ بين مراتبِ الشكل والغواية في مايلي الشكلَ الحافظَ لجلال الصور. قلَّب المعاني وطابقَها أنفاساً، وحدوداً، ونواقصَ، كي يُصلحَ بين المتنافرات ويؤانس بين المُتحاذِر: كان يدقق، بالتناوب، في السطور التي يكتبها وفي سطور الكتاب المفتوح أمامه، كأنه يستنسخ الحركةَ الأبديةَ لأفلاك المتشابه المتنافر.

قرأ لنفسه، بصوت عال، سطوراً بالسريانية في الكتاب المفتوح،

ثم قرأ لنفسه، بصوت خفيض، سطوراً دوَّنها على ورق عجين الذُّرة بالكردية. تنفَّس ملء رئتيه المتصلتين برئتي النشآت المكتملة في رماد الجوهر الدفين، والتفت إلى المرأة المستندة برأسها إلى كتفه اليسرى، من خلفه، كأنما تنصت إلى الأرق القديم في عضلة اللحم الشاهدة، منذ التدبير الأول لمتاهة العلوم، على أن الأعضاء اليسرى، في الإنسان، والحدود اليسرى في الكون القائم وجوداً أجساماً ومعاني، هي أقل شرفاً من اليمنى: "لماذا فضَّل الله هذه الجهة على هذه، يادلشاد؟"، قالت أكيْسَا وقد نقرت بإصبع يدها على جهتي ظهره. استدار دلشاد إليها في جلسته فوق البَلاس المنسوج من شعر أراويِّ جبل الكرد، الرطبة اللحوم من هبوب هواء بحر اسكندرونة الكسول. نظر في عينيها الطافيتين على غَمْر قلبه، وقبَّلها من فمها الشارد قبلةَ المتنِّ للإثم الطاهر، فاستعاد فمُها صوابَه. تقلَّبت الحقائقُ مبتلَّةً تحت لسانيهما المتمرِّغينْ أحدهما في لوعة الآخر. انفصلا في الحيِّز الملْتَحم - حيِّز عناقيهما. "بقي القليل من هذا الكتاب. ستنتهي الترجمة"، قال دلشاد، فارتعدت عضلةُ الوقت في ثدي أكيسا الأيسر. أطبقت راحةَ يدها على عضده منذعرةً من فجاءة التصريح الصلب كغدرٍ. "لم تخبرني من قبل"، قالت بلسان الحيلة المُعطَّلة.

"أخبرتك مرتين"، قال دلشاد المُعلَّق من خياله إلى خياله.

"نسيتُ"، ردت موبِّخةً، بانكسار المُحاصَر، نفْسَها المُنشغلةَ عن أحوال الوقت. تداركَتِ الفراغَ العاقل، المنصت إلى انعتاق هواجسها من قيد النسيان: "ماذا نفعل إذا أنهيتَ الترجمة؟".

تراخى دلشاد. تراخى عصبُ الحيلة فيه: لماذا غفل عن إيقاظ نفسه، ذاتها، على صليل الوقت الذي بدأ يتقاصر من مهلة الترجمة؟ سنة وثمانية شهور. السطور السريانية في مخطوط "المُختصَر في حساب المجهول"، المنسوخ بحبر من سُخام شجر الخوخ ودم ضفدع الرمل

المسموم بلدغ العقرب، تتراجع أمام نَسْخها بالسطور الكردية. المعاني تتصافح وتتعانق. والرغيف، الذي عجنه دلشاد بيد الماهية الصغرى للضرورات، ينضج على نار اللغتين الموقدة من حطب المسكون الأليف: لقد سلَّم الزمن جرابَ نقوده من شرفة السريانية إلى العدَّاء في خيال الترجمان. "أخبرتكِ مرتين يالسان لوعتي - أكيسا. ستنتهي الترجمة. ماذا نفعل إذا أنهيتُ الترجمة؟"، قال مُعتَصراً من رئتيْ وجدانه.

في بلدة كوماجينا المنتصبة على هضبة من رمل مابعد الطوفان الثالث - طوفان الخسف الذي أصاب وادي قره صو، شرق الفرات الأعلى، نحر دلشاد شاهنور ثلاثة ديكة نقية الخُصى، لم تُسَافِد دجاجاً بعد، على باب مكتبتها المشهود لها، في ميزان المتخاطبين بلسان البرزخ، أنها عقل بستة آلاف عينٍ هي مخطوطاتها المنظورة، وتقابلها ستة آلاف عين أخرى هي نظائرُها الحرَّةُ من العلوم المستورة. وقد خُلِعَ بابها الخشب المزين بتعاريق الحديد وفْق الخيال البيزنطي، ونُصب عليها بابٌ آخر من الإرث السابح على نداء الكمال - نداءِ العصمة الإسلامية، منذ تخلى سينودس خلقيدونية عنها لعجزه عن تدبير القائمين على شؤون النداء الإرثوذوكسي. بقايا سينودس خلقيدونية؛ ممثلون عنه؛ بعض المنتظرين نهاية التكليف كي يعودوا من أرض قسطنطينوبل المفقودة إلى ماوراء سور البحر، هم الذين رهنوا المكتبة إلى سراي بلدة كوماجينا. نقلوا مخطوطات اللاهوت الستة آلاف إلى دير ساموتراكي، على مداخل بحر مرمرة، وأبقوا المخطوطات الأخرى، المشرفة من حبرها على علوم المجاهل الأرضية، وغرائب العقل التائه في أمور التاريخ ومصادفات العِلل. نامت المكتبةُ على رمل حقائقها المدوَّنة بالأخبار الجسورة، والمَلولة، والنبيهة، والساهمة، والمُلْغِزة، والأليفة، والغريبة، ستَّ سنين. تعاقبت ثلاثة أجيال من سحالي الصخور الرملية على خيال صمتها، وهي تدوِّن، بألسنتها الدبقة الطويلة، أحاديثَ الوقت، المتأفِّف من شقاء الإرث الزمنيِّ، على أغلفة مخطوطاتها الخشنة، المصنوعة من رُقعِ جلْدِ،

حتى اليوم الذي انقلبت فيه مجازاتُ الصمت إلى غزوات للصوت من مكنسة العرْفَج الموصولة بقضيب طويل من الخيزران: "أيُّ عقل أنتنَّ، يابراهين الغبار؟"، قال جِرْجُو للسحالي، وهو يمشط سطورهن على الجدران فيتساقطن على الكتب، وعلى الأرض ممزَّقاتٍ في جلودهن الرقيقة. جرجو نيقو قاديشا ـ الشيخ الأعجف، حملتْهُ رحلةُ النقائض في أرض الأناضول إلى كوماجينا. سريانيٌّ نصبتْهُ مجامع الكنائس الصغيرة، في قرى إقليم أنطاكية، كشافاً باسم الدورة الألفية للأسرار المنظومة في أشكال الحروف البيزنطية، يتحرى التورياتِ الحيَلَ، ويفكُّ الكيفيات المموّهةَ في صناعة أخبار الكميات عند رهبان نهر كوروتاس، المولعين باستنباط الألغاز من علوم "روح القدس". حمل ورقة عليها ثلاثة عشر ختماً إلى الباشا الشارد العينين في السراي، فلم يقرأها الباشا. وضعها على منضدته وساءله: "ماتريد؟"، فقال: "المكتبة، ياسعيد الشأن. أنا سرياني لاتفوتني ألاعيب الإغريق". هشَّ له الرجل ذو الإصبعين السبابة والوسطى المصفرّتين من لفافات التبغ: "المكتبةُ في إدارتك. حبذا لو أضفتَ إلى مخطوطاتها سيرة السيدة غولبَدَنْ بَيغُم، ابنة الإمبراطور بابر. لها سطور عند أجدادي"، قال، فهزَّ جرجو رأسه منتشياً من غمامة الفوز: "سأضيف إلى المكتبة سيرة أبيها أيضاً، لوشئتَ، وسيرة أختها وأخيها"، فابتسم الباشا ثانيةً. أومأ إليه أن يجلس على كرسي فجلس الشيخ الأعجف، المعتمر طربوشاً يحفظ للعقل فراغَهُ الدافىء. "إلهام صوناي، أختي، عندها أشعار في أصناف الفراشات. لو تستنسخ منها أربع نسخ للمكتبة باسم لامليْنْ هانم. نعم. لاملين هانم أفضل من إلهام صوناي".

نحر دلشاد شاهنور ثلاثة ديكة على باب المكتبة. وضع قدمه اليسرى على جناحَيْ كل ديك وحزَّ بمديته قصبات الهواء المذعور. نطقت قلوبُها بأسرار المتعينِ الصريحِ المُشْكل، وتلاسن الريشُ بكلمات الأفعال اللازمنية: "هذه هبةُ خيالي لك ياسيد قاديشا. أنا حيوان أعجم

من صنف الطير الذي لايطير، فاجْعَلْني ناطقاً"، قال الرجل الذي يرتدي قفطاناً أصفر فوق بنطال أسود، ويعتمر غطاءً أسود أيضاً، من نَسْج إقليم ميرسينْ، يحيط به طوق مجدول من الحرير خالطتْهُ شرائط ذهبية، فرد جرجو: "قبلتُ هبتك، ياابن الأصل الناطق"، قالها بكرديَّة أهل الجبل.

ثلاثة ديكة، بأرواح ترفرف في الأرجاء اللامسكونة من خيال الوجود المسكون، كانت صلةَ لسانه الكردي باللسان السرياني، تحت رقابة جرجو نيقو قاديشا المتساهلة. حملها دلشاد معه، حيَّةً في قفص من غصون الكينا ـ شجرةِ البراعات الناقصة، وقد طُليت قضبانها بالأصفر والأخضر لونَيْ الرُّقية الخفية لجَبْهِ داهية العين. كلَّمها، بلسان خياله الذي يتذوق طلْعَ نبات العرفج، عن سُنن العلوم التي تتفتق كبزر اليقطين بين أسنان الترجمة: "المعاني شطرنج، وزَّع التدبيرُ المُحيِّرُ كلَ حجر من حجارتها على لغة". سمَّى كل ديك باسم سهل من سهول كركميش بين الفرات الغربي وجبل الكرد: "فلتكن أرواحكن الناجية من أية مؤاخذة في السماء ميزانَ روحي في تقدير الهبات بلاخوف. أنا ذاهب إلى السيد قاديشا كي أستنسخ أثرَ المفقود الأزلي". ولَّما بلغ عتبة المكتبة أنزل القفص عن ظهر بغله. نادى الشيخَ الأعجف بلقب الكياسة والفضل من وراء الباب ذي الوشم النافر بالحرف العربي في صورة "القلم"، فخرج إليه جرجو حاسرَ الرأس. نُحِرَتِ الديكة تحت بصريهما المتوافقين في رسْم امتنانيهما. وطَّد الدمُ تكليفَ العقل بلاحدود.

"ماذا ألهمك، يادلشاد، أن تقصدني لتتعلم السريانية؟". ساءله الشيخ الأعجف، المُمْتَحَنُ بعلوم الحروف والأنساق، فردَّ الرجل المُقبل على تحصين خياله الناطق باللغات: "المعذرة، ياسيد قاديشا، لو ساءلتك لماذا تعلمتَ التركية، والكردية، والعربية، والفارسية، واليونانية؟". حسر الشيخُ عن رأسه الطربوشَ الذي لم يتوارثه عن الأسلاف. أبقى يده على النَّسج القُمعيِّ الأحمر: "أحببتُ تقبيل الدنيا بأكثر من فم". تنفَّس

دلشاد التوريةَ بحياءِ المُعْجِب، فتداركه الشيخُ ممازحاً: "تصوَّرْ لو أن لك خمسة، أو ستة من هذه"، وأشار إلى ملتقى فخذيه، فاضطرب دلشاد خجلاً. ضحك جرجو، وألقى عليه ثلاثة أبيات من الشعر السرياني اختضَّ فيها القافُ المكتنز كخنوص راكض. "لن أترجمها لك"، قال. "لاأريد لكَمرتك أن تنخسف إلى باطن صَفنكَ".

ثلاثة آلاف بيت من الشعر المكنون في رطانة السحر أُلقيتْ على مسمع دلشاد، في إقامته سنةً تحت سحاب الأزل السرياني. يتلقى من جرجو أنباءَ حروب المعاني، وحصارِ التوريات للتوريات، وأحابيلِ الحروف، وتاريخ الخطط المجازية لتوليد الأشكال المنطوقة من خيال السكون المنطوق، وتَراشُقِ الإعراب بأقدار العقل، وهزائم المفردات أو غَدْرِ بعضها ببعض. حمل جرجو قلبَ دلشاد إلى عاصفة وحدته شيخاً أعزبَ بلا نسل يريد أن يُنجب فيه ـ في قلب دلشاد ـ سيرةً طالما أرادها بلا بداية؛ بلا نهاية: "ولدتُ في كتاب عن تاريخ الماء. لاأتذكر نَفْسي إلا ماءً. ليس لي لحم أو عظم بعدُ. عليَّ جلْد يحيط بسحاب كثيف. وأنا، كلَّما أتقنت لغةً جديدة، عدتُ إلى هيئتي الأكثر إنحلالاً؛ إلى هيئتي الخفيفة في كتلة الظل الرطب. سترافقني يادلشاد في عودتي بك إلى خوفي الأول من أن أدخل متاهةَ الحروف فلا أرجع قط". ابتسم: "من يدري؟ لعلَّني لم أرجع قط"، قال متردداً في النظر إلى خرزة يقينه.

الريحُ الرسولةُ دحرجت على لسان دلشاد بزرةَ المجهول الشبيهة بحَبِّ الكزبرة. سال لعابةَ من طهو النطق التركي، فتردد على التكية النقشبندية في بلدة نزيب، حتى حشد لنفسه، وهو يافع، سلالَ البذور النقية في خيال الكلمات. حفظ أربعة آلاف بيت وبيتين من أشعار المثنويين، الهائمين بسُبُحات الغروب الأعظم في الخلجان الجافة من بحر الأناضول المفقودِ. طلب قلبُهُ الاستزادة فأوفده أبوه سينو شاهنور إلى أخواله من آل هِمت الدين في حلب. جمع هناك اللغةَ العربية من كتاتيب

الوراقين. عاد إلى بلدته سياسيل المرفوعة على جُرفٍ من بقايا الطوفان الثالث، ليوثّق العقدَ الذي نَظَمه بأشعار الهواء في حنجرة الفرات الأعلى. قسّم خياله، بالتساوي، على لغته الكردية، واللغة التركية، واللغة العربية، حتى غدا، وهو في مطلع شبابه بَعْدُ، إمامَ الملتمسين شفاعةَ تحرير العرائض إلى الوُلاة، وتسطير المآثر السّنية للأنساب، وتجريد المَطالع الأكثر مبالغةً للرسائل المحمولة في سروج السعاة إلى محطات القطار بين أورفه وأنطاكية.

ظلَّ قَدَرُ لسانه واضحَ التدبير، يهيىء له في دُوْر السرايا، من أرض اسكندرونة وأضنة، تكليفاً مدفوع الأجر بالليرة العثمانية، عن تدوينه لنَقْل المُلْكيات، وتصريف شؤون المواريث في الأضابير المطوَّقة بخيوط القنَّب، حتى اليوم الذي أتاه رسول من الأمير مهران إيفارْدَرْ، سليل تاريخ يهتدي معصوب العينين إلى تزويد الأَنساب بكمالها. جمع دلشاد قلبَهُ المُثارَ وعدَّةً من حوائجه في صرَّتين على ظهر بغل، ثم تتبَّع الرسولَ إلى بلدة كَلاس، بين كركميش على الفرات وجبل الكرد. رمى حجرَ القراءات التسع من خياله على زرابية الغيب المزوَّقة يتسقَّطُ غايةَ الأمير من الإيفاد في طلبه. قلَّبَ خريفَ الحقول ورقة ورقة على ضفاف الجداول الثمانية والثمانين في مسالك السفوح الجنوبية لهضاب الشرق المُعشبة: "ماالذي قادك إليَّ، ياسيد إيفاردر؟". ذلك ما كان مكتوباً على لوح الحظوظ الموزَّعة على خياله بميزان اللاتعريف. ولما صافح دلشاد الرجلَ الشيخَ، ذا الحقائق المحزومة حول خصر قفطانه كلقبه الأميري، بدت المسألة صغيرة كسِفاد العصفور: "لَفَتَ عقلي خبرُك في شؤون اللغات".

سمع دلشادُ الكلماتِ عاديةً، مقرونة بالحاصل الذي جَمَعَه بدأبه في اقتياد الخيال المتعدِّد للكلمة الواحدة إلى مآدب الألسن. لكن مهران فاجأه قليلاً بسؤال لم يتحوَّط له: "لماذا لاتتعلم السريانية، يادلشاد؟". ترقرق الصوتُ كثيفاً إلى سمعه. "السريانية؟"، رد دلشاد بحروف تتمطّى.

"ماذا أفعل بالسريانية، ياسيد إيفاردر؟".

"في كوماجينا مَنْ يعلِّمك السريانية. آمر مكتبتها جرجو" قال مهران.

"ولماذا أتعلم السريانية؟"، عاد دلشاد إلى سؤاله بصوت شرَّده تدبيرُ جواب مَّا.

"عندي لك ماتختبر به يقينَ لسانك"، قال مهران.

"أتعني أن أترجم عن السريانية؟"، ساءله دلشاد.

"نعم" ردَّ مهران.

أرخى دلشاد عنقه على وسادة الهواء الخفية. تلمَّس ببصره إشارةَ العقل المتعرِّق من أحمال المخاطبات الصغيرة بينه وبين مهران:

ـ لماذا لاتعهد بالترجمة إلى ذلك السيد ـ آمِرِ مكتبة كوماجينا؟

"أريد كردياً يعيد المعاني تائهةً مثله"، قال مهران. عاين دلشاد غمامةَ المرح في عيني الرجل المحتفظ في خزانة نَسَبه بلقبٍ جرى إلى وريده من سلالة ناصر الدين محمد بن شهاب الدين الأيوبي، الذي بسط التاريخُ الثناءَ الأزرقَ عليه في مَيّافارقين ـ قاعدة بلاد ديارْبَكرْ. تنفَّست القرونُ على وجه دلشاد فاستنشق دلشاد الخمائرَ المُبْتَكرَةَ بنقائض المعقول:

ـ الترجمة مطابَقَةٌ بين المعاني. أثرٌ على مقاس الأثر، ياسيد إيفاردر. وأنا لست تائهاً، في الأرجح. قد أخذُلك.

"لن تخذلني"، قال مهران. "كل كردي موعود، في قِسْمة من حياته، بجهة تائهة". ولمس كتفَ حامل اللغات. "انظرْ حولك"، أضاف، فنظر دلشاد من حوله مُختَطَفاً من صحوته الشفيفة إلى اللغز الشفيف في توريات مهران.

"ماذا ترى؟" ، ساءله الشيخ الخارج من خزانة لقبه الأزرق، فرد دلشاد:

- أرى بيتكم الكريم.

"أنت ترى مالا أراه، يادلشاد" ، قال مهران.

قيَّد دلشاد ميزانَ الأحكام الذهبيَّ بقيد شروده في لسان الشيخ، المتأدِّب على فطنة التاريخ ذي الخزائن المقفَلة. تأرجح خيالُه خفيفاً في نعاس التقدير: "من أين تريدني أن أبدأ، ياسيد إيفاردر؟" ، قال، فردَّ حاملُ اللقب الأزرق: "نبدأ، أنا وأنت، من السريانية. تعال. اجلسْ إلى جواري هنا، على أريكة السيدة شَهْنَاز أرطغرل شاه. كُرديَّة توضأت بدم حَمام الزَّاجل كي يرجع بعلها التركماني إليها مهما كثرت أسلابه من نساء التتار، لكنه هجرها، فسلختْه بعد خنقه، وكستْ عيني الفهد المنجور على خشب عارضة هذه الأريكة بجلد صَفَنه". أمسكَ بسبابة دلشاد وتقرَّى بها بؤبؤي الحيوان النافرين. سحب دلشاد يده، في حياء ونفور معاً؛ تسربت إلى إصبعه ليونةٌ وخزتْ خيالَه.

في ميناء اسكندرونة تفتقت بزرةُ النداء السرياني في القطاع الثامن من عقل مهران. سقطتِ البزرةُ عليه من أرقام الحساب المتطايرة من دفاتر جباة المكوس. كان حاملُ اللقب الأزرق يستخلص عربةً من التي تجرُّها الجياد، صُنعت في سردينيا من ائتلاف النحاس المعتلِّ من رفاهية الفلزِّ الخالص، وخشب القيقب المعذَّب بكمال النار. مسَّ جلدَ المقعد الأحمر، والبطانةَ المخملَ للقبَّة التي تُطوى من مفاصلها الأقواس المخططة بأزرارِ ذهبٍ تعكس السماءَ مدوَّرةً في شرودها. "عوفيتم" ، قال للعمال التسعة، الذين حملوها إلى ظهر محفَّة كي لاتمسَّ عجلتاها الأرض، في طريقهم من زحام الميناء إلى قطار ملاطيَهْ. تنفَّس الهواءُ. كُتِبَ مايستذكرُهُ الغيبُ من لوحه المرئيِّ فقرأ مهران سطرَ امتنانه للحظوظ الساهرة عليه من فَلَك إرثه. دفع لجباة المكوس ورقاً عريضاً نقلتْهُ صناعةُ النقوش

والرسوم من مرتبة النشارة الخشبية إلى مقام المعدن النفيس. عدَّ الجباةُ الورقَ النقد بالحاصل الذي يحوِّل اللون بين رسم وآخر إلى كمٍّ من الماهيات الجليلة كوجوه السلالة العثمانية، المتطلعة بعيون لاتخطىء إلى المجهول المروَّض في أقفاص الأقاليم. بلغ الصدى السرياني لألسنة الجُباة، وهي تحصي الأعشار حشداً حشداً، مسمعَ مهران: أرقامٌ غزلانٌ تقافزت من العِلْم المستور إلى الغيب المكشوف. "لماذا تعدُّون بالسريانية؟"، ساءلهم حامل اللقب الأزرق، فردَّ عريفُ الكشوف المكوَّمةِ في فوضى أيامها، والسجلات المقيَّدة بسلاسل من ذهول اللامرئيِّ: "الرقم وحشي، نَفُورٌ وحَذِرٌ، لكنه يأنس إلى مناداته بأسماء الصُّور"، قال بلسان تركي.

الرقم حيلةُ اللاتقييد في علوم المحسوس؛ وواسطتُه إلى عِلْمه بذاته. هي لفظُ الإطلاق بلا عمقٍ، أو بُعْدٍ، فكيف قيَّده عريفُ المكوس السريانيُّ بقيد الهيئة، واللون، والحركة، التي هي منزلة الصُّور في خيال العين وخيال العقل؟ الرقم حدٌّ وحيِّزٌ؛ حَصْرٌ، وضَبْطٌ، ومراوغةُ فكر لاستدراج الكلِّي إلى متَعيِّنٍ أسماءٍ هي كنايةُ غيابه: تجريد الرقم بلاأمل في شكل، أو لون، أو أثر من آثار الماهية، كأنه غيبوبةٌ تُكنَّى بها مَلَكاتُ اليقظة، فيستعير منها الإنسيون حقائقَ الكمِّ الموقوفة على أشياء العالَم وأشياء العقل. فكيف خرجت اللغةُ السريانية على ناموس البزرة التي أنجبت خيالاً على هيئة اللاخيال؛ البزرةِ المتجرِّدة من غذاء الأَبعاد الثمانية - أبعادِ الجسم ولوازمه الحُرَّة الناطقة، والصامتة؟ للرقم أسماء الصور. هذا مافهمه حامل اللقب الأزرق من عريف المكوس على باب البحر الأشعث من كثرة لهوه بالأرخبيلات المسكونة. السريانية!! ها؟. لغة التحقيق في علوم المُهْمَل - يقول المُنَزِّهون خواصَّ المُسْتَغْلَقات؛ وذلك، تحديداً، ماطرب له القطاعُ الثامن من عقل مهران، فرقص خياله من أول مساء البحر بإسكندرونة، حتى فجر الحدائق المحروسة بالبوغانفيل في كلاس.

كانت اللغة السريانية تحت يدي مهران، قبل النداء الذي تفتقت بزرته في ميناء إسكندرونة ـ ميناء الخليج المُتكتِّم على أحاديث القيَّافين في متاهات البرزخ الإغريقي: حَوَت مكتبة أبيه، التي ورثها مع أخته شَبول فأخذت نصفها إلى عفرين، مايخرج عن تدبير اللسان في الفهم. طبٌّ، ومنطق، وشرائع مأهولة ومهجورة، وكيمياء، وفَلَك، وهندسة، باليونانية، والفارسية، والتركية، والعربية، والهندية؛ وترجمات بالسريانية عن فلسفة أهل العقل المسحور ـ عقلِ الوصف الكامل لآلات النُّقصان؛ وصحائفُ لها حجوم الأبواب تحوي خطوط مِلَل الصين المطوَّق بحجارة الشُّهُب، التي نفخ عليها الغيهبُ من جهات الكلب الأكبر في دخوله برج القوس، فتساقطت أشجاراً سوداء، وأنصافَ أسماكٍ سوداء، وتماثيل فِيَلةٍ وأحناشٍ.

لم يتوسَّط قلبُ مهران لخياله بين اللغات إلاَّ مااتَّصل منها بالوجدان المُعَذَّب في سطور التاريخ، حيث يبني الغَدْرُ الممالكَ والدول، ويهدمها الصَّلاحُ؛ ويقدر السَّلبُ والغَصْبُ أن يعيدا صناعةَ الأقدار وِفْقَ رغبة الرحمة. إلتفتَ بعضلة الاعتبار فيه إلى التركية، والعربية، وبعض الفارسية. لكن مكاشَفات الرقم، على ألسنة جباة المكوس السريانيين، أعاد إلى بصر أعماقه صورةَ المخطوط الذي دوَّن عليه أبوه زازا إيفاردر بالكردية، تحت عنوانه السرياني، ترجمةً بالقلم الفحم: "المُخْتَصر في حساب المجهول"، مع تعليق مُختَطَف من خوارق اللسان الحَذِرِ، وتوريات الخوف من العبث بالحدود المصكوكة من معدن المحظور: "حين يبلغَ بكَ العدُّ إلى الشيطان يتضاعف الرقم الذي أنتَ فيه. نصف ذلك الرقم هو الأزل. وحين يبلغ بكَ العدُّ إلى الله يُختزَل الرقم الذي أنت فيه من تلقائه. نصف الرقم المُختزَل هو الأبدية".

"نبدأ من السريانية، يادلشاد"، قال المتَّكىءُ على خزانة لقبه الأزرق، وسرد عليه، باختصار في تحديد الجهات والوقت، أنه أبلغ

الباشا الشارد العينين في كوماجينا بقدوم دلشاد، عسى يشمله آمرُ مكتبتها بسخاء الصبر، وسعة الصدر، والسلوك بالحروف السريانية إلى الترويض والاستئناس باستدراجها من ناموس حقيقتها إلى الإقامة في حقيقة لسان آخر، منعكسةَ الهيئات في ماءِ المعنى الواحد. "خذْ ثلاثة ديكة نقيَّة الخُصى، لم تمَسَسْها برهةُ سِفاد بعدُ. السفاد يورث الكائنَ خيالَ الشكِّ". أخذ دلشاد الديكة، في قفص، وهي تتجادل، باهتزازِ من أعرافها، في شؤون السديم الذي ترجع إليه روح الحيوان. نُحرَتِ الديكةُ على عتبة باب مكتبة كوماجينا. تلاقحتِ البرازخُ وتسافدتِ الحدودُ المحجوبَة ببلاغة الدم وفصاحته.

ثلاثة آلاف بيت من الشعر أُلقيت على مسامع دلشاد، تحت غمامة الإرث السرياني. ليس لدى سَحَرةِ تدوين النَّظْم المُسْتَغْلِق، أو المُبينِ، ومثله من أناشيد الليل والنهار، ترجيحٌ للعدد المُحصى من سطور مرثاة "خراب أنطاكية"". بعضهم قدَّرها بعشراتِ تسع، وآخرون بعشراتِ مائةٍ غير منقوصة، إلا جرجو نيقو قاديشا، الذي عَدَّها ثلاثة آلاف بيت وبيت واحد أكلت الأرَضةُ عجزَه، فآثر إسقاطه من المرثاة لغرابة ماتبقى من صَدْره: "البقاءُ الذي يمزِّقُ ذلك كلَّه"، متحسِّباً للأمر بعذرٍ قويٍّ: "يادلشاد، هذا البيت منحول. إسحاق الأنطاكي لايشير بلفظ واحد إلى الزوال. الأشياء تتقوَّض، لكنها تبقى على صورة وجودها المحظوظ في عقل عناصرها. الوجود المحظوظ هو مايكون امتنانَ الهيئة لأبعادها المرئية المعقولة في نسقٍ مُرْضٍ. الهندسة تفعل ذلك. الرياضيات تفعل ذلك. أعني الرياضيات. نعم. تجريدُها مرئيٌّ. دَعْكَ من هذا، وتعالَ إلى اسحق الأنطاكي. إنه لايشير إلى الزوال، فلماذا يُقْحِمُ البقاءَ في الشطر الأخير من مرثاته؟. ها؟"

تسرَّبت إلى مرثاة اسحق الأنطاكي أبيات عن ظلال شجر النارجيل في كوماجينا ـ ظلال الشجر الباكي بدموع الفلسفة على أفكار

الشمر القَلِقة. لم يدبِّر لها جرجو تبريراً. ربَّما مرَّ اسحق بأرض كوماجينا، في لحاقه بخيال الأعمدة وهي تنهار تحت ثقل السِّحر الزمني: الأعمدة الذهبية؛ التماثيل المطوَّقة الأرداف بأحزمة الوجود المرتخية؛ الأبهاء الناطقة بلسان الرخام؛ الآنيةُ الجِرارُ المنقولة بأقلام الخزف عن عقل اللون. من معاقل السهول الملتوية حول نهر العاصي حتى قلعة أَعزاز المحمومة من ريح السلجوقيين، نثر اسحق لوعتَه على بساتين التاريخ، كلٍّ بستان بحسب ماحوى من مراتب أنطاكية ـ فردوس النهب المتعاقب بين أمم الغضب، حَمَلةِ بيارق الشموس، والنسور، والآساد، وأنصاف الأقمار، والصلبان، والنجوم. قراءة في الوَدَع كانت أنطاكية؛ تجمعها يدٌ وتبعثرها يدٌ، فتجتمع لها حظوظ الحدائق مرَّةً، وحظوظ المدافن مرة. روم، وفُرْسٌ، وعرب، وصليبيون، وعثمانيون، بتعاقب مُنْصف للمجهول المحيِّر، والمعلوم المبذِّر، يضاف إليهما زلزالُ القرن السادس بعد معجزة الحَبَل السماوي ـ زلزالُ المشادة المدبَّرة، بإتقان، بين الله والوجود: "أيها المساء الذي تحمل على ظهرك، كالأتان، ريحَ الفَسَاد الذي إمتلأ به جوف البَيْض". كذا صَكَّ الأنطاكيُّ معدنَ شفقته على طباع الصيرورات، في البيت المُشرف من سطور المرثاة على حقائق الليل والنهار، المدوَّنة بانفجار العناصر الترابية غيظاً ـ عناصرِ تأويل الغيب المحسوس مثل فُساء الظربان. وقد ألحقَ جرجو بمطلع فقرة الزلزال من عمود المرثاة بيتاً آخر، باعتراف وحيد منه، ابتغاء "ترميم" المعنى ـ كما يقول ـ بهيكل من المجاز الذي لابدَّ منه ليصير الشِّعر إشراقاً من عصيان الكلمات للكلمات، ومن طاعة الكمال للعبث: "أيها المساء الكلب، اللاهث، الذي يقود الإنسان الأعمى إلى هاوية النُّور"، جازماً أنه أراد "النُّورَ" رمزاً لبراعات العمران، وترف الزخرف والنَّقش.

كانت شمس الربيع، الموشومة برُقى الفَلَكِ الرابع ـ فَلَكِ الخصائص الأزلية، منعكسةً، في الهزيع الأول لمغيبها، على الجدول الصغير الذي

لم يترسب من دم الديكة الثلاثة، حين غمس دلشاد ريشة قلمه المثقوبة في سائل الحياة، ودوَّن تاريخَ قدومه إلى كوماجينا على صفحة من دفتره المجلَّد بلوحين رقيقين من قشر البلوط المضغوط بعد نقْعِه في لبن الخيل. جرجو، نفْسُه، مَهَرَ الصفحة برَسْمِ إبهامه تأكيداً للرهان على سباق دلشاد مع المكان المطلق السراح كعلومِ البدء. وقد كانت الشمس ذاتها ـ شمس الربيع المختمرة في حقول الهندباء والناردين، هي المنعكسة، في الهزيع الأول من الصباح، على بِرْكة دم الديك الروميِّ المذبوح على عتبة باب مكتبة كوماجينا، حين غمس دلشاد ريشة قلمه فيها ليدوِّن يوم رحيله عن بساتين جرجو المستورة بحجاب من أشعار سَلفه الحزين اسحق الانطاكي، بعد سنة وشهر واحد من الإقامة في برزخ الحروف السريانية: "أستاذ قاديشا، ضعْ صورةَ إبهامك المغموسة في الدم على طرف منديلي هذا، الذي مسحتُ به أربعة آلاف مجلد. لن أغسل عنه الغبارَ الناطق"، قال ملتفتاً بعنقه إلى شجرات الميموزا الأربع في الساحة المفتوحة، جنوباً، على مقابر الغرباء المجهولين. تحت الشجرات كان الشيخ مراد حاج كوزلي متكئاً بظهره إلى جُرن حجري، معفَّرَ الهيكل، من عمامته حتى قدميه الحافيتين، بالهبوب الخامد لزهر الميموزا ـ زهر الولادة العسيرة لغمامة اللون الأصفر من رحم شقيقتها البيضاء. "إنه ينازع"، تمتم دلشاد. مَهَرَ جرجو طرف المنديل بإبهامه: "منذ ولد وهو في أمره هذا. سينازع حتى في الجنة" قال سليلُ الهدنة الأبدية للخيال السرياني.

تحت شجرات الميموزا أنهى الشيخ مراد رحلةَ جسده الصائم، الذي انتقل به من شجر الكينا إلى شجر التين، ومن شجر الكستناء إلى الأكاسيا. انجلى لعقله الممهَّد بالزخارف الذهبية ـ زخارف التأويل السالك محموماً بين التيه والندم، أن التكْفير، الذي قالت به أممٌ من أحزاب الوعيد بلانهاية، تكْفِير مبتور. فما طاول من الأحكام أطفالَ الزنادقة بتكليفهم شُبهاتِ الآباء، ينبغي التوسُّع فيه على المطابقة بين المادة

العضوية والإرادة. فالأغذية تولِّد للجسم مايصحُّ به توليدُ الفعل: "التفاحة، على الشجرة، هي غير ماهي وقد انهضمت في أحشاء الزنديق"، قال كوزلي. التفاحة إمّا شرٌّ أو خير، لكننا لانعرف منزلتها على الغصن. لابأس. مايجري في التفاحة يجري في اللحم، والكرّاث، والعدس. الفهرست، الذي حوى أسماء النَّبت، والبزور، انتهى في فصل ختامه بالمنيِّ. أخذت الحيرةُ بلجام المقايسات في إشراف كوزلي الشيخ من حقل التَّكْفير العاطر على آلات الحقِّ ـ آلات صَقْل المغاليق، وترميم الأَقفال: "المنيُّ شُبْهة"، قال. نَحْوِيُو الرموز، والمواثيق المؤكَّدة المفقودة، في أنحاء من جبال أمانوس، لم يناهضوه ولم يُمالئوه. تركوا لأسبابِ اجتهاده أن تبقى معلَّقةً إلى باب الوحي من وجه، وإلى باب الكَسْب والتحصيل من غرائب الأحكام، من وجه آخر. فاشتد بالشيخ كوزلي نزوعه إلى تفريع المُشْكِل من المُشْكل: "الماءُ شبهة. الماء غذاء الشرِّ في الزنديق"، قال. قُرئتْ عليه كرامات الماء في الأحكام، فأكَّد جوازَ النَّسْخ من العلماء الأقطاب: "لاكرامة للماء بعد انكشاف المحذور من علَّة عنصره. انكشف الماء لي، وأنا قطبٌ"، قال، ثم أسلم جسدَه للجفاف الطاهر، صائماً، ينقل طبائعَ الرطوبات، في الخلية، من حال ذهول إلى حال ذهول، حتى تبعثرت مقاديرها في رُسوِّ الغيبوبة به تحت شجرات الميموزا، حيث ألقى دلشاد ببصره وهو يستعيد منديله المذيَّلَ بتاريخِ الظاهر من جرجو نيقو قاديشا.

"المُخْتَصَر في حساب المجهول" هو المخطوط المُسْتَنْسَخ، الذي وضعه الأمير ذو اللقب الأزرق، بين يدي الخيال المُمْتَحَن بدورة المطابَقات اللامتجانسة ـ خيال الترجمان في المنزل الثالث من عقل دلشاد. كانت الغرفة، المخصصة لإقامته، بارتفاع خفيف عن السور الجنوبي من دار مهران، تطل بشباكها المطوَّق بحجر أصفر، نافرٍ، على حقل شجيرات اللاَّذن ـ شجيرات الميثاق المائِّي، المحاصَر دائرياً بطريق مرصوف حتى سوق كلاس الكبير. "الترجمة ماءٌ"، قال مهران حين قاد

ترجمانه من البوابة المشرفة على نهر نُوْهْ آفْ، عبر الممر المسقوف برقائق القرميد ـ خزفِ المكنون المشوي فوق نار العلوم، إلى الغرفة المنفصلة بتمامها عن هيكل الدار العالي. "نحن ندعو هذا النهرَ نُوْهْ آف، والأتراك يدعونه يَلْدِزْ". نبعٌ ـ سُرَّةٌ في جسد الظاهر المؤجَّلِ سَفحَ معادنَه الدَّهرية في الأخدود المتفرِّع عن انهدام وادي قره صو، فقطع كلاسَ من ثلثها الغربي. على ضفة المجرى الشرقية بنى زازا إيفاردر، والد مهران، دارته طبقتين فوق نجدٍ منحدر باتجاه الماء. جعل عينَ البوابة ـ المطعَّمة الخشب بأصداف تتبدل ألوانها في المغيب، اجتُلبَتْ من حرش الدَّلْبوث في جزيرة ساموس المهجورة ـ على سطور النشيد، المحفورة هَمساً، في لوحِ نوه آف الشفيف. أزاميلُ الزبد الرقيقةُ ابتكرت حروفَ الظاهر الخفيِّ معروضةً بكمالٍ على خيال زازا. "هلاّ رفعتَ الماءَ سُوْراً حول بيتي؟"، قال الرجل للمعماريِّ الأصمِّ، المنحدر من سلالة فَنيَ نصفها بسموم الزئبق، في توبيخها العلومَ المقصِّرة عن تحويل الزئبق إلى تبرٍ، فردَّ الأصمُّ برطانة فيها نبرٌ من صوت طيور القُوق: "ألا يكفيكَ سورُ السماء، يانقيبَ البَرِّ؟".

كانت الغرفة ـ المنفصلة عن مجرَّة الدار ذات المداخل الثلاثة، المتفرِّعة عن الصحن الحجري الذي يلي البوابة ـ منذورة، في الأصل، لآلة زازا الخشبية، الضخمة: ألواح واسطوانات، قبَّان، مروحة، أمشاط مستطيلة مثبتة في تجاويف أفقياً، ملاقط، حوض تحت الألواح غير عميق، عتلة ذات مقبض تُدار باليد. آلة من قديم الإنشاء الصيني لورق الرسوم، حملتْها الجمال القاجارية أجزاءاً إلى بخارى، ثم حملتها بغال صحراء الملح إلى قزوين، ثم حملتها القوارب في فروع الأنهار إلى بحيرة وانْ، ثم لهثت بها عربات حمير الأناضول البيضاء إلى نبع كلاس. نُصبت الأجزاءُ هيكلاً كهيكل الوقت، ودُهنت بزيت زيتون رودس الأسود فالتمع بالعافية خيالُ الخشب الساهرُ، منذ بزرة نشأته الأولى، على تكليف حقيقته بصناعة الكاغِد.

تحصَّلت لزازا علومٌ صغيرة في مهنة انتقال العجين إلى ورق، بمخالطته الورَّاقين في أورفا. لكنه آثر اعتناقَ المجازفة بالخمائر في صيرورتها غذاءً لصناعة المخصوص، وابتكار السريِّ. وقد خذلته الخمائرُ حيناً، وأعانته حيناً: إما يتفتت الورقُ من مقادير أخلاطه اللامتجانسة، أو يخرج نبيلاً بجوهرٍ ليس إلاً من خصائص الجسارات. كان زازا يخرج بمحصول من ورقة أو ورقتين في شهر، بمقاسات لاتتعدى أشباراً قليلة، يوقفها على أهل الخط، وسادة الرسوم من الكرد. فإذا عادت الأوراق إليه معتنقةً خيالَ المقادير الكبرى والصغرى للأَشكال، متعْتعةً من غَزَل اللون، وهَبَها لباشوات من آل زنكي في معرَّة النعمان، وآخرين في أَعزاز.

لم تبق نُخالة شعير، أو حنطة، أو جاوَرْس، أو ذُرة، أو لوبياء يابسة، إلاً روَّضها زازا على الملاسة بعد حَذْفِها رقائق حَسَنَةً بتدبير خمائرَ من أحماض الصمغ، يترسَّب منها الجوهرُ كَيْفاً، والكيفُ جوهراً، في الحوض الذي تتخذ فيه العجينةُ خصائصَها النهائية كورقة ينشِّفها بمروحة قصب الغُدران. طَحَنَ نِقْيَ نبات الأخيون، ووَزيْم النخل، ومزجهما بدقيق صَدَف الحلزون النهري - حلزون لسانِ الحقائق الرطبة، ثم جفف الخَلْطَ في ساعة المغيب من ستة أيام في أَيَّار العاقل، وأعاد عَجْنَه بعصارة حَبِّ القُرطم، فاستخلصَ الورقَ الأصفر الصالح لتدوين الحِكَم الهندية بالحبرِ البُنيِّ - حبرِ اللون الملجوم. نقعَ القطن، مُسْتخرَجاً من جوزه الأخضر قبل نضوجه، في نشارة شجر السرو، وأضاف إليه صمغَ الغار مع حمْضِ الحصرم، فاستخرج الورق الرماديَّ الذي يغري باستراق البصر، عبر اللونين الأحمر والأسود، إلى العَدَم مُظلَّلاً بحروف أهل الحبشة، التي شاعت في الوشم. ولَّما استنفد زازا كيمياءَ النِّسَب العضوية في معاجينه، نزح به خيالُ المحظور إلى تدوين أَحكامٍ في ما يتوجب تخطيطه على جلد الآدمي، بحسب جلْد كلٍّ عضو فيه:

"جلد الظَّهر يصلح لنقش أشرعة المراكب. الظَّهرُ خليجُ الإنسان، ومابين تَرْقوَتيْهِ ريحٌ".

"جلد الصدر، مع حفظ الحلمتين فيه، يصلح لنقش النمور تتصيد الحمارَ الوحشيَّ. الصَّدرُ بريَّة الإنسان، ومابين الثديين آثارُ عميان قنَّاصين بالسَّمع وبالشمِّ".

"جلد البطن يصلح لنقش الأسماء الكبرى - أسماء الأفلاك الأرضية المتصلة بأسرار العنب. البطن آلةُ الإنسان في تمكين المُطْلَق من العثور على أغذية الجوهر".

"جلد العانة يصلح لنقش نبات البرسيم. العانةُ حياءُ العقل من النظر إلى نَفْسه يرعى في حقول جيرانه الثلاثة: الخيال، والتيه، والمحظور".

"جلد الردف يصلح للدمغ بختم المَكْس الأزرق - مَكْسِ الزجاج والخزف. ردفا الإنسان سِيرَتُه".

"جلد الفخذ يصلح لنقش الاسطرلاب. فخذ الإنسان عِلْمُ جسده".

"جلد الرقبة يصلح لرسم الخنفساء بالحديد المحمَّى. الرقبة حماقةُ الجسد في الإشراف على الفَناء المهرِّج".

"جلد الجفن يصلح لتدوين الرقم التاسع. الجفن علامة الحجاب في الإنسان".

"جلد الغُرْمُول والصَّفن، من غير فصلٍ، يصلح لنقش بيت من الشعر في خصائص الموت. الغرمول والخصيتانِ من آلات الخوف".

أهمل زازا، في سِجلِّ الجلد المدوَّن بحبر من مرارة الوَرَل، ذِكْرَ

الذراع، والساق، والعَضُد، والرأس خَلاَ الجفنَ فيه. لكنه استفاض في ما يصلح له جلدُ ظاهر القَدَم مع استبقاء الأصابع الخمس: رَسْمُ الفَلَك على صورة زرافة بخمسة أعناق؛ أو الديك بخمسة رؤوس؛ أو تخطيط كلمة "الخسارة" سبع مرات تلحقُها تعريفاتٌ فيها إطراء، واستحسان، وتفخيم، ومَلاَحة، واستِعْذاب: "رِبْحُكَ من الخسارات لاحَصْر له. إِخْسَرْ أكثر تَزْدَدْ ثراءً". "الخسارةُ يقظةٌ. الربحُ إغفاء". "الخسارة لذَّةُ الربح".

في الغرفة تلك، المشرفةُ بشبَّاكها الجنوبي على حقل شجيرات اللاَّذن، تماوجت كلمات الأمير ذي اللقب الأزرق في خيال دلشاد: "الترجمة ماءٌ". ربما كان الندى المنتشر من أنفاس نهر نوه آف على فضة الحياة، حول دار مهران، يستدرج العلومَ إلى النظر في منشأِ الحساب الأزليّ ـ الماءِ شُعلةِ الرقم الأول؛ رقم المُمكنات. لكن مخطوط "المُخْتَصَر في حساب المجهول" بدا على شَكل كثيب في صحراء من الريح لا من الرمل، عليه أثر من أصابع الوَرَل ـ سادن الجفاف الناطق بأسماء المجهول الأربعة: العِلْم؛ النسيان؛ البداية، والمقدور. ربما أطلقت توريات الأب زازا إيفاردر ذلك الوَرَل من كمين سطوره "حين يبلغ بك العدُّ إلى الشيطان..إلخ. حين يبلغ بك العدُّ إلى الله..إلخ"، ربما. رأى دلشاد الأثر الخفيَّ للحيوان الزاحف في مجاهل الحرف السرياني. قلَّب الورقَ الخشن بأنامل تتقرَّى ممحاةَ السرِّ. قرأ اسم المؤلف: جرجيس لوقا سالوحي: "هذا كتابُ الأَعيان المنتظرين أن يلدَ أحدهُم من عقل الآخر وهم يلعبون الشطرنج".

"بقي القليل، ياأكيسا"، قال دلشاد، في مساء الخريف المرصَّع بخرز الفرات. "ماذا نفعل إذا أنهيتُ الترجمة؟".

وضعتْ أكيسا شفتيها المملَّحتين من فَصْفَصة بزر اليقطين على زاوية فمه اليسرى. تذَّوق بلسانه خيالَ لسانها المشتغل على توليد الحواسِّ السبع

ناطقةً بشهواتها. قامت إلى النافذة الشمالية ـ نافذةِ الجهة العجولة: أبعدت ستارةَ النقوش الجبلية بإصبعها مقدارَ فِتْرٍ ترصد ساحة الدار. "سنجد حلاً"، قالت من غير أن تنظر إليه. تراجعتْ عن النافذة: "سأذبح هذه البلدة فرداً فرداً على ركبتي إذا أنهيتَ الترجمةَ. الانتهاء منها مُلْكي، وحدي، ياعِرْقَ كبدي يادلشاد"، قالت، متجهة إلى الباب الذي فتحه لها الشاب. رمتْه بحفنة من بزر اليقطين، وانسلَّت.

الفرسخ الثاني

(شجرة الهزهَر)

عراءٌ عشبٌ تسلَّم زمامَ الفضاء الشاغر، من دار مهران حتى نهر نوه آف، ومن أطراف حقل اللاذن حتى دار أُوْزَال بَكْبَكيجوك، ابن عم الوالي صَفْوَت بكبكيجوك المتفخ الرقبة من داء الغُدة الدَرقية. مهاجرون من الهُون البيض، حملتهم رياحُ جبال التائي، نشروا بذورَ العشب المسحور ذاك، قبل ثلاثة عقود، يرعونه بمَعْزهم الشُّقر القرون، فظل ينبت كل عام بنفسه، أخضرَ في زرْقةٍ إلاّ أيامَ انكباب ظل الجليد المرتفع من قمم طوروس على كلاس. في الممر المرصوف بحجر الزمهرير - حجر المغاور الرطبة، الممتد من الجسر قبال دار مهران إلى السوق، التقى دلشاد و دِيْنَان بِرْواز النحيل. "خطواتك واسعة"، قال دينان ذو السترة السوداء المقصَّبة، والحذاء المدبَّب كسهم.

حازَهُ دلشاد ببصر الحروف في خياله: "أظنُّ الأرضَ تتمطَّى لك وتتقاصر لي"؟

ابتسم رجلُ دار الصكوك النقدية التابعة للأمير مهران. تلمَّس شراريب عمامته المذهَّبة: "أرأيتَ زوجتي؟".

- زوجتك؟

- خرجتْ باكراً إلى دار مهران، ولم ترجع بعد.

مال دلشاد بوجهه صوب النهر صامتاً فلم يكرر دينان سؤاله. سمعا جلبة فحادا عن الممر المرصوف. جاورتهما عربة مهران ذي اللقب الأزرق. أحنى الرجل جذعه من تحت القبة الجلد الملتمع بعافية الأصل

الحيواني: "أأحملكما معي؟" قال، فردًا بإشارات امتنان من الأيدي: "نفضِّل أن نتنفَّس بنهم مثل جوادك"، نَطَقَ دلشاد، ثم توقَّف. توقَّف دينان الكهل. فاجأتهما جَلَبَةٌ أخرى. خرجت عربةٌ ثانيةٌ من بلَّورة الفراغ وهي تزاحم عربة الأمير فكادت تصدمهما. هرولا جانبياً حتى صارا في العراء العشب. تجاورت العربتان. مدَّ الرجل ذو الطربوش، الجالس في العربة الأخرى، رأسه من القبة السوداء: "كيف حال إمارتك، اليوم، ياسيد مهران؟"، فرد الأمير ذو اللقب الأزرق:

ـ كحالك، ياسيد أوزال بكبكيجوك باشا.

تعرَّقت حجارة الممر من أنفاس الجوادين الملجومين، اللذين أفسحا للتهكُّم بين مهران وأوزال خلوةً يشحذ فيها معدنَه المُستثار.

"ما القويُّ فيك، وما القويُّ فيَّ، ياسيد مهران؟"، قال أوزال، الذي نطقت سُبَّحةُ الفضة، في يده اليسرى، بلسان المعدن فيها ماينبغي أن يسمعه الغيب، فردَّ ذو اللقب الأزرق:

ـ القويُّ فيك ماتعرفه من ضعفك. والقويُّ فيَّ عظامي.

تراشق حوذيًا العربتين لفافتَيْ تبغ. كلٌّ حضَّ الآخر أن يتذوَّقها، بحركات خرساء، تغليباً لمذاهب النكهاتَ على النكهات. خضَّ الدم قِربةَ زَبَده في صدغ أوزال:

ـ لماذا نحبُّ حكمةَ الجزَّار في مباهج أقسام اللحم، ونبتذل مهنته؟

"ربما لأن مهنته هي حكمتنا ياسيد بكبكيجوك. لكنني لاأفهم لماذا تبتذلون مهنته"، قال مهران محاصراً سُنَّةَ بكبكيجوك في أحكامه. استدرك بكبكيجوك لفظَهُ المتناثر: "لاأعني الابتذال تماماً، بل نترفَّع. حسناً: نتباهى بكلاب الصيد، ولا أحد يريد أن يكون كلباً"، قال مُتناً، بابتسامةٍ، لبلاغةٍ طاوعت شرودَ لسانه عن المعاني، فابتسم ذو اللقب الأزرق بدوره من جفاف المعنى على لسان أوزال. حيَّاه مودِّعاً:

"أأعتبر جوادي حراً الآن، أيها الباشا المحفوظ؟"، قال، فاستوقفه الباشا بسؤال غير مبرِيٍّ:

- أيٌّ ضياء أحبُّ إليك: ضياء النهار أم العقل؟

"ضياء النهار، لأنه يساوي بين ظلي وظلك"، رد مهران.

"وماذا عن ضياء العقل؟"، ساءله أوزال بنبرة انتقاصٍ.

"أَبْقِهِ لك كي يبهرني فلا أراك"، رد مهران.

أزْبَدَ قلب أوزال. اعتصر بقبضة قلبه ناموسَ لسانه كي يطاوعه في تدبير الكيد: "أتزرع بندورة في حقلك؟ جلدُ مقصورة عربتك أحمر، يامهران"، فتلبَّد مهران. ماج به حَنَقٌ خفيف لم يلجمه: "بل نزرع الطرابيش الحمراء".

فرقع سوط حوذيِّ الباشا فانقذفت العربةُ سابحةً في أخدود الهواء الأزلي. تقدمت عربة مهران، بدورها، حرَّةً. عاد دلشاد ودينان إلى سكة الممرِّ الحجر متَّصليْن بأجرام المتوازيات الخفية، وتقدَّما بحركة متصالحة مع ظليهما المتلامسين: "ألا تصلُ معدناً اليومَ؟"، ساءل الشابُّ، المقيَّد بالمعاني المتناظرة في الترجمة، رفيقَه االكهل ذا الحذاء المدبَّب، فردَّ دينان: "لم يصلنا نحاس من جهات أورفا. أنا ذاهب إلى دار الشحن لأستطلع الأحوال".

أوكل الأمير إيفاردر إلى دينان إدارةَ مشغل الصكوك الواقع شمال جسر نوه آف، بعدما استحصل ترخيصاً من السراي. أوحى إليه أمل الخلود المُثقلُ بِهبات النسيان أن يستحدث مايثير شهواتِ المجهول إلى اقتناء المعلوم: لا أحد يريد أن يفنى في طريقه إلى ميزان الوجود الثاني.

الحياة مصيدة: ذلك ماعرفه ذو اللقب الأزرق في قراءة أحوال الإيمان. كلُّ الذاهبين إلى يقينهم بالسجلات الموثوقة الأمينة على أن الغيب هو البقاءُ الكمالُ لم يستطيعوا خلعَ جذورهم الأرضية من سحر

النقصانِ الزوالِ ـ النقصانِ، نفسه، كبقاءِ كمالٍ. أبقوا لوجودهم السائر إلى مجهوله الفردوسيّ عيناً من الآثار، التي أطبق عليها المعلومُ من أحوالهم الأرضية بفكّيهِ الزمنيَّين، فابتكروا القبورَ، والألقاب المتَّصلةَ بأسماء القوة أو الضراعة للقوة، والفخرَ بالذُّرِّية، وتدوينَ السِّيَر، وإخضاعَ العقل للخوف من نفسه كشكٍّ إلهيٍّ في اقتدار الإلهيّ أن يسيطر على نسله الصاخب من أجناس الشر والخير في حديقته البلورية. عرف مهران ماذا يريد الواقفون أمام بوابة الوجودِ الثاني ـ الوجودِ المعلّق بخيط من القطن إلى خيال الإنسان: إنهم مذعورون ممّا ابتكروه للوجود الثاني من خصائص الوجود الأول المذعور، لذلك قد يطمئنون قليلاً بامتلاك أثر صغير يذكّر أرواحهم بالعلامات الأرضية التي تعود بها إلى الوجود الأول، إذا تاهت في المسالك إلى الوجود الثاني، ولم تَهْتَدِ إليه قط. وجود أرضيٌّ ووجود سماويٌّ، وبينهما الغيبُ المعلوم إلى درجة الضجر من تقدير خصائصه بحساب الأرقام الأبدية. نعم. الغيب حاصلُ جُمع، وطرح، وتقسيم. الغيب شهوةُ الواقع إلى ابتكار نَفْسِه مفرطاً في الوضوح: "هَيّوا؟إلى تأويلٍ يجتهد به المعدنُ في التوسُّط للمأزق". ذلك ما لم يقلْه ذو اللقب الأزرق، لكن أرَّخ به صيرورةَ الخلود المرتبك، فأقامَ مشغلاً للمصكوكات الشبيهة بنقود الآستانة: قِطَعٍ من مزيج النحاس ـ خيالِ الدَّهاء، والرصاصِ ـ خيالِ الكُلِّيات المُعذَّبة. دوَّن عليها، بالنقش النافر، علومَ المجازات الصغرى: مواليد الأشراف، وتواريخ الأنساب، وألقاب الأمكنة، وأشعار الجنِّ، وصور الأشخاص، بضمنهم رَسْم الخاتون نَازْلي بكتاشلي بعد حفره على الجِصِّ الطري بسكّين النقاش جنكيز تَمامْسَت.

تولى دينان مَشْغَل الصكوك، مستحدثاً مباهجَ الخلود بين فرن المعادن الصغير وآلات الضغط، التي يديرها ابن أخيه بمعونة النقاش ـ سيد الخطِّ والنقل. كان سعيداً بانتشار مصكوكاته المعدنية من الإسكندرونة حتى تخوم الأناضول الشرقية، وكان المُقْتَنون سعداء

بتحصيل الأسرار المعلومة على لوح الكرامات في غياهب المعدن، حيث تتجاور أساساتُ السِّحر وأساسات البرهان. دلشاد، نفسُه، اقتنى فلساً مدوَّراً عليه نقشُ العصمة: العين والسيف. وقد فاتحَ دينان، في عبورهما ذلك اليوم حقلَ العشب المسكون بأرواح أهل التائي، برغبته في صكِّ درهم ممهور برسم أبيه: نظر إلى حَدَأةٍ انقضت على غراب، في ضفة النهر: "الطير ترجمانٌ يائس"، قال. التفت إليه دينان ذو الحذاء الملتمع من خلاصة شحم التيس الجبلي: "ماذا قلتَ؟"، تمتم، وأردف منصرفاً عن سؤاله: "لاأعرف كيف أُقنع مهران بالفضة في الصكوك بَدَلَ الرصاص".

هواءٌ مختمر في حرارة الأجبان أطلق قطيعَه على مدخل سوق كلاس. افترق دينان عن دلشاد. عَقْلٌ رطبٌ ألهم سقوفَ خشب الصندل، في الممرات، أن تبتكر لنفسها تاريخَ الروائح، ببيانٍ كثيرٍ على لسان الملح، أو السُّكر، أو الحمض. تكلمت الحوانيتُ بمذاهب أشعارها القماش، وأشعارها الزبيب، وأشعارها الخلِّ، وأشعارها اللحوم، وأشعارها الطيور في الأقفاص، وأشعارها الأفاويح من فم النبات المجفَّف بخصائص أسراره الخجولة. لمح دلشاد شخصَ أكيسا عند باب العطار سِيْروبْ، الذي يُقْسِم أن الريحان ينبت من ذرق الطائر الخائف. أبطأ سيرَه يترصَّدها ـ يترصد الوجودَ المطبقَ بيدَيْ كيانها على كَمَرة شهواته، المهذبة منها والمطبوعة على النهب: إنها تشتري بزر البطيخ الفارسي الأحمر ـ بزر القشرة القاسية والُّلباب المكتنز بعافية دهنه الحلو. فمها قَبْلَ القُبل، وبعد القُبل، مُمَلَّحٌ أبداً. شفتاها مملحتان. مذ عرفها دلشاد وهي مُمَلَّحة من أنفاسها حتى كاذَتَيْ فخذيها. وهو يحبُّها هكذا ممرَّغةً في حيلة الوجود البهلوان داخل ظلام القشور المنطبقة على شحم النشأة ـ الُّلبِّ، الذي تستخرجه كاملاً غير مهشَّم فتنقله، برأس لسانها، إلى رأس لسان دلشاد. بزورٌ من كل صنف ـ حواملُ هيئاتٍ ببراثن الخيال الترابيِّ إلى علوم الوصف وعلوم الحيرة والإنخطاف: بطيخ أصفر

بيضوي، ضغطت المُمكنات عليه بثقل الأسماء فَنَحُفَ بزرُه ورقَّ. بطيخ أصفر أسطواني، عضَّه الهواء فتقلَّص بزره. بطيخ أحمر بقشر داكن الخضرة، مختنق من حصار الدورة الشمسية حول خياله، اسودَّ بزره وانتفخ. بطيخ أحمر بقشر أبيض ذي حزوز خضراء هي حراثةُ اللون فيه، ترك الترابُ بأنفاسه شهوته البُنِّية على بزره. دوَّارُ شمس، أخذتْه رعشةُ القوس في الفلك إلى تحصيل الزوايا الخفية، فتضلَّع بزرُهُ. يقطينٌ أشْكلت عليه أحواله حتى انحلَّ عنه الطَّعْمُ وفارقته مدارِكُ الذوق، فتلبَّس بزرُه بياضاً يتماهى، بخصِّيصة الحياة المُمتثلة ظلاماً في الجوف، مع اللاتعيين ـ شقيقِ الظاهرِ المُشْكل.

انتقلت أكيسا من حانوت العطار إلى الإسكافي. تَستَّر دلشاد بعنقود من السلاسل يتدلى على باب بائع الأباريق والصحاف النحاس. ناسٌ كُثرٌ من الغادين والرائحين حجبوه في النُّقْلة التالية عن عيني المرأة الغارقة في سترة سوداء ذات كُمَّين واسعين، مشمولةَ الرأس بطوقٍ سميك من فتائل الخيوط الذهبية فوق خمارها. ترقرق فوحُ ثيابها من خيال دلشاد إلى رئتيه. تنفَّسها من حدائق الشكل فأعادها هيولى إلى قِدَم المُمكنات. انتقلتْ من الإسكافي إلى الحلاج، في موج مُسترسل من حفيف سروالها الطويل الفضفاض. هي تغسل ثيابها، أبداً، بإضافة القرفة إلى الماء، وتبخِّرها، حين تجفُّ، بالمُصطكى المحترق فوق عيدان نبات السوس. هيَ هِيَ. بشرة شديدة البياض، تقشَّر عنها صَدَفُ الحجاب دافئاً في خيال وجودها القائم بحاله في خلاءٍ سحابٍ. زغبُ صدغيها أبيض. رموشها بيضاء تنغلق وتنفتح عن عينيها البنِّيتين غماما رقَّنَه ظلُّ الخفاء المحفوظ. لكن مجادلات اللون حول طبائع الفروق أنبتت لها شعراً أحمر، مشتعلاً، فيه وعد اللَّمس أن الحريق عافيةُ الطاهر. وقد تحرَّى دلشاد، في ذلك الحريقِ الهدايةِ، نقوشَ قلبه النافرة على لوح قلبها، حتى أيقن أن اللون سيرةُ الكمال تُملى، من فم الخفيِّ، على العِلْم المتحقِّق من خواص الجمال المنظورة في هيئة شَعرٍ كشعر أكيسا: احترق فيه،

فاستولَدَ نَفْسَه من خيالها لاتعرف تاريخاً لحضور الحواس قبله ـ لا شمَّ، لا لَمْسَ، لا سَمعَ، لا ذوق، لا نظرَ إلاّ استحدثتْهُ بحدوثه ذَكَراً من عماء المسكونات الحية.

أحبَّت أكيسا، في أواسط أربعيناتها، دلشاد الشابَّ ـ حبيسَ النُّقلة من لسان الحروف، في مضائق الترجمة، إلى لسان الحروف. رازتْه ببصر الوجود النَّهم في بهو دارة الأمير مهران، يوم حلوله الأول، على صَحْفة العشاء ينقل الأرز خجولاً إلى فمه، فيما تحثه نوفا جَان، زوجة الأمير: "كُلْ يابني. هذا أرزٌ أنضجتْه أنفاسُ الفَخَّار".

ضحك الجالسون من توريةٍ حُجبَتْ عن عقل دلشاد. ينضج الرزُّ في الآنية الفَخار، فما وجه الظرافة في الأمر؟ تتالت المكاشفاتُ المرحة حتى انكشف المُسْتَغلِق المستور: ينضج الرز في ورق الموز إذا طُوي ودُفن تحت جمر مطمور بالرمل. ينضج ملفوفاً بورق التبغ العريض، على نكهةٍ كخيال الديك: غبش وراءه فَجْرٌ يقشِّره فجرٌ آخر. ينضج الأرزُّ على اثنين وثلاثين نحواً في محفوظات الطُّهاة بخان أنطاكية. لكنَّ ما نُقِل عن أمِّ أكيسا يضيف إلى القائمة ما لم يَبُحْ به الرزُّ من مذاهب عقوده مع الطهو لطاهٍ قبلها. أكيسا روت ذلك في مجلس الأمير قبل ثماني سنين: "ضمَّت أمي راحتها على حفنة من الأرز. استندت بمرفقها على المسطبة وقربت يدها من السراج. بقيت على حالها هكذا، ثابتة، حتى الفجر". تفاوتت الشروح، بالطبع، بعد صُلْح حَسْنٍ بين السِّحر والتسليم حتى راقت الحكاية بما تقطَّر من شحم الحَكاية: ابنةُ آخرِ منتسب إلى السلالة الإنكشارية بازرباشي مراد أثارت حفيظة سِهْدة، أم أكيسا. "أتعرفين من فنون الطهو غير السَّلْق؟"، قالت، فردت سهدة بالكردية: "بل أعرف كيف أشوي فرجك على عودٍ، في الشمس". امتعضت ابنة بازرباشي: "لم أفهم"، قالت بالتركية، فسحبتها سهدة من مرفقها: "تعالي يافساء الإوزة. سأريك علومَ الجن".

عضّت كلُّ سماءٍ على ذيل السماء التي دونها حين اتكأت سهدةُ على المسطبة، مضمومةَ الراحة على حفنة رز، وقربت يدها من السراج كأنما تشويها. لم يكن في الحكاية، حين سمعها دلشاد، ترتيب لصور المكان، أو إحكامٌ للمنظورات. هي جَرَت فحسبُ، في بيت مًّا، من المساء حتى الفجر، الذي فتحت فيه سهدةُ راحتها فإذا الرز قد نضج من كثرة العرق الساخن بفعل لهب السراج القريب من يدها: بخارٌ داخل الراحة المضمومة قامَ مقام شقيقه البخار في القِدْر: منطقٌ نَحْلٌ لاغير. عِلْمٌ طنينٌ منذ عرف كائنُ الرسوم الناطقة أن مذاقَ المأكولات يستوي مطابقاً لخيال الجوهر إذا نضجت في وعاء فوق النار، أو وعاءٍ مغلق تحت النار. دلشاد، على نحوٍ لم يحتكم فيه إلى لسان الحيطة، بادَأَ أكيسا، في ظهيرة اليوم التالي: "أفعلتْ أمُّك ذلك، حقّاً؟". أخرَسَهُ سكوتُها الممتلىء بشفاعة عينيها المتأملتين: "سأُنْضِجُكَ أنت في راحتيَّ هاتين، أو هنا"، ووضعت يدها على بطنها.

عبرت نحلة تحت أنف دلشاد فارتدَّ برأسه إلى الخلف. لم يكن الخريف قد اكتسى، بعد، صلابةَ القشر البارد. رخواً دافئاً ظلَّ فوق البَيْض الذي يفقسه غمامُ كَلاس. الزنابيرُ ـ كلماتُ الصيف الخشنة حوَّمت، عاقلةً، فوق أكباد الخراف المعلّقة بالخطاطيف. الدبابيرُ ـ اللهاثُ الساخنُ كانت أبطأ في طيرانها قرب قشور البطيخ المرمية عند أحواض الماء الخاصة بدكاكين البقالين، لكنها لم تَعْدَم تدبيرَ الكمائن للنحل، بالتماسها الثغراتِ المموَّهةَ في سوُر الهواء: توقِفُ طيرانَها فتسقط، عمودياً، على ظهور النحل، بلا إنذار من رفيف أجنحتها.

نَحْلُ الوالي صفوت بكبكيجوك هو الذي يسقط في كمائن الدبابير، لشدة اشتغاله على احتكار السوق في كلاس. اجتاح الحقولَ، والحدائقَ، والبساتين، ثم قمامة قشور االبطيخ حيث ترتع الدبابير. كان نحلاً خَلَبَه إطراء الإقليم. وُصف عسلُهُ كاقتدارٍ من آيات الطبيعة على تصريف الطَّعْم المُعْجز: عَسَلٌ صِورٌ من لسان المتذوق إلى لسان أحواله.

صورٌ ظلامٌ هي البيان الذي درَّبت جذورُ النبات عليه هدايةَ الزهر في انقلابه إلى نباتٍ نورٍ. ظلامٌ مذاقٌ من توريات التراب في مخاطبته البزور بأشعاره الماجنة. مذاقٌ أدراجٌ بين بساتين العلوم المحفوظة في خزائن الوعد الأزلي.

مَدْحٌ كثيرٌ أسْكر نحلَ الوالي، فَفَشَا فيه التهوُّر: يخرج أبكر من أي نحل آخر، ولايرجع إلاَّ في سواد المغيب إلى قُفْرانه ـ منازلِ الهندسة القَدَرية. استعراض وراء استعراض يدوِّخ به الوقتَ حتى يُغمى على الوقت، فيسطو بجوهره الحرّ على رحيق الهيولى الكُلِّية ـ بُرعمِ الفراغ المُشْكِل، فتتحينُّ له الدبابيرُ تلتقطه من برزخ المُطلق الناضج ـ كحساء ناضج ـ على جمر المعقولات. ترتفع به وتخرج من بوابة سوق كلاس الجنوبية، حيث امتداد نهاية حقل الريحان القرمزي الداكن، المتصل بسور المارستان المتهدِّم المفتوح من جهتين. بُنِيَ من طين وسيقان قصب، فانحلَّت أقسامُه في فيضانٍ أوحدَ من نهر نوه آف، انحسر بعد أحد عشر يوماً، تاركاً للبساتين على ضفتيه غَمْراً من حصى أبيض بعروق متشعبة حمراء، عدَّه العامَّةُ من "الهون البيض"، قبل رحيلهم عن كلاس، بَصَراً من أبصار العَدَم يتفحَّص به أحوالَ المُمكنات المذعورة. لم يغادر أحد من مرضى المارستان حدود السور. أُنذِروا أن المتاهةَ، التي تتحول فيها أعضاء الإنسان إلى قيودٍ من حديد، وحبالٍ رطبة، هي على بُعْد فِتر من جدران الطين المتهدمة، لكن ما من رغبة حَدَثْ بأيِّ نزيل التطاولَ على مقام "العقل الضيف". هُمْ لن يغادروا حتى لايستوحش مَنْ خصَّهم بالإقامة في صِوَر المرئيِّ المُحْتَجب، قرب خيالهم. "العقل الضيف" هو المقيم. ابتكر نَفْسَه من الوحي المُسْتَولَد في الحقائق المنكشفة ـ كالتوت ـ على أغصان أهل المارستان. جمعتهم شرطة الولاية واحداً واحداً بالدليل القاطع على اتخاذهم علامةً منسوجة في سجاجيد الصلاة: سبع ورقات صغيرة بيضاء، تحيط بشمس صفراء ـ مَوْلدُ النور في حجاب الهيولى، قبل مرافعات الشَّكْل، القائم في خيال ذاته، أمام

الله، أن يفوِّض اللهُ إليه عِصْمَةَ الخُدعة التي اسمها "المُحْدَث". أطلق عليهم المأمورون بترويض النفسانيات اللامسكونة اللاَّمهجورة لقبَ "ملَّة البابونج". لكن نزلاء المارستان سخروا من اللقب، بإشارات ناطقة من فم السكون العاقل: "بل نحن مَنْطِق البابونج".

تلعثم بَصَر دلشاد. زاغَ برهةً عن شخص أكيسا فانقلبت سديماً في غشاءٍ سديم. أسرع الخطى في رواق من السوق يُفضي إلى عَرْصَة دائرية لايشوب هوَاءها نَفَسٌ من أنفاس الدلاَّلين - أهل البُقول، والجِزارة، بل تتمدد على المصاطب، أمام أبواب حوانيتها، لفافاتُ قُماش - حدائقُ تتفجَّر تَرَفاً من اشكال أُمم الحيوان وأُمم الزَّهر، يعرضها القمَّاشون الأئمة في أصول السرد الصامت لحكايات اللون على الأبصار في إصغائها، والأَسماع في تحديقها. مَنْ يدخل عَرْصةَ القماش عليه الاستماع ببصره إلى كلمات الشكل، والنظر بسمعه إلى مايستعرضه النسيج من خيلائه أمام موازين الأحكام. لذلك، ربما، كان المأخوذون بـ "منطق البابونج" يجتمعون في رحاب الزُّخرف المرقون، جالسين القرفصاء في زوايا العَرصة، تأخذهم شرائعُ الجدال في منشأِ النَّفْس من باب إلى باب، ومن تلخيص إلى شرحِ إسهابٍ، ومن تفسير إلى تأويل، وقد عقدوا مناديلَ جيوبهم الصغيرةَ على حفنات من البابونج اليابس يتفوَّحون به ويَسْتروِحُون، حتى سارت الرائحةُ فيهم مسرى تورية من علوم الكلام، فأجازوا بعثَ الإنسان نباتاً ذا زهر، يفشو طَلْعُه وينتشر لذائذَ في حالِ لقاحٍ على حدائق اللانهاية. ولما بلغ خبرهم دارَ الإفتاء، في الولاية، رفعت الدارُ أمرهم - بالبرهان الدامغ على اتهامهم بالشَّغَب في شؤون العقل - إلى جناب الوالي، فكبست الشرطةُ معاقلهم في عرصة السوق، وتحت شجر السفرجل على الضفة الشرقية من نوه آف. لكن الشرطة تحيرت في اختيار المَحْبَسة لأناس هادئين، وورعين، فضمتهم إلى عامَّة أهل المارستان، الذين مسَّهم خطفُ الحقائق للحقائق بذهولٍ وديع. تآخى المذهولون المسلوبون والنُّزلاءَ الجددَ، المبشَّرين بطبائع

الزهر. تآخى كل شيء من حولهم.

كان في مستطاع دلشاد أن يتشممَ البابونجَ المحتجبَ في كماله النباتيِّ إلى ربيع آخر؛ أن يتشمم أُممَ الزهر في القماش المنبسط على المصاطب شِباكاً لقنص المعلوم التائه والمجهول التائه. دار بخياله على نقوش المكنون يستقرىء آثارَ أكيسا، السائرة على غصن اللامرئيِّ بقدمين من أنفاس المرئيِّ المُغمى عليه. تحيَّر قلبه برهتين. اقتحمَتْه: "أتبحث عني؟"، قال صوتُها. لم يلتفت. أخرج من جيب قفطانه كيس التبغ. عقدَ لِفافةً وأشعلها بفتيل القدَّاح. تقدَّمته أكيسا بسلتها الملآى صُرَراً صغيرة مما ابتاعته. خالطتِ الجمعَ الخفيف في العرْصة، فجاورها دلشاد مرسلاً بصره في كل اتجاه إلاَّ إليها. تصنَّع التسليمَ على مارَّةٍ بيده، هامساً بلسانه المتحيِّن شهواتِ المغيب العتَّال: "أتعرفين من أين سأعضُّكِ لو خلا لنا هذا السوق؟".

"لو خلا لنا السوقُ لم أُبقِ لكَ لساناً"، قالت، وهي تنقل سلتها من يد إلى أخرى.

"لن أُبقي فمَكِ في موضعه، لو خلا لنا السوق"، قال وهو يقلِّب ذيلَ قماشٍ متفحِّصاً.

"لن أُبقي فيكَ شيئاً تنقل به شيئاً مني من موضعه. سأعيدكَ مرتجفاً كعُرف على رأس دجاجة". قالت المرأة المشرقةُ في مغيب اللون.

"بياض جلدكِ لن يبقى بياضاً، لو خلا لنا السوق. سأصبغه بشهقات كبدكِ"، قال النازلُ، على سُلَّم الترجمة، إلى سطور ذكورته المُلْغِزة.

"أتحدِّثني عن بياضي؟ لو خلا لنا السوقُ جعلتُ كبدكَ تفور؟بياضاً من فمِ عقلِكَ اللحم"، قالت أكيسا.

" لو خلا لنا السوق.."، قال دلشاد. علَّق قلبَه إلى سلسلة من

الحروف بلا اختيار. مال بوجهه إليها - إلى شروقٍ بياضٍ وَخَطتْهُ أقواسٌ حليبٌ: حاجبان وجفونٌ بلا أبعاد. حملها بملعقة بصره إلى فمِ لوعته: "ماذا أفعل بكِ لو خلا لنا السوق؟"، قال وهو يلجم وثبةَ خياله إلى خيالها. تنَهَّدتْ أكيسا، فتنهَّد دلشاد. ماجت العرْصة من سقوط شرارة ماءٍ رقيقة على عَصَب هوائها. قطرات متفرِّقة أوقدت حركةَ القمَّاشين فهرعوا إلى أقمشتهم يجمعونها عن المصاطب، وينكفئون بها إلى دواخل الحوانيت: "جاءت الطيور"، قال دلشاد، ملتزماً كالمتسوِّقين أن يأخذ جانب السور الذي أشرفتْ عليه، من خارجه، أغصانُ شجر الكستناء الكثيفة - شجرِ الثمرة المحظوظة بوبر الباطن في قشر الظاهرِ الأبِ. "جاءت الطيور". طائر من رذاذ الماء المتجانس في هيئة عظام وريشٍ يقود أسرابَ الطيور، العالِمَةِ بتوليد الحِيَل من بسائط المسكون المَهجور، إلى المحيط الأعظم - محيطِ العلل والأحوال في صيرورتها ندىً يتدحرج على صَدَفة النشآت؛ الصَّدَفةِ القوسِ البلَّور. تغرف الطيورُ من الندى بمناقيرها وتؤوب إلى السمت الأزرق، المتشقِّق، الذي امتلأت حظائره الأرضية بمخلوقات الضجر. تفتح مناقيرها فيتساقط الندى قطراتٍ بِحسب جِرْم كل طير - كبيرةٍ، وصغيرةٍ؛ ذرَّةٍ أو مافوق. مطرٌ يسرد السِّيَرَ الأزليةَ على عقل الوجود الأزلي.

"أفي خزانة لسانكِ شيء من أشعار الأغاني؟"، قال دلشاد، ملقياً بصرَهُ إلى سماء الطيور الخفية. قاست أكيسا، بعينيها، المسافةَ بينها وبين أقرب ملتجىء إلى السور الملتجىء إلى أغصان الكستناء. تلثَّمتْ بطرف خمارها فانحبس الصوتُ وتجمَّع دافئاً. أَطلقتْهُ يجري في اتجاه دلشاد:

"ما سرُّكَ، أيها اللص، الذي أُمكِّنه من خزانة شَبابي؟

خذْ كلَّ شيء. وتعال في الغد. سأملأ لك، ثانيةً، خزانةَ شبابي.

خذْ كل شيء، أيها اللص. سِرُّكَ أن تسرقني. سِرُّكَ أن تسرقني".

تنهَّد دلشاد. علا الصخبُ في عرْصة السوق: دخل كلبان سلوقيان سهمينِ من لهاثٍ، مقذوفين إلى لوح الفراغ يسطِّرانه تسطير المُباح المحظور بآثارهما التي تقود هيكيليهما وراءَ أرنب أبيض، ملطخ الوبر من ارتطامه بجدران المسالك؛ أرنبٍ من مِلَل الحيوان المحظي برعاية البستانيين. انتهرهما القمَّاشون بالمكانس، ورماهما البعض بالأحذية. حلَّقا طائرين في عَدْوٍ لا تَمَسُّ أقدامهما الأرضَ. حلَّق الأرنب بجناحَيْ قلبه المذعور. "أهذا فألٌ حسن؟"، قالت أكيسا. تنهَّد دلشاد: "لاتتوقفي، ياحظَّ المحظوظ". أرسلتِ المرأةُ ـ البزوغُ الصقيلُ لحجر اللون بصرَها إلى الدائرة، التي فصَّلها السلوقيان والأرنبُ تفصيلاً محسوباً بالدرجات المَكِينة على كُرَةِ الأبعاد:

" من أين جئتَ؟

عمامتكَ هواء. قميصك غيم. سُترتُكَ رذاذ. حذاؤك جدول في حقل.

بصل. ثوم. كرفس. فجل. كُرُنب. هليون. كُرَّاث: هذا ما نبت تحت سريري حين خرجتَ هارباً،

أمَّا خوفُكَ من أبي ـ الرعدِ فقد غطَّاني بالكَمأ.

من أين.. ". تشقق صوتُ أكيسا لمَّا اتجه الأرنب إليها مستنجداً. ضمت سلَّتها إلى قلبها، ومالت في اتجاه دلشاد، الذي تمالك نَفْسَه المتماوجةَ بين أحشائه وصدره فلم يحتضنها. ارتدَّ الأرنب. مرَّ مندفعاً تحت أنياب الكلبين، فتصادما، ثم ارتدَّا. ذكَّرتِ الغيوم الغيومَ بموعد الهدنة، فانْلَجمتْ. تقهقر القطرُ في اتجاه الأعالي، ريثما يمهِّد العقلُ السحابُ للمقاديرِ حِصَصَها من حُرية الماء. عَلَتِ الشتائم من أفواه القمَّاشين مسنونةً كإبر النِّيص تساوي، في وخزها، الكلبينِ بأصحاب الكلبين، اللذين خَرَقا مواثيقَ البرزخ في ما يضيفه الإنسان من حصانة الشهادة إلى قانونه، وما يضيفه الحيوان من حصانة الغيب إلى قانونه.

دخلا حانوتاً لجأ إليه الأرنب، وخرجا ينبحان نُباحاً أنيناً بعد أنْ أُصيبا بقضيب حديدٍ ـ مترٍ لقياس القماش. "أهذا فألٌ حَسَنٌ؟"، تمتمت أكيسا تُسَائل دلشادَ. رفع الشاب عينيه إلى السماء المغلقة:

"جئتُ من حظّ المحظوظينَ؛

من حظِّ الهليون المسقيِّ ماءاً عذباً في الفجر؛

من حظ النعناع النابت في ظل شجرة الغار؛

من حظ البَقْلة المبتلَّة، أبداً، حول البئر".

انتشر المتسوِّقون، ثانيةً، في عرصة السوق، فاختلط بهم دلشاد وأكيسا غيرا متجاوريْن، ثم اتجها إلى الرواق المفضي إلى الدكاكين. تقاربا قليلاً: "ستنتهي الترجمة"، قال الشاب النازل من سلالم السريانية إلى حقائق الختام. سيدوِّن بضعَ كلمات معصوبة الجباه بأرقام التواريخ، في ذيل آخر صفحة بالكردية من "المختصَر في حساب المجهول". شيء مّا، كالموت، سيفصِّل أسىً رقيقاً على مقاس خياله؛ أسىً كالحياة ذاتها التي يفصِّلها الموتُ بلا إتقان.

"لا"، ردت المرأةُ التي صُفِّي بياضُها ستَّ مرات في مجرى اللون إلى جلدِها الحليبِ. توقفت:

"لا. لن تنتهي الترجمة".

لم يشأْ دلشاد تقليب كلماتها بين يدي وجوده المؤوِّل، بل قلَّبها، هيَ، كعرناس الذُّرة المشوي، يقضمها من كل نبض فيها بأسنان قلبه. تداركتْه في استغراقه الملتهِم فكمَّمت فمَها بطرف خمارها، ثم ابتعدت بعدما شربته بعينيها صافياً جُلاَّباً مفوَّحاً بزهر القاقُلَّة. واكبَها في حركتها المقتطَفة من فَلَك النظائر الأحد عشر ـ نظائرِ السرِّ العاقل. لُمِسَتْ كتفهُ. التفتَ: "هو أنتَ؟". كان دينان بروار ينظر إلى أكيسا المبتعدة قبل الرجوع ببصره ـ الميزانِ إلى مقادير الصور في عيني دلشاد، الذي باغتته

لمسةُ الرجل المدرَّب على ترويض المسكوكات. تجَاورا في مشيهما.

" ماالأحوال في دار الشحن؟ "، ساءل دلشاد رفيقَه االكهل، فرد ذو الحذاء المدبب: "بُرادة النحاس غدت علفاً للحمير. لا أفهم. مقطورة واحدة، لا غير، انفصلت من جسم قطار ملاطية. تدحرجت على سفح هضبة في مَرْعَش لتستقر فوق أغصان شجرتيْ بندق ضخمتين. تسرَّبت برادة النحاس من خَصَاص الباب الحديد في خيطٍ على مزود حمير الدراويش من مِلَّةِ التُّوت. اختلطت البرادة بالعلف الجريش من بقايا قشور العرْفج". سكت برهةً. رفع راحتيه يستحضر الصلاةَ للدهشة: "رأوا ذلك بالتفصيل!!؟ من حمل الخبرَ إلى دار الشحن موثَّقاً بالمشاهدة على هذا النحو؟ الأسرار تنمو كالدعاميص في وادي قره صو، يادلشاد". سكت ثانيةً. تباطأ متفحِّصاً حُصُراً زرقاء من جريد النخل: "مذ وصلت هذه الشجرة إلى كلاس احْتَمَلَ التينُ في ثمرته دماً". نقر بإصبعه على الحُصر المعروضة على حبل" "ما سيكون روث الحمير إذا اغتذتْ من برادة النحاس؟". معدن غير مُعْلَن على أساس صيرورته، بل على غَلَبة الصفةِ المُحَالة إلى حقائق الذهب المفقودة. إذا دُفِنَ اخضرَّ متنقلاً بطبعه بين الفلزِّ والطُّحلب. وإذا طُرِقَ ارتعشَ. تمرَّد على الجوهر الذي اختُص به التبر واللُّجين فانحبس في مرتبة الأَعراض للزينة الخُلَّب. كانت له تسعة أسماء، تناقصت بالنسيان المُدبَّر المقصود حتى أضحت ثلاثةً: النحاس، والشبَه، والصُّفْر. "روثٌ شمسيٌّ. سيكون روثاً شمسياً تلتقط منه عصافير التين شرانقَ علوم النُّور"، قال دينان متنفِّساً من مسام لسانه: "محظوظون هؤلاء الدراويش في نواحي مَرْعَش. ألقوا عن كواهلهم مشقات التفكير وعناءه. مندهشون، لا غير. وجودهم هو أن يندهشوا. لايقولون شيئاً، لايقرأون شيئاً، لايصغون إلى شيء أو أحد، ولايريدون أن يصغي إليهم شيء أو أحد. حميرهم تتولى كل شيء، وهاهي تتدبَّر صناعةَ مسكوكات من الروث النحاس". هزَّ رأسه يطرد ذبابةَ الحيرة من أمر البضاعة التي لم تصل. "استردَّ النُّور الذهبي جملةً

من حماقته المعدنية"، تمتم دينان متعثِّرَ العقل بالتوريات المصنوعة على عجل. خاطرُ الدراويش، الذين أنفقوا خزائن غيبوبتهم على وصف النُّور بأسماء شرانق القزِّ، الْتَهَم - بنفاذه في رطوبة الخريف - خاطرَ دينان. ألهموه، من البرزخ العائم على مياه المُعْضِلات الزرقاء، أن ينسج توريات على عجل؛ أن يدحرجها على عجل؛ أن يمهِّد لها تراباً معافى في سيرورة عقله من نظام الإشكال إلى نظام اللسان الحَذِر من الَّلاإشكال. نَقْزَةٌ من أحوال فكره في النحاس إلى أحوال لغته في ارتدادها من التصريح بالسخرية إلى التمويه: بُرادة النحاس تسيل من المقطورة المنقلبة، المعلَّقة بأستار السماء النباتية، والدراويش مندهشون كما عرفتْهم الأرضُ هناك، مذ صوَّر لهم الشيخ بايزيد الأنصاري، صاحب "حالنامه"، الكردي العارف بأنساب الجن في وادي قره صو، أن النُّور جسمٌ صلدٌ، كتيم، يحيط بنفْسِه العاقلة التي هي الموت، وغير العاقلة التي هي الزمنُ - الشكلُ المستتر في غلاف الخيال المحظور؛ جسمٌ صناعةٌ تتدبر تركيبَه آلاتُ المصادفة والاتفاق المتهادنيْنِ، وليس الإنسان إلاّ تاريخاً مُفْتَرَضاً - كتلةً تتحرك بالتأمُّل في التقاء الأنساق الصلبة، الجوهرية، المتعلقة بالنُّور وحده. وقد عمد دراويش مرعش إلى تعليق المصابيح في أعناق الحمير، كل ليل، لتتبع حركةَ الآلات المنكبَّة، بلا صخب أو صرير، على توليد القوالب اللانهائية للكثافة الشفيفة. غير أن الحمير الرمادية تلك - المنجذبة، بكسلٍ له خاصيَّةُ اللوعة، إلى استقراء الضرورات التي جعلت الحيوانَ فطرةً كمالاً - اعترضت قطارَ ملاطية، ذات مساء اختلطت فيه الحظوظ الفِجَّة بالناضجة، فانذعرَ سائقُها الفحَّام. أطلق النفيرَ محمولاً على عقل الدخان الحجري، متعوِّذاً بآلهة الشَّكل من رطانة النُّور المطحون على حواف الفراغ المُخْتَرَق بالسكة الحديد.

لم يكن في الحكاية تفصيل، بحسب ما رُوِيَ في دار الشحن لدينان، أَبْعَدُ من انفلات المقطورة الحاملة ذخيرةَ المسكوكات - البُرادةَ

التي أُغميَ على ممكناتها، فانعطف بها مساقُها عن أن تكون نقوشاً صلدةً تتألق فيها الأنسابُ. ظلَّت بُرادةً عماءاً تسرَّبت من كمين الحقائق المعدنية إلى علف الحمير. "روثٌ شمسيٌّ"، تمتم دينان من جديد. حدَّق في دلشاد: "منذ متى أنت في كلاس؟".

"منذ سنة وثمانية شهور"، ردَّ الشاب المتحيِّر في غنائم الترجمة.

"لم تر، بعدُ، أحداً من أبناء السيد مهران؟"، قال مروِّض المسكوكات، وأردف: "لم يحضر أحد منهم إلى كلاس منذ سنتين. لكنهم آتون قريباً. الأربعة معاً". توقف كأنما نسي شيئاً: "سأشتري قطاراً"، قال بلسان العِلْم المَرِح، واستدار عائداً إلى السوق. "إذا رأيتَ زوجتي، يادلشاد، قُلْ لها إنني رحلتُ إلى ملاطية".

ابتسم دلشاد. علَّق الفكاهةَ المغسولةَ بطبع دينان الساخر إلى غمامة النسيان. دخل حانوت الخياط، وخرج بقفطان أخضر، في نَسْجه عروق متوازية حفرتْها براثنُ البياض بتقطُّعٍ خفيفٍ. ستة عشر يوماً انقضت في تفصيله بزَغْم نَصْرَتْ الدين، الذيَ أوَّل لدلشاد القماشَ حين اشتراه: "خذِ الأخضرَ - شجرةَ الهَرْهَرْ السرمدية"، وتولَّى بإشارات الخيال الحقِّ تكويرَ المراتب على إهليلج الفَلَك الدائر في الغمام: المراتبِ الدَّراري المُحصَّنة بأزلية المعنى: "هذه العروق، في القماش، هي الأغصان المستقيمة لشجرة الهرهر، المنتشرة فوق بحر العماء، يادلشاد"، قال نصرت الدين، مستعيراً من أنفاس العقل في رئتي ملَّته، القلقة في نَسبِها إلى دِيْنٍ واحدٍ بتمامه، انقلابَ الهواء إلى كتابِ سِرٍّ يقرؤه، من جيل إلى جيل، فرد واحد اختصَّ بتوليد البلبلة في المعاني، وتبديل مراتب الموجودِ بمراتب المفقود، ضمانةً يأْمَنُ بها على الفراغ الجوهر من غدرِ أخيه المَلاءِ الجوهر. وبالطبع، أنزل الخياطُ نصرت الدين، على أغصان شجرة الهرهر السرمدية، طائراً هو الأول في كمال اللون - ذلك المسترسل، بضراوة، في نزوعه إلى حرية التصريف في شؤون كلِّ

ظاهرٍ، مشهودٍ، مرئيٍّ، مُبْصَرٍ؛ لونٍ لا يُعقل شَكْلٌ، أو كتلةٌ، أو كثافةٌ، إلاّ باستظهار عقله:

"الطاووسُ المَلَك"، قال الخياط، فوافقه دلشاد متأملاً قفطانَه: "شجرة سرمدية، وطاووسٌ مَلَكٌ. وأنا في الأرجح، يانصرت الدين، سأرتدي الفردوس". فتح ذراعيه يستقبل الطيورَ الملائكةَ على أغصان قلبه المنتشر كثيفاً فوق أنهار المفقودات. مشى يتفحّص الحوانيتَ الأخرى على مهلٍ؛ حوانيتَ المتاعِ المتجاورةَ عقولاً تتدبّر صناعةَ البيان الأرضيِّ المُعترِف بنقصانه الخالد. خرج من سوق كلاس عبر بوّابته المرصودة بنقوش التأويل: الميزانِ، والشمس، والسيف، والسنبلة. سرّح بصرَه في حقل العشب المسحور يستقصي الشخوصَ ذاهبةً آيبةً بسلاسلها الملآى والفارغة. "أفي خزانة لسانكَ شيء من أشعار الأغاني؟"؛ جاءه صوتُها - صوتُ المرأةِ الشروقِ من بياضٍ نهم. ابتسم للأزل البهلوان فابتسم له الأزلُ البهلوان. تفحّصت أكيساً المكانَ من حولها، خارجةً من كمينها خلف العمود الشرقي للبوابة. جاوزتْهُ، وألقت عليه، من وراء كتفها اليسرى، حفنةً من بزر اليقطين.

الفرسخ الثالث

(بكاء النهر)

ارتجفت يد دلشاد في يد دينان بروار. تصادمت نظراتُهما المعلَّقة كقناديل مكسورة، وسط كلمة المواساة المطحونة على لسان الشاب النازل سلالم الترجمة: "شُدَّ عَصبك يادينان. قلبك قلب رجل. أَبقِهِ كذلك".

وسَّع مهران، ذو اللقب الأزرق، مجلساً لدلشاد بينه وبين ابنه الأكبر هَيمَلَم، على الأريكة الجوزجيَّة الحمراء، ذات التعاريقِ المقصَّلة على مقاس النسيان - تعاريقِ الشهوة كخطوطِ طيورٍ بلا تفاصيل. تنهَّد المجلس بأناسه الحاضرين وأرواح أناسه الغائبين. صَدَر أنينٌ من معقل النساء، خلف عموديّ المصابيح الذهبية بين صحن الدار والبهو.

بُكْرةً اجتمعت الخلائقُ الخفيقة - أنفارٌ بشَرٌ ونَحلٌ، وبضع حمامات ذوات أطواق صُفْر، وفراشتان طاووسيتان، ودعسوقةٌ عيناء واحدة - أمام بيت دينان. علا صريفُ العقل البسيط، والمتراكب، هيبةً من علامات القفزة في البرزخ - قفزةِ الجسد الحيّ إلى السكون الكليّ: زوجة دينان كانت ممدَّدةً، في كفنها الأبيض ذي الظلالِ البراقِ، على سرير في صحن الدار، المفتوح بكامل بستانه الصغير على البوابة. هواء ملجوم، من نَفَس الربيع الغائم، مسَّ ورق الشَّاهَتَرج، الذي لم تتفتح عناقيدُ أزهاره بعدُ، في البستان، وانسلَّ بآلاته الشفيقة إلى البهو. تنهَّد الجوالون بالعلوم الخفية بين الوجود ومايليه. "أوقفوا النساءِ عن الضرب على صدورهن، بحق الله"، قال مهران. نقَّل بصرَه في الوجوه ينتشلها من مرايا الغمّ المتقابلة. أردفَ: "أهنَّ يخَوِّفنَ الألَمَ؟ الألمُ ملاكٌ مأمورٌ".

بائعة الّلبن الرائب، وعِلْكة المصطكى، الجوَّالة على حمارها في كلاس، هي التي رأت زوجةَ دينان تخوض في ماء نوهْ آف، ثم تغور: "ظننتُها تلتقط شيئاً"، قالت نافوسْ بتركيَّةٍ من لكنة أهل بحيرة الملح. نهق حمارُها الذي تشمَّم، من نواحي سهول سيفان، نكهةَ نبات الوزَّال المضوغ في أشداق الأُتُن الفاتنة بفروجها السوداء. "ماذا كانت تفعله؟ تقطع النهر من ضفة إلى ضفة مشياً في الماء؟"، تساءلت المرأةُ المتشققة الشفتين، وتطلعت إلى المسيل الكتوم مستنكِرةً: "الجسر على بُعْد ضرطة حمار". ذلك ماقالته للسيدة نوفاجانْ، التي جمعتْ صرختَها الرقيقة، المنسابة على زجاج الخواطر الكُريَّة لأهل كلاس، تسعَ نساء من الجالسات أمام مغازلهن الصغيرة لصق بوابات البيوت. والتسعُ النساءُ جمعن، بدورهن، تسعةَ صِبْيَةٍ رُسُلاً ـ بعويلهن المرسوم على أشكال فواختَ متخمةِ الحواصل بحَبِّ القاقُلَّة ـ طاروا إلى عَرَصات السوق: "غرقت السيدة البيغوم"، قالوا، مبالغينَ في توصيفها بكثرة القِلادات. وأضافوا قلقينَ: "أوقِفوا النهرَ".

أُشْعِلَ ثلاثة وسبعون مصباحاً على ضفتي نوهْ آف، من الجسر حتى مارستان "ملَّة البابونج". أُعيد ترتيب الضياء المفكِّر على صفحة شقيقه الضياء العاقل المنسحب إلى حوزة النهايات الدوريَّة. فتح الماءُ سِجلَّه للقراءات. أعطى أمانَهُ أن لايتدخل في بحث الأحياء ـ بتوفير بيانه وبلاغته، عمقاً وسطحاً، لهم ـ كي يستحصِلوا ما هو مؤكَّدٌ في شَرْعه: زوجة دينان بروار لم تُؤخذ عنوةً.

عَرِقَ الماء.

عرقت المصابيحُ على ضفتيه حتى الهزيع الثالث من الليل.

طفا الجسدُ في ثلْم من المجرى. رُؤيَ الثوبُ منتفخاً تطوِّقه فقاعات كفستق بلا لُبٍّ، تلتمع وتنطفىء في اقتراب المصابيح المرفوعة في الأيدي منها. تصايح مستقرِئو إشارات الخلائق الخفية، الحاملة أعمدة

الماء على الفراغ، فانْتُشِلَت المرأةُ الغريقة. غُسِلتْ، في مسجد كلاس، غَسْلَ الإعادة إلى خزانة الظاهر، بعد الغَسْل الأول ـ غسْلِ العبور إلى خيالِ نوهْ آفْ الباطنِ. صُلِّي عليها بتسع آياتٍ نَقَّب فيها عقلُ الإمام عن كَرامة الماء، وشفاعة الماء، ومواثيق الماء، وأحكام الماء، ثم أُعيدت إلى رحابة منزلها ـ منزل الإقامة الملولة في كنف الوجود الناطق، ريثما تُرْفَع، في رحابة الظلام، إلى الوجودِ اللسانِ ـ خيالِ الكليِّ الموَثِّقِ بالصِّور حُريَّةَ كلِّ أكيدٍ.

لا أحد يعرف إن كان ذلك الخيط الملتمع على وجنة مروِّض المسكوكات، دينان، نابعاً بدمعه من لوعة الفَقْد أم من غبار الملح الذي يهبُّ، على نحوٍ غامضٍ، من داخل مُحَجَريْه على أجفانه. منذ شهور أربعة أفاق بصرُه على غمام ملتصق ببؤبؤيه. تعطَّل منطقُ النظر في تفسير الصور المخذولة تتقدَّم وتتراجع على لوح المرئيات. عزا دينان الأمرَ إلى أبخرة الصمغ في حطب المدفأة. استُبدلت جذوع التحريق: عُوِّضَ حطبُ الدردار بحطب الصفصاف والزيتون. لكن خُدَّام العلوم المجرَّبة، المطلعون على أمثال المادَّة وتراكيبها المبنيَّة على أشعار الأدلاَّء المفقودين، تأوَّلوا له ذلك التلازمَ بين حرارة أجفانه وانخذال الصور في بؤبؤيه: "أَهْوِيَّةُ؟الظاهر؟والباطن تتصالح على محصول النَّفْس فيك يادينان. خُذْ من الظاهر اللونَ، ومن الباطن صِبْغَةَ الكِيْلوس القوي"، وأعطوه مثلاً من غواية الشِّعر في تأكيد الكناية الدهرية:

"بعد الشمِّ والضمِّ؛

بعد تقطير الجسد زُلالَهُ في مصفاة الرحم،

يُؤكل الكمأُ، ويُشربُ مَرَقُ العظام".

أعاد دينان على نفسه استظهارَ التأويل: النِّكاح لونٌ، والعَظْم صبغةُ العافية، التي تعيد العَصَبَ، المنكسَ من ضراوة المتعة، منشرحاً.

ذلك هو الأمر، إذاً: النكاح والغذاء فيهما مافيهما، من تدبير الخيال المَحَجَريّ الآدمي المستلتين بِكُرتيّ عينيه. كثرةُ النكاح تُصعّد ضبابَ العصب، وتُحارَ فكرتِهِ، إلى مسالك العروق في البَصر؛ وسوء الغذاء يوزع على البدن قِسْمَتَه من الكيلوس بإهمال. هكذا يضعف من الجسد، أوّلَ وَهَنه، الخيالُ والرؤية. "فكّرْ في مذاهب النقش على المسكوكات تستعِدْ خيالَ الظاهر فيك، والخَتَرْ من طبائع الأغذية ما يتطبّع به خيالُ الباطن فيك"، وجرّدوا له سيفَ التكهنات صقيلاً من غمد الدهون الحافظة للعافية، بعد شروح لازمةٍ قوامُها أن لكل عضو في الحيوان ما يؤنّثه من أعضاء النبات يتضج به في الطبخ، ويرث منه "عقلَ الكِيْلوس"، وهو العقل الذي تتعادل ـ بمنطقه ـ أوزانُ الخلاف في الخلية الحيّة. أما قائمة الطعوم فتشعبتْ، وتفرَّعتْ، وانشجرت: "أعرافُ الدّيكة مشويةً، بعد السلق، تعيد النقاء إلى اللون الذهبي في ذاكرة البصر. بَيْض الجراد، ومثله بيض الشّرطان النهريّ، ممتزجاً بالطحين في خبز الذُّرة، يصحّح المَيْل في تسليد الخيال إلى موضوعه، إذا استدعى البصرُ عوناً من الخيال للإحاطة بالشكل المرئي. دماغ القنفذ يفتت رسوبات الظلام المتكلّسة في الحدقة، مقلياً بشحم القنفذ الذَّكر وخلّ التوت. قوانص الديكة الرومية، المطهوة بشرائح التفاح الأخضر الفِجِّ، والكزبرة اليابسة، تغلّي عروقَ العين بمعادنِ الظل ـ معادنِ استظهار الهيئات الأنيقة من كمال الممكن. حساء أجنحة الهدهد يُصفّي الفلزَّ، في المآقي، من أحماض هواء السهل؛ وقلبُ الثور مشوياً، شرائحَ، على حطب العرائش الهرمة، يستعيد مثاقيلَ النظر مرتّبةً وفْقَ أوزان اللون، ويردع التآكلَ الحِرّيفَ في أشفار العيون".

سالت القصة، غيرُ النقيّة، أربعةَ خيوط من عيني دينان: إثنان من مُؤْقَيه، وإثنان من لِحْظَيه. تنهّد المعزّون. فتنهّد النهر الذي سمعهم. مال الأمير، ذو اللقب الأزرق، على البته هيمام، مستوضحاً: "لم يحضر صوصوكْ جوْل". بلغت كلماته غير المهموسه سمعَ مروِّض المسكوكات،

الذي تشمَّم منها نبرةَ التعبير ضمناً: مهرانٌ لا يستسيغ لُحمةَ اللهو بين صوصوك ودينان. فِرَقُ الدفوف تلدقع بليلة كلاس، كل أربعاء، شبراً في اتجاه الجحيم، من دار صوصوك "الدفُّ لغة الشيطان؛ صوتُ نكاحه"، قال مجلس العلماء، التي لم تتضح صورةُ علومه المحاطة بحجاب الهيبة. مجلس من ثمانية، التلبهم صوتُ الرجاء السماوي من وراء بحيرةِ الملح ـ صُرَّةِ الأناضول، بعد ثلاثة وثلاثين كتاباً سار بها السعاةُ من التكية النقشبندية، يتوسلون بها القُنّيا في أمر "ملّة البابونج". جاء الثمانية، وجاء معهم الحطب، يتنقلون عليه، تحت الشمس، من انقلاب الحرارة الزمنية إلى جليد زمتي في مسالك دمائهم المتجففة. كانوا قشوراً في ثياب تحميها من التطاير. سمعوا، في أول مساء من قدومهم، رعدَ الشيطان ـ الصوتَ الآدمي مرتّباً مقاتنَ على أوتار الطنبور، ثم تلا الصوتَ انشراخُ الحياء بين الله وخَلْقه: "هنا هو الدفُّ يتطاول بالشهيق على تسبيح الليل للكمال"، قالوا، وهم يلملمون قشورَهم في الثياب ـ قشورَ ثمرة السّدر المتعكسة، من السماء التاسعة، على جلْد الثور كِيُوثاء، حاملِ كُرَةِ خيال الإنسان البلّور. "لا حياءَ للدفِّ"، ردَّدوا. "بلدتكم تتدحرج، كل أربعاء، شبراً في اتجاه الجحيم.". صدَّقهم المُعتلُّون من بزوغ اللثاثتد الأرضية، فأنزلوا اللومَ صامتاً على صوصوك، إلاَّ بائع حلوى السّميد في القَطْر قَلْقمار، الذي رأى في هبوب اللهو علامةً: "حين يعلو الغِناء يتعظ قضيب الشرِّ. نحن على قابِ خصيةٍ من الأجل". حمل فَرَح قلبه بقدوم النهاية الموعودة للزمنيِّ إلى مجلس العلماء. داهمهم بحُقَّة شخصه: "ماهي الأعمارُ؟"، سألهم، فردوا:

ـ شعلةُ سِراج صغير.

"كم يلزم الشعلة أن تطفىء؟"، سألهم، فردوا:

ـ غمضة عين.

"نحن نحيا غمضةَ عين"، قال، فأجابوه:

ـ بل أقل.

"أيعترينا تعب في الجنة؟"، ساءلهم، فردوا:

ـ لا تعب في الجنة. لا مَرَض. لا وَهَنَ. لا تخمة. لا فتور. لا ارتخاء.

أشرقت على روح قلقماز نجوم صاعدة من صَفَن خصيتيه. ساءلهم متلهِّفاً: "لا ارتخاءَ؟ أتعنون أنْ ما من عضلة ترتخي في جسد الآدمي، قط؟"، فردوا:

ـ لا ارتخاء. كلُّ عضلةٍ مأمورةٌ بطاعة المحظوظين من أهل النعيم، بلا حدود.

"لن يخذلني هذا، إذاً؛ أبداً لن يرتخي"، وأشار إلى ملتقى فخذيه، فوبَّخوه:

ـ اسْتحِ.

قال: "أناشدكم اللهَ أن تصارحوني أيها العارفون مداخلَ الجوهر ومخارجَه: أيرتخي هذا؟"، وأشار، ثانيةً، إلى ذَكَره، فأوجبت المناشدةُ باسم الله العليِّ أن يتسامحوا:

ـ هو مأمورٌ بتذويقكَ الطيِّبات، إذا... إذا دخلت الفردوس.

"سأدخلها"، قال قلقماز، وحجب وجهه بيديه: "سأسألكم، أيها الموهوبون مشاغلَ العافية الربانية: أتعود الحُورُ العِينُ عذراواتٍ بعد كل فضٍّ؟"، فابتسموا في حياءٍ:

"هُنَّ يرجعن أبكاراً، بعد الجماع، كأنْ لم يَمْسَسْهنَّ أحد.

رفع قلقماز وجهه إلى السماء. عدَّدَ مسالكَ الغمام المرسومةَ على لوح البرزخ، وابتسم ابتسامةَ المحظوظين: "تَهَيَّأْنَ لي"، مسدِّداً هبوبَ

بصره إلى حجاب اللون العريق. تماوج الحجابُ. اختلس قلبُ الذَّكَر الأرضيّ قَبَساً من شميم الأجساد السماوية ـ أجسادِ الكواعبِ المنذورات؛ ـ منذ أن كنَّ في خيال النشأة إغراءاً ثواباً ـ؛ لحصاد الفحولة ولهوِ خلودها العاصف.

ثلاثُ أرْبعاءاتٍ قضاها مجلس العلماء في تقليب المسألة النباتية، وصِلتها بأحكام الشرع: "البابونج". وماذا لو بُعِثَ الإنسان نباتاً ـ كما تقول المِلَّةُ المشَّاءة بأسفار الحقول الأزلية، في حديقة المارستان ـ حقيقتُه غبارُ طَلْعٍ يتلاقح ويُلقح، بلا نهاية، في لذة بلا نهاية؟. لا معصيةَ في توليد ممكَناتٍ لا ينكرها حسٌّ، أو عقلٌ، أو برهان، أو قياس عاديٌّ أو خَرْقٌ للعادي. يُبعث الإنسان حياً، يوم تحصيل الوجود الثاني في غربالٍ هَلَع، والنباتُ مَرْتَبةٌ حيةٌ في مراتب الحيِّ الثلاث. هكذا تفكَّر مجلس العلَماء. لكن الأربعاءات، التي تعرَّقت عَرَقَ المسحور من رهز الدفوف في دار صوصوك، وَسَمَتْهم باعتكارٍ فتشددوا: "لا نصَّ نتأيّد به في مَخرجٍ لزعم مِلَّة النبات، أولاءِ. ضعوهم في القيود فرادى، متباعدين، لا يتخاطبون. إنْ تخاطبوا جَفَل الخيرُ"، فلم يعرف القائمون على شؤون المارستان حيلةً إلى تدبير القيود الحديد، فأوثقوهم بالحبال، من خصورهم، إلى شجر المشمشِ ـ فاكهةِ البَيْعة لعسل الظاهر: يضعونهم هناك سحابةَ النهار، ويفرّقونهم في الليل على مهاجع النزلاءِ المخطوفين من معاقل قلوبهم البسيطة إلى معاقل الجنون البسيط ـ الجنون الذي تتساوى فيه المُعضلةُ البشرية بنهيق حمار، وتتساوى مآزق الآلهة بمَضْغِ عِلْكة المصطكى.

بعد رحيل مجلس العلماء بأربعة أيام، اندلع حريق في حديقة المارستان. "الذبابُ، ذو الأجنحةِ النارِ، هو الذي وسوس إلى الشجر أن ينتحر. ذبابُ المصادفة المعلومة"، قال باعةُ التين المجفَّف في سوق كلاس، فرد عليهم باعةُ المشمش المجفَّف: "ما من فاكهة تستأثر بحقِّها على الفاكهة بعد أن بانت كراماتُ الطَّعم في الذوق: للتين طبائعُ

الظهيرة، وللمشمش طبائعُ الغيب. التين رعشة السُكَّر فَزَعاً من توبيخ الشمس، والمشمش رعشة السُكَّر لهفةً إلى الظلِّ الكُليِّ، القائم بذاته، منعتقاً من جَبْرِ الشَّكل الكُليِّ». وقد استفحل الجدال فمسَّ حوانيتَ باعة الفاكهة أجمعين، ينتصر أهلُ السفرجل للسفرجل ضد التفاح، وأهل البرتقال لمتاعهم ضد الليمون، وأهل العنب ضد القَراصيا، وأهل الموز ضد البطيخ الأصفر. أما المستأثرون بأصناف عدة من الفاكهة، في الحانوت الواحد، فمالوا إلى الَّلين، والكياسة، يوزِّعون الكرامات، بالتساوي، على الثمر - أُمَم النكهات السائلة على أقاليم الشجر المُصنَّف رَعَاعاً، والمصنَّف نبيلاً. لكنهم لم يجدوا مخرجاً من الخَوض في تصنيف المعقولات بحسب مذاهب الحسّ، بلا إحالة إلى مرجع من العلوم أو نحوها. فأيَّد البعض إدراجَ الجَزَر - لاتِّفاقه في الحلاوة مع الأجناس المنجذبة إلى خصائص السُكَّري المرقَّه - في قائمة الفاكهة، وانحاز البعض إلى الشمندر، بالقَدْر ذاته. كما نظَّم باعةُ الحُمَّيض براهينَهم على اتصال ذلك النبات، بوحيٍ ذاتيٍّ، بالليمون. وفي دورة السجال المعقودة بيعتُها على العقل الثالث، أظهر باعة الخُضار شكَّهم في مولد البطيخ الأحمر: أهو في باب المعقول فاكهةً، أم باب المعقول خُضرة من خزائن الأعشاب، والجذور، والدَّرنِ؟ عقلٌ أول خصيصته اللحمُ الناطق، وعقل ثان خصيصته اللحمُ الأعجم، وعقل رابع خصِّيصته الجماد المُصمَّت والأجوف، الَّلدن والصُّلب؛ فيما الثالث خصيصتُه الثَّقلةُ الغامضة في سطور الخَواء، من المُطْلق المتخلخل إلى المُقيَّد الساهر على خزانة اللامعلوم الأزليِّ. ومن هذا العقل - الثالث - توالدت أجناسُ النبات التي هي شكٌّ أرضيٌّ في جدوى الضرورات المتقولة عن لسان السماء الحائر، المتكلِّم برطانةٍ عن مواثيق الآلهة العجولة.

النبات، وحده، مستقلٌّ بخواصِّ الإضافة، الزائدة عن المعهود الجوهريِّ في الإنسان، والحيوان: قَلَّةُ الحركةً، نموَّاً في الحيِّز، وله الإشارةُ المُقدَّرةُ بالثمر والزهر، وفي مكنونه الصريح لغةُ التخاطب الأكيد

على نهجين: الطَّعم، والرائحة. والطعم والرائحة لغتان من لغات الشكّ الثماني عشرة، لاختلاف حصولهما بالكيفية ذاتها من حسٍّ إلى آخر بهما.

لم يمسَّ اختلافُ الباعة مصدرَ استلهامهم منطقَ العقل الثالث. فقد اختارَ أحدهم مهنة الإقامة في رعاية النبات كرزق، إختار أيضاً - بالضرورة العاقلة حصَّتها من ميزان العناصر - سُبلَ الشاقهة في طباع النبات الثلاثة: طبع الإنسان، والحيوان، والجماد. وفي ترتيبهم الخضار، والفاكهة، وفقَ الإحالة إلى طبع أو أكثر، من هذه، آثروا تأجيلَ الحسم في ماهية النَّقل، أي: المكسَّرات ذوات اللُّبِّ المستطاب، كالجوز، واللوز، والفستق، والبندق، والبزر. وقالوا بإحالة الأمر إلى تجمع البساتنيين في الاسكندرونة، الذي ينعقد مرة كل أربع سنين، للنظر في الوقف الموقوف من الطبيعة على المجتهدين في استمالة الطبيعة، الذين يستنطون - بالتطعيم الشجريّ، وبالتلقيح الجريء المخالف - ثمراً، أو عشباً طريف الخواصّ، مبتكرَ الشكل. والتجمع يرفع، من ثم، أسماء المجتهدين إلى ديوان "المعايير الإضافية في اشتقاق الأصول من الفروع والفروع من الأصول"، وفق تدوين الجملة بالعربية الفصحى فوق الخط التركي المثنّي، في رواقٍ من السرايِ هناك.

ماهيَّتان أنشأتا بلبلةً للعقل: ملاحظتُه استحالةَ خواصّ النَّقل - الجوز، اللوز، الخ - إلى ما لايوافق سيرةَ النشأة النباتية فيه. الباعةُ لايعرفون كيف تسرَّب علمُ الكلام إلى مشافهاتهم البسيطة مبنياً على مذهب "البداءة"، وهو جملة القول بشيءٍ أولاً، ثم العودة عن ذلك إلى قول آخر. عِلّة من عِلَلِ الإجتهاد آلفت، من معالق المحظور، ريشةً في ميزان العلوم ذي الكفّتين المتلتين يقيناً، حين نسبت إلى الله ما تنسبه إلى الإنسان في أمر العودة عن فكرةٍ يراها غايةً، في وهلةٍ أولى، ونقضُها في وهلة ثانية. الوهلةُ الأولى سُمِّيت بداءةً و"البداءة" انسلّت إلى مشافهات الباعة، المعترضين على عقل الطائف فيهم صورةَ اللعبتين في أحوال المُكسَّرات: ماهيةٍ أولى أنها نباتٌ. اللوز، والجوز، والفستق،

والبندق، وما لفَّها، تبدأ زهراً، أو غُدداً في الغصون. وإذ تكتمل لها النشأةُ، وتنضج، تصير إلى ماهية ثانية. فالجوز واللوز، والكستناء ـ مثلاً ـ تُعدُّ في جنس اللحم؛ والفستق ـ مثلاً ـ في جنس الشحم. أيْ أن المُكسَّراتِ ـ النُّقْلَ تنحو إلى انقلاب على انتمائها في الخواص، كانقلاب المتكلم على كلامه بتدبير الإعتراض على برهةِ قوله الأولى، فيما بعد، بقولٍ ثانٍ هو أوَّلٌ في اعتقاد المتكلم وزعمه.

هكذا خَّمن المجتهدون: في استطاعة بعض الثمر أن يتراجع ـ إذاً ـ عن فكرة كونه نباتاً.

حيرةُ باعة الفاكهة والخضار، في سوق كلاس، لم تبلغ ـ على أية حال ـ حيرةَ العقول البسيطة المتداخلة لنزلاء المارستان، وهم يتأملون مقاصدَ اللون مدوَّنةً على لوح النار، التي استحمت صورةُ حقائقها، الملتفَّةِ كالعضل، في نهر نوه آف، عصرَ اليوم المنبسط سطوراً ماءاً في خيال زوجة دينان بروار، وهي تهبط من النشأة الأثيرية للأرض، عبر الماء البرزخ، إلى رخام الأبدية الصلب، المرقون بأصباغ الظلام التسع والتسعين. هي، نفسها، لمحت لسانَ الحريق، المتوهجَ في فم الغيهب، بعينَيْ نشأتها الجديدة ـ نشأةِ الغَرَق كإضافة من حروف الموت إلى أشعار المجهول الذهبية. مسَّدت براحتها على عضلة الكمال المتشنِّجة: "لا تبكِ أيها النَّهر"، قالت، ثم أغلقت نافذة المعلوم الذهبية.

تنهَّد المعزُّون. تنهد أثاثُ بيت مروض المسكوكات. "يعوِّض الله، يادينان"، قال أحد الجالسين مواسياً، فقاطعه شخص آخر:

ـ لا يُعوَّض الإنسانُ، يارجل.

" نحنُ مُلْك الله. مايأخذه يعوضه"، قال الأول، فرد الثاني:

ـ وقد لايعوِّضه، أيضاً.

تدخل ثالثٌ: "لماذا التعويض؟ الذين نفقدهم سينظرون إلينا، من

وراء أكتافهم، في شفقة واحتقار. سيندمون على صلتهم بنا وهم يروننا نطلب تعويضاً. طلب التعويض يعني أننا جاحدون قيمةَ المفقودين".

تنهَّدت الكلماتُ المقذوفة، من شرفة الحكمة، إلى مراتب الأسماع في المجلس. تنهد المجلس. نطق الشخص الذي توسَّل مذاهبَ التعويض: "عنيتُ أن الله قد يعوِّض على المحزون بالصبر"، فرد الذي لايتوسل عبءَ التعويض:

ـ الصبر؟ إِعْفنا من الصبر، أيضاً. الصبر مَذَلَّة.

لم يتنهد شيء في المجلس. دقَّقت الأسماعُ النظرَ إلى لون الكلمات المشمومة؟كالحساء. تدخل صاحبُ القول بالتعويض محتداً: "ماذا تريد يارجل؟"، فرد القائل باللاتعويض:

ـ لماذا عليَّ، بعد فداحة الفقد، أن أريد شيئاً؟ لا أريد شيئاً، يارجل.

ضرب الأمير، ذو اللقب الأزرق، براحته على فخذه: "أنت تتكلم دُرراً اليوم، ياسعيد"، وهو يعني آخر المتكلمين، فرد سعيد:

ـ لا درر؛ لا روث.

شهقت امرأة من وراء حجاب الرجال المكشوف، خلف عمودَيِّ المصابيح الذهبية، بين صحن الدار والبهو، وسُمِع لطْمٌ خافت على الصدور لوعةً، فتأججت جمرةُ اللحم في لسان الأمير: "ها عُدْنَ إلى تهديد الملاكِ المأمور. النساء دفوف"، قال. وألقى من لَحَظَيْه رمْيةَ البصر إلى مروِّض المسكوكات: "صوصوك هذا؛ أتظنه سيحضر، أم سيرسل دقَّاً؟".

أطرق دينان ممتعضاً من التوبيخ على علاقته بصوصوك، الذي استوقفه الأمير ظهيرةَ يوم غَرَق السيدة الملقبة بالبيغوم ـ سيدة القلادات اللامُحصَّية. إلتقيا، كلٌّ في صحبة نفر من المشتبكي الأيدي خلف

الظهور، بعد الغذاء، في حقل اللاذن. "أتسمع هذه القرقعة، ياجناب صوصوك بَكْ؟"، قال، فأصغى الرجل إلى المستورات الخرساء برهةً. تكلمَ: "أسمعُ نحيبَ الخفيِّ من حولك. لكنْ: لا قرقعةَ ياجنابَ الأمير"، وابتسم لَمَلَكة خياله.

"إنها كلاس. قرقعةُ أعماق كلاس وهي تنجرف إلى الجحيم"، قال ذو اللقب الأزرق.

نفخ صوصوك من فمه هواءً مقسَّماً على ثلاث نبرات من نبرات الاستخفاف الإحدى عشرة: "كيف خُدعتَ؟"، قال، متصنِّعاً حسرةَ الصادقين، فحدَّق إليه الأمير بنظرة المستفسِر. همس صوصوك مقترباً برأسه من كتف الرجل الشيخ:

ـ أتظن مجمعَ العلماء المضوغين كالعلكة سمعوا الدفوفَ، حقّاً؟

"وماذا تظن، أنت، أننا نسمع كل أربعاء من دارك؟"، ساءله ذو اللقب الأزرق، فردَّ سليل الآستانة، صوصوك: "أنتم تسمعون. نعم. لكن هؤلاء المضوغين كالعلكة، لو سمعوا الدفوفَ تقوَّضتْ عظامُهم الهشة، وانتثرتْ كقشر الذُّرة، يامهران". ثم فتح ذراعيه يحتضن الممكناتِ المتشاجرةَ: "منذ متى أنت تكره الدفوف؟ للصوت أربعة ألوان، أولها النطق، وثانيها الطنبور، وثالثها الدف، ورابعها البوق. بالبوق نشهد القيامةَ، أيها الأمير".

رنَّت كلمة "القيامة" في صدغَيْ مهران إيفاردر، وهو يتلقَّف ببصره نزول أوزال، ابن عم الوالي صفوت بكبكيجوك، من عربته. هبَّت أنفاس السخرية، والكيد، من ست جهات: "أيُّ جنيٍّ أوقف عربتك على حافة الريح؟"، قال.

"الريح؟!!"، تمتم ابن عم الوالي مستغرباً.

"نعم"، أضاف ذو اللقب الأزرق. "نعم. الريح تبقيك طافياً على

زبد الاسكندرونة. لو توقفت الريحُ هويتَ من ثقب الهواء، في كلاس، إلى خليج قناديل البحر في البوسفور"، وأبدى من وجهه عزاءً وهو ينظر إلى النَّفر من حوله: "إذا مسَّكم قنديلُ البحر تبوَّلوا، من فوركم، على موضع المسّ".

لم يتمعن أوزال في صَدَفة التورية المغلقة. اقتحم السطورَ المتقاطعةَ بين الرجلين: "قلتُ: فَلأُوقِف عربتي هنا حتى لايستفرد جِنِّيُو الطُرُق المقطوعة بأولاد الصالحين".

ضحك مهران: "نحن الجن ـ قطاع الطرق، وأنتم الصالحون!!!". ضرب براحته ـ راحةِ اليد المتلمِّسة درهمَ المحظورات: "سألتقيك ياأوزال يوم القيامة. سنتحاور. لاخوفَ ـ آنئذٍ ـ من انكسار عظم، أو فقءِ عين، أو تحطيم ضلع، أو شجِّ جمجمة، أو قصْم ظهر، أو انزلاق غضروف، أو تمزق عضلة، أو التواء مِفْصل. لا ألم، ياأوزال. لكنني سأنهشك ألف عام بعد ألف عام من حسابٍ أرضيٍّ لا هو خير إذا دوَّنه الأخيار، ولا هو شرٌّ إذا دونه الأشرار. سألهيك عن دخول الجنة أو الجحيم، لأنني ـ أنا ـ سأكون الميزان الذي يزن به الله أبديتك الشقية، أو السعيدة، التي عليها أن تنتظر فراغي من مشاجرتك"، واستخرج علبة تبغه الذهبية من جيب القفطان: "أنا قلقكَ، ياأوزال، هناك"، ونظر إلى بروج السماء المتطابقة في صحن المرئيِّ ـ الأثير.

التفت أوزال إلى صوصوك: "أترى من أين يأتي الأمراء بإماراتهم؟". لم ينتظر جواباً: " من الأصقاع التي يهجرها الآخرون"، وارتد على عقبيه مغادراً: " أنت، يامهران، تستعيد كلاماً مهجوراً".

تقدم صوصوك بنفره مفترقاً عن الأمير ذي اللقب الأزرق. اتجه شرقاً. توقف بعد ثماني عشرة خطوة. ألقى ببصره إلى شبكة مهران جانبياً. اعتصرَ بزرةَ الخيال المسكون: "للصوت لون خامس أيضاً. لقد نسيتُ ذلك"، ووضع يده أسفلَ سرَّته: "اللون الخامس هو طقطقة

الفُرُوْج تحت كَمَرَتِكَ كانفلاق قِشْر البندق بين الأسنان، ياأمير. ألوان الصوت تُرى قبل أن تنقلب سديماً يُسمَع".

تنهَّد المجلس في بيت دينان، فتنهدت الحقائقُ المُعَطَّلة. انبثقَ ندبٌ مغنَّىً من وراء عمودَي المصابيح الذهبية:

"بأي كحل سأكتحل، بعد الآن، ياأمي؟

بأيِّ حناءٍ سأتخضَّب؟ بمَ سأطوِّق خصري،

وعلى أي فراش وثير سأنام؟

أخذْتِني معكِ، ياأمي. أخذتِني من ابنتيَّ الصغيرتين، حفيدتيك.

عودي وأعيديني إليهما".

زَلْفُو، ابنة دينان، هي التي رتَّبت سطورَ اللوعة على لسان خيالها ـ خيالِ الألم مجتهداً في الخروج من ارتباك الوجود. هز مهران رأسه آسياً: "الألم ملاك مأمور. هاهي زلفو تلهية بالشِّعر، وتريد من الله أن يعيد إليها وديعتَه عنوةً". صمت قليلاً. نطق من جديد بصوت فيه توبيخ ليِّن: "أيتها الغالية زلفو، أنت تبلبلين أمك عن التسليم بالموت. الموت ملاك يتقوَّص قلبُه أسى من شكوى الإنسان، لكنه مأمور. أمك تسمعكِ".

خرجت زلفو من وراء عمودي المصابيح الذهبية. خاطبت الأمير ذا اللقب الأزرق: "لأنها تسمعني سأغني لها حتى ييبس لساني، وتنسدَّ حنجرتي، وتنكمش رئتاي جفافاً".

تغاضى مهران عن النبرةِ ـ النَّكال، غير المقصودة، في صوت زلفو. عاينَ، ببصر الطبائع المتهادنة، جداولَ نَفْسه الجارية إلى نهر العقل: منذ متى يكره صوتَ الدفِّ، ويحتجُّ بهبَابٍ من الشرع على ندب النادبات؟. قيَّد طباعَ اللحم فيه بطباع النبات: رقَّ وتسامحَ. "هم يتتبعون ما تترجمه يادلشاد"، هكذا انعطف بلسانه عن زلفو إلى أولاده

الأربعة، المتجاورين جلوساً إلى شمال الشاب النازل سلالَم الترجمة إلى مضائق الفراغ في الحروف الكردية. هِيْمام، سَهْمَد، تُوران، نَدْرَتْ: عقدٌ منتظَمٌ من متدبري حِرَفٍ لم تُشْغِل غيرَهم في الفراسخ بين ملاطية والإسكندرونة. فالأربع المحطات، التي يستعيد فيها القطار أنفاسَه المتقطعة، شهدت على أيديهم إضافاتٍ ظريفةِ الأجناس إلى جمود الأسواق الصغيرة هناك، المسقوفة بخشب المرّان الصلب ـ شجرةِ الفُلْك الأول بعد الطوفان. حشدوا خيالاً مضبوطَ العقيدة على نَسَق الترفيه الحقِّ بين خيال الحوانيت الموقوفة على الفاكهة المجفَّفة، والقماش، والحلوى؛ والمتَّخذَةِ مقاهيَ شايٍ أسود، ولعب ورقٍ ـ مقامراتٍ تتلمس فيها الأيدي الخناجرَ غَضَباً بلا تذابُحٍ. هيمام يبيع كتب الخط التركي وَفْق الترويض الإسلامي للحروف العربية في فِقه الزوايا والدوائر، وفِقْه اندغام الأشكال في المصادر المعقولة من علوم الظاهر، والباطن، والبرزخ بينهما؛ ويبيع الحروف المنفصلة المنجورة من خشب الجوز مطلية بالذهب يمكن تشكيلها، وتزويقها بعلاماتٍ منفصلةٍ بدورها من حروف صغيرة هي خيالُ الإستضافة للشعوب البيزنط، والكلدان، والهند، والقبط، والصين. وقد احتجَّ بمرجع من علماء "الأثر الإفتراضي للضرورات"، من نواحي بدليس، يوجب تطعيم السطور، في كل لغة، بحرف من غير تلك اللغة، أعلى السطر الواحد، يشهد للكلمات، بسَندٍ من مذهبه، كي يقيم المعنى في موقعه المتحقِّق له بلا وحشة أو رهبة. "حرف غريب، فوق سطر من لغة أخرى، هو علامةٌ لونٌ تتأكَّد بها دورةُ الريح في مراكز الأمم المتفقة على ثوابت الظلال". لكل حرفٍ ظلٌّ من حرفٍ غيره. ظلالٌ جواثمُ مقيمةٌ، وظلالٌ قواطعُ مهاجرةٌ. ظلالُ حروفٍ كالطيور مقيمة ومهاجرة. كُتلةُ الحرف ـ جسمُه وجرْمُهُ ـ هو الإقامة السببية، ومعنى الحرف ظلٌّ مهاجر أو مقيم. الحرف الغريب للحرف الأليف خيالٌ معلَّق. الحرف ضرورةٌ ومعنى ضرورةٍ، والضرورةُ افتراض كالمعاني. هِيمامْ لم ينسِّق مصبّاً لغَلبة مذهبٍ من الخطوط على

مذهب، ولم يستوفِ الفاصلةَ في تطعيم الخطوط بحروف هي من غير مِلّتها وعلّتها. وضع كلَّ قولٍ إلى جوار كل قول. نصب جداراً يواجه محطة القطار في زُوْركانْ، لصق عليه المبنى على شكل قبّة واسعة، وسطَّرَهُ سبعَ مقالاتٍ متقاطعة من خيال العالِمِ البابليسيِّ ثبّتتها ريشةُ الخطاط كامل قوزلو عَريف النَّسب المستوية، والملتوية، في تأليف العَرْض البصري لروح الحروف. الذين توقفوا أمام الجدار، يوماً بعد آخر، لم يحسنوا استخلاص مُرادٍ شافٍ من تلك التناظرات بين الظلال القيمة وأخواتها المهاجرة، لكنهم آنسوا شفاعةَ اللّغزِ الأليف في استحالته جاذباً لأعماقهم العادية إلى سحر العادة ذاتها، الرتيبة، يوماً بعد يوم، على جدار أبيض أكثر عمقاً من المسافة، التي يشوي القطار على فحمها أضلاعَ حرّاق السماء من ملاطية إلى الإسكندرونة.

سَهْمَدْ، الإبن الثاني للأمير ذي اللقب الأزرق، كان أكثر إسرافاً من أخيه في ترويق الخيال بالأسرار. أعدَّ في محطة لالاَ مشغلاً صغير الحيِّز، لكنه محاط بأبواب من الحديد الرقيق منصوبة في الفراغ، على قواعدها، وعلى كل باب تسعةُ أقفال من النحاس - عيِّناتٌ من مراتب صناعة تلك الآلة، في أكثر برهات عقل الصُّنَّاع جسارةً على توليد الإشكال للساعين إلى فتحها بالمفاتيح، أو بالحيلة. كان في المَشْغل ستة مَهَرة في تركيب الأقفال الذرِّية على العصيان، استقوا علومَهم من الملاحظة على أجناس الآلات المتوارثة، أو المقطعة عن مجرى صناعتها، أو المُهمَلة، أو النادرة المحفوظة في كتاب الرسوم المؤرّخ لصيرورات المهارة "عَيَاءَ المفاتيح. أو: إستنطاق الجماد بالحمر". فهم يَعمدون إلى نحت قطعٍ من الجص يرسلونها، منفصلةً، إلى مَسْبَك المعادن الصلبة في أورفا، ويركبونها إذْ تعاد إليهم، في الشغل، بعد برْيها، واستحداث مسنَّاتٍ فيها خاصةٍ بكل قفل. فلما تكتمل الجسوم الموقوفة على خيال الأبواب والخزائن، تُسْقى أنفاساً من هواء الألغاز، وعلاقيةً من زيت الأسرار لا يُباح باجتماع قوانينها المحسوسة إلاّ للشاري المُقتني. وقد

عُرِضت أقفال سَهْمَد بمجلس الحدَّادين في طروادة ـ إليون، فناشدوه، من دَهَشِهم، أن يبوح بسرٍّ، أو اثنين، من أسرار الجوارحِ الحديدِ في آلاته، فباح بثلاثة: "هذا قفل يُملأُ الأنبوب المستور فيه، من الأعلى بالماء. يجري الماء في قنواته الرقيقة حتى يضغط على المِغْلاق فينفتح"، وأراهم أحشاءَ الآلة المفتوحة كجوف الضفدع. "وهذا قفل مزدوج الحيلة. يُدار فيه المفتاح، ثم يُنفَخ بالفم على سِلْك غير منظور، من ثُقب يعلو ثقبَ المفتاح، فيضغط السلكُ على المغلاق فينفتح"، وأراهم الآلَةَ مفتوحةً من قُرْصيْها المتطابقين. "وهذا قفل يوضع المفتاح في ثقبه ويُتْرَك. لا يُدار ولا يُحرَّك. الضغط الذي يعادل وزن المفتاح بلا زيادة، أو نقصان، يرجِّح دورةَ العَتَلة الضاغطة على المغلاق، في جوفه، فينفتح". لمس براحته الأقفالَ الثلاثة، المعروضةَ من خيال العلوم السُّحُبِ على حديقة مجلس الحدَّادين، فنبضت الأقفالُ نبضَ امتنانها المَعلوم. كلَّمهم بشيء مّما تحصَّل لعقله من أحاديث الصُّنَّاع عن الحواس العَرَضية في الأقفال كآلاتٍ، والحواس الجوهرية بصيروتها من آلاتٍ إلى عِلْم، والحواس المُطْلقة بانقلابها من عِلْم إلى غيب. تَسارَرَ الحدَّادون. عرضوا على عقولهم، المُمسَّدة بلطائف النار، مواثيقَ التكريم فاختاروا له ميثاقَ اللقب الشامل: "حاكم اللُّغز".

تُوْران، الإبن الثالث للأمير ذي اللقب الأزرق، قسَّم الزمنَ على مراتب الصوت في نواويس الساعات. من محطة بيرقدار باشا غذَّى بيوت آغوات أرض ملاطية، ومرعش، وأضنة، وأديمان، ودياربكر، ونواحي الهضبات الشرقية والغربية من نهاية وادي قره صو جنوباً، على تخوم جبل الكرد؛ غذَّاها بالرنين المحبوك على وَقْع الدقائق. رنينٌ يصدر عن نواويس مبريةٌ قضباناً رقيقة من حجر اليَشب، ومن المرجان الأصفر، وعَظْم سمك السَّفَن ـ شيطان البحر، والعاج، ومناقير البجع، وعَظْم قضيب الحوت الأسود، وجدائل الصُّلب المستقيمة، المتجمدة من معادن البراكين ـ أفواهِ سَحَرة النار المُنْشِدةِ أشعارَ الظلمات المجروحة.

ولكلِّ نوَّاس، بحسب معدنه، نطْقٌ بلغة من لغات الجماد الأربع: لغة الصُّلب، ولغة اللَّدِنِ، ولغة السائل، ولغة الأثير. لغات مصنَّفة على سُلَّم الدقائق الممتد من اللامتعينِّ الأرضيِّ إلى اللامتعين السماوي، في الفراغ الممتلىء بعافية النقصان والمحدود الخالدَيْنِ. أمَّا النقوش المحفورة على قضبان تلك النواويس، وعلى الأقراص الذهبية المتصلة بنهاياتها، فكانت حروفاً بخطِّ خيال الإسلام الديواني الجَلي، مجموعُها من أشعار دراويش قَشِيْشْ دَاغْ ـ البلد الذي رُميت ثيابُ رهبانه الروم في بحر الغرب التركي، في اجتياح المبشريْنَ بديْنِ الله الثالث تخومَ أوروبا الشرقية، واستحل أديرَتَها ممجِّدو الغيب بالدفوف، الدراويشُ المنشدون، النازعون إلى أَلْقاب الفقر يتوسلون بها القطيعةَ مع تَرَف الوجود ودَنس الرفاهية، إحقاقاً للجسد وللعقل عودتَهما إلى مسلك العنصر الرقيق، الخفيف، البسيط، اللامتكلِّف، في مرتبته المتواضعة من المَنْشأِ الطينِ بلا لُغْز، مفرط في وضوح سيرورته المفصَّلة من روائح الدم الصاعدة من مسالخ الخير ومسالخ الشر. كتبوا شعراً عن ذهولهم من المعنى واللامعنى؛ عن ذعرهم من أن يكفُّوا عن الشفقة على نفوسهم؛ عن ضآلتهم ومَسْكَنتهم. هُم لايريدون أن يريدوا. لايتشوَّفون أن يتشوَّفوا. لايطمعون أن يطمعوا. لايتصورون أن يتصوروا. لاينزعون إلى خيال، بل إلى انخطافٍ يتحقَّقون به عُمْقاً كالنسيان. وابنُ الأمير الثالثُ، توران، أوعز إلى نحَّاتِي الخطوط على قضبان النواويس أن يمهروا نهايات الأشعار بكلمة "الوقت"، كأن شعراء الأناشيد لم يقصدوا، من تآليف الإنشاء سوى تلك الدورة المقسَّمة، بعلامات الحِيلة، على اثني عشر فراغاً، ومجموع الفراغات هذه هو المُطلق نازفاً في مصيدةٍ حديدٍ اسمُها "الساعةُ" ـ اختبارُ المجهول بما لايعرف من خواصِّ حقيقته المعلومة.

في محطة برْلِكْ، كان الأمر مختلفاً مع نَدْرَتْ ـ الإبن الرابع لمهران زازا إيفاردَز. لم تكن مشاغله آلات وخطوط تتكلم، بلسان الإعتبار، عن عقل الصُّنَّاع المجتهدين في إبرام العقود مع الحقائق. كان يستنبط

طيوراً بلا أجنحة أو أذيال، من سِفاد الطاووس الهندي والدُّرَّاجة في غرف مقفلة، تضاء إضاءة شحيحة جداً من فوانيس عليها زجاج قاتم الزُّرقة. يؤخذ البَيْض المنتوج إلى أبراج التفريخ الصغيرة، المدفَّأة بدخان قِشر البندق، والكستناء، وروث الحمير البيضاء ـ حمير أنطاكية التي تبكي إذا سمعت أنفاس البحر، أو تنسَّمت الغيومَ المنعقدةَ من بخار الخلجان المقدونية؛ ويُدْفَن تحت ركام خفيف من ذَرْقٍ دافىء جُمِعَ بأناةٍ من أربعة طيور لاتطير، هي الدجاج العادي، والدجاج الرومي، والببغاء الفارسي، والطاووس: طيور لم تجتهد في تقسيم الحاصل الأزلي من أرقام السماء وأرقام الأرض، بالتساوي، على خيالها. غَلَبها نسيانُ الحساب فلم تَطِرْ. ويُضاف إلى ذَرْق هذه الكائنات ذرقٌ آخر يخص أربعة طيور موسومة بطباع الكمال ـ طباعِ التردُّد في اختيار آلة اليقين الضرورية لتركيب تلك الأجزاء المُفكَّكةَ، الموزعة، في فوضىً مقصودة للتمويه، على خزائن الظاهر والباطن؛ أيْ: أجزاءِ الديمومة. البط، والبجع، والغرانيق، والتَمُّ، هي التي صُنِّفت على طباع الكمال، فآلت بها خواصها إلى التردد في الطيران. ومَحَضَها الناظرون في شؤون النِّسَب الصغرى والكبرى تأويلاً يحسَب أنها طيور شديدة الجدال، بلا حسم، في الكيفيات التي ينجز بها الصوابُ والخطأُ اتفاقهَما على الولاية المتعاقبة لمشيئتيهما، وكذلك اختلافَهما على تدبير المقاصد الخالصة لسياسة تلك الولاية. ثم أن للبط، والبجع، والغرانيق، والتمِّ، اشتراكاً في التبشير بكرامات الكائن الناقص يرسو على عناصرَ ثلاثة: الماء، أولاً. فهي رهينةُ البرهان العاقل وجوبَ امتثالِ كلِّ حيٍّ لفكرة زُلاله، وإملاءات زلاله عليه، وابتكار المَخْرَج للمشيئة التي قيَّضت له نشوءَه الأوَّلَ، المُحرِّض على لا خلاصه المائيِّ. وهي، ثانياً، رهينة الإقامة الطويلة على الأرض إذا حطَّت؛ والإقامة الطويلة في السماء إذا طارت. إقامتان هما جواذب الخيال الحائر، بدوره، في تقسيم الحاصل الأزليِّ من أرقام المُطَابَقات، بالتساوي، على نمور علومهما المتهارشة في ميزان الحساب. فالطيور

الأربعة، هذه، تتدرَّب على أن تستذكر السماءَ إذا حطَّت، لذلك تصفق بأجنحتها، طويلاً، قبل الإقلاع من الأرض؛ وتتدرب على أن تستذكر الأرضَ في طيرانها، لذا تسلِّم جسومَها لجواذبِ الثقل، في حَذَر، قبل الهبوط من السماء. وهي، ثالثاً، رهينة النزوع إلى تلفيق الأخبار بين الطير عن النداء الذي تسمعه في خاطر الإنسان من حواسِّه على جوهر نَفْسِه الخفيفة: نداء الجَسَد المنبعث من طحال الذَّكَر ـ كلما استثاره داعي التفريج عن ريح المنيِّ في صَفَنه ـ لماذا لايكون لصُلبه التحكم في الحركة، كرقاب هذه الطيور، استطالةً، والتواءاً، وانكماشاً، وتقوُّساً، واستقامة، يدوِّخ به ملاعب الفَرْج، ويستحلُّ معاقلَه بعلوم البهلوانات؛ ونداء الغُلْمة المنبعث من نخاع الأنثى ـ كلما استثارها داعي التفريج عن دورق البظر ـ لماذا لايكون لصُلب الرجل خرزاتٌ عَظْمٌ، ومفاصل تتضاعف بها الحركة ضغطاً على جدران المهبلِ ـ قناة النظر إلى الحدائق بعينِ لحمٍ، والتنزُّه بخيالِ لحم بين نقوش الظلام الأشدِّ بهاءاً في مراتب النقوش. وتمضي الأربعة الطيور اختيالاً في الزعم أن رقابها، التي تباع مسلوخةً في الأسواق، منتعظةً من فكرة الموت، هي ماتوصي به الجارة الفتيَّة جارتَها باتخاذها حساءاً مع حَبِّ القاقُلَّة والفلفل لتمرين آلة المنيِّ على السخرة استخراجاً لاينضب. فإذا اكتمل للصنَّاع المجتهدين، في دار التفريخ، دفنُ البيض أحد عشر يوماً تحت ذرق الطيور الثمانية، أخرجوها إلى ركام من وبر الفَنَك ـ حيوانِ المَرَح الصغير، المصغي إلى مجون سَدَنة الكهوف الدفينة تحت رمال الواحات. يغطونه يوماً بالوبر ويكشفونه يوماً، حتى موعد الفقس: طائر أسود، بلاجناحين؛ بلاذنب، يصدِّع القشرَ ويخرج متأملاً، منذ البرهات الأولى، في أحوال النار: لايرى ناراً إلاَّ وجَمَد في تحديقه إليها. وهو يبقى أخرس، أبداً، إن لم يشتره أحد، فإذا بِيْعَ غنَّى لمشتريه، كل يوم، غناءاً يتصل بالجمرة الدفينة من لوعة الشاري الدفينة في رماد مكنونه الحيِّ. ما من طائرين، في هذا الفصيل المسكون، يشتركان في نبرٍ واحد من أناشيدهما. وقد

حذرت جماعة "الإئتمان على الخلائق اللامتبدِّلة" ـ الممنوحة ترخيصاً من دار الإفتاء السَّنِيَّة، في أنطاليا ـ من اقتنائه على مبدإِ الشبهة، لكن اقتناء الخصيِّ نمرود، الداهية المتنفِّذ في حدائق السلطان محمد السادس، وابنة عمة السلطان البيغوم نيشَهْ، عدداً من أُمة هذا الطير، غلَّب إنجذاب دهاقنة جنوب الأناضول إلى إطلاقه في حدائق النوافير، أو تحت سرادقات مجالس الأُنس. هكذا كاد اسم محطة برلك يُخلي موضعَ حروفه على الألسنة لحروف الإشارة إلى طير نَدْرَتْ، الإبن الرابع لمهران زازا: "محطة كشَّاف المحزون".

أبناء الأمير ذي اللقب الأزرق الأربعة الذكور، وثلاث من بناته السبع، حضروا إلى كلاس قبل يومين من غرق زوجة دينان ـ مروض المسكوكات. كانت أمهم نوفا جان قد دخلت المنازعة بين خيالها الشيخ وبين الوجود الفتيِّ الطائش: تُكلِّم نفْسَها بلسان أخيها الراحل نديم، وتعارضه ـ من ثم ـ بلسان أختها الراحلة فَيْزَتْ، حتى أنها هرولت كي تصدمه فتعثرت بوسادة، فانكسرت وركها اليسرى في السقوط. وهي مذ صارت عجوزاً هشة العظام تتكسَّر كلما سقطت. بيد أن صوتها لم يخالط شرارات النَّوح الأخرس، والناطق، خلف عموَديِّ المصابيح الذهبية، لا عن ألمٍ من حال عظْمها ولا لوعةٍ على زوجة دينان. كل الذي نطقته ثلاثُ كلمات توجهت بها إلى زلفو: "أما يزال الأولاد هنا؟"، في إشارة إلى الأربعة الجالسين إلى شمال دلشاد، في البرهة التي استحكم فيها جدالُ النظر بين عينيِّ الصاعد سلالَم الترجمة وعيني مروِّض المسكوكات المتقرِّحتين: كان على أُهبة قول شيء ما، أحدهما للآخر، لا بكلماتٍ بل بصِورٍ يتقاذفها خاطراهما مهشَّمةً؛ ملونةً ذائبةً؛ سوداء صلبة؛ رخوةً؛ مبتلَّة دموية ـ صورٍ تتناحر بآلات الخيال الفاتك. لكن أحد الجالسينَ لجمَ النَّطحَ المرتَقَب بين كبشَيْ حضوريهما المتقاطعينِ في غمامة المكان الواحد. كلَّم الشابَّ: "لماذا لاتتزوج؟"، ساءله، فأصغى الجالسون إلى غرابة سؤاله، في موقف يقطر ماءاً من أشباح

الغرقى، العابرين سطورَ التواريخ في أقاصيص المواساة بالموت عن الموت يسردُه معزٍّ هنا، ومعزٍّ هناك، في دار دينان. بزغ صوتُ الأمير ذي اللقب الأزرق: "سيتزوج دلشاد حين تنتهي الترجمة".

"ماذا تترجم، ياسيد دلشاد؟"، قال شخص من مرتادي مجلس مهران، فرد مهران مستنكراً:

ـ ماذا كنا نقرأ لك، كل ليلة، ياابن الغالية عمَّتِنا أمينة شهاب بك؟

اختفى الرجل السائلُ خلف حَرَجه. نهض الأمير. قدَّم اعتذاراً موجَّهاً إلى لا أحد: "لي حاجة صغيرة أقضيها في البيت، وسأعود". لبس حذاءه عند العتبة فألفى دلشاد يتبعه مرتدياً حذاءه بدوره.

خرج الرجلان إلى ساحة الدار. اجتازا البوابة الكبيرة وتقدَّما صوب الجسر. أنشد لهما الماء نشيدَه المُستظْهَر عن أحوال الينابيع. "سأعطيك، مساءاً، آخر ما تبقى من الترجمة"، قال دلشاد بصوت مخدوش. عقد الأمير يديه خلف ظهره. لم يتكلم. كل شهر يدفع للشاب ليرةً ذهباً تترك الطُغراءُ على راحة اليد نَقْشَها النافر إنْ أطبقت عليها ـ طُغراءُ تتناوب تعاريجُها المنحنية على حصار الحقائق، وتمسح عن الخطوط، في رفقٍ، غَبْرَةَ الزوال.

"أتبقى لو زدتُ في معاشك، يادلشاد؟"، قال الأمير، فاعترى الشابَّ حياءٌ كعضِّ الهرة الأليفة. تمتم:

ـ ماذا تقول ياجناب مهران؟ ما تدفعه لي يكفي مؤنةَ قرية، بناسها ودوابها.

ـ أتبقى إذاً؟

ـ أبقى؟ كانت كرامةً من كرامات الحقِّ أن أحل في دار فاضلٍ مثلك، لكن الترجمة انتهت.

لم يلتفت الأمير، ذو اللقب الأزرق، إلى دلشاد. تثاقَلَ في مشيِهِ يزنُ خفَّةَ الأرض بميزان الكثافات الخفية. "لن تنتهي الترجمة. أضِفْ إليها ماتشاء يادلشاد".

"مااللذي في استطاعتي أن أضيفه؟"، رد دلشاد مرتبكاً.

"عن أكيسا، يادلشاد. أضِفْ ماتريده عن أكيسا"، قال ذو اللقب الأزرق.

الفرسخ الرابع

(الكِيلُوس)

جلست أكيسا على الأرض، فوق سترتها المقصبة، خارج بوابة البيت. نسمة باردة مسَّت بريشتها ـ ريشةِ الربيع المولود من صَدَفة الخمائر العاقلة ـ أجفانها المتقرِّحةَ فأطبقتها المرأةُ على دموعٍ خرساءَ انزلقت بلا إنذار. مسحت عينيها بالمنديل المغموس في مسحوق اللّازورد المغلي، ثم وضعت المنديل في حِجْرها. أخرجت الصُرَّةَ الصغيرة، البرتقالية، من قفطانها. فتحت الصرَّةَ عن حفنة من بزر اليقطين ـ ثمرة الممكن الجوفاء.

ألقت أكيسا خيالَها، عبر أجفانها المتقرِّحة، على دار مهران. جسرٌ خشبٌ، بمساند من ليفٍ مجدول حبالاً رطبةً، يصل الضفتين، اللتين يتناظر منهما منزلُها ومنزل أختها، بلسانَي العلوِّ الواحد، واللون الأبيض الواحد، والنوافذ الستِّ المبشَّرة بمآثر الشروق على بيتها، ومآثر المغيب على بيت نوفا جان سَيدا، زوجة الأمير ذي اللقب الأزرق. شعاعات شمس العصر، المطروقةُ على سندان الغيوم العالية، المتناثرة، انعكست بروقاً ناطقةً على أجنحة سُرْمان الماء الحَجَلِيّ، العابر لَمْحاً بين قصب نهر نوهْ آفْ، يطارد بعضُه بعضاً بمرواح المنطق: حشرة من فصيل الزنبور، بلاخبث، عقَدَ لها الخيالُ الرطب المتصل بعقل النبات المائِّي شهوةَ الفلسفة في مُناظرات الأحياء الناطقة بلسان الحركة ولسان السكون. تتبع الماءَ حيث يسيل أويركد بأجنحةٍ جدالٍ، ولها أحوالٌ في اللون تتزلَّف بها إلى الظلالِ ـ الحُجبِ التي تُغلِق عليها أشعارَ الوجود المنسوبة إلى الهواء الكتوم.

اقترب زوجُ سُرمان من أكيسا. رفرفا في حذر وابتعدا. قفز ضفدع

من الضفة إلى الماء. تبعه آخر. تسلق دعسوقٌ حائر ثوبَ المرأة المعشبَ يريد النفاذ إلى الخلاء بين الورق فيردُّه السطحُ الكتيم، المستوي، للرسوم الكتيمة المستوية بلاعمقٍ أو خلاء. تساقط قشرُ بزرٍ من فم أكيسا على صدرها: كانت تضيِّق مابين أجفانها، في ألم، كي تتمكن من حصر المكان الساكن، في الجهة الأخرى من الجسر. منذ ستة شهور، أو أكثر بقليل، أحسَّت حريقاً كمَسِّ الفلفل الحرِّيف في عينيها، فواظبت على وضع عصابة عليهما بعد تغطية كل عين برقائق من قشر القِثَّاء المُبَرِّد. انتفخت أجفانها. سَرَدَ العارفون بأحوال الأهوية، ومهابِّ الرياح الخفيفة والقوية، علومَهم في اتصال عوارض العين وعِلَلِها بالمجابهات بين الفصول، وإخلاء بعضها الهواءَ لبعض في الظاهر، مع توسيطٍ للحيلة يحفظ لذلك البعض ثغوراً في سلطان الفصل المعقودة له مشاغلُ الشمس. "تختلط الظلال العاجزة عن اللحاق بمثيلاتها، التي استولدها سَمْتُ الطبيعة في دورة الليل والنهار. ظلال باردة تعتنق ظلالاً دافئة. ظلال مكسورة تستنسخ ظلالاً صحيحة. ظلال لينة تقشِّر ظلالاً صلبة. ظلال فتيَّة تتوسد ظلالاً هرمة. ظلال ماجنة تغوي ظلالاً عفيفة. ظلال لامرئية تعتصر ظلالاً مرئية. ظلال رطبة تلتف على ظلال جافة. ظلال عجولة تقضم، في عبورها، ظلالاً متأنية. ظلال غاضبة تعصف بظلال سَمِحةٍ. الظلال كالدجاج، ياأكيسا، يهرب بعضُه من مزرعة إلى أخرى. تختلط الظلال فتختلط حقائق البَدَن". ذلك ماقيل لها بلسان العزاء المداهن. لكن ابنتها زَلْفُو البيضاء مثلها، أتتها بعَقْد من العلوم نَسَخَهُ لها الورَّاق عاكف شهبان ـ ورَّاق بلدة كلاس الأوحد ـ من خزائن الوشاية الأرضية بعقل العِلَل إلى عقل الأدواء: كُتُبِ المخصوص المُحْتَكَر، الموقوفةِ على دُهاة تراكيب العُنْصر، المتدبرين فَكَّ جسوم المجهول الثلاثة بآلة الإستقصاء. زلفو لم تمهل أمها أن تستمر في تغطية عينيها بقشور القثاء، وغسلهما بماء نُقِعَ فيه مسحوق اللازورد. تركت ابنتيها الصغيرتين في عهدة جدتهما، وزوجها ابن أخي دينان، لتشرف على

بصر أمها من معقل قلب البنت المستوفية خصائصَ الشبه الأكمل: كانت كماءٍ انعكست عليه صورة أكيسا نفسها، التي ابتدعت تأويلاً مُسْتَظْرَفاً أوجبت به على نفسها أن لونَها، هي، يمنع اختمارَ الجنينِ في الرحم: الجنين لاينضج. بياضُها بَرْدُ لونٌ. شمس أحشائها مطوْقة بغمام كتيم. أنجبت بنتاً واحدة وهي في السنة الرابعة من زفافها إلى دينان. أكيسا في الخامسة والأربعين، وزلفو في الخامسة والعشرين. "أيُّنا البنتُ، وأيُّنا الأم؟"، تُسائل المرأةُ أترابَها استخفافاً بدورة الحِمض الزمنيِّ في الخمائر. هي تعرف أن الزمن متبلبل قليلاً، ضعيف الحيلة أمام الشقاق الذي أحدثه اللونُ في عقل التخمين: أيهما الأم وأيهما البنت؟ بَشَرةٌ سطوعٌ زاغ منها بصرُ التقدير. لكن زلفو أطول من أكيسا، وأسرع لساناً: "هيِّي ياأمي. جئتك بالكمأِ في فصل لا كمأَ فيه". درج النطاسيون على توصيف الإثمِد، المنقوع في ماءٍ غُسل به الكمأُ، لجلاء العين، ومنع الرسوبات فيها. هي ثمرة الرِّعدة: يختبل الظلامُ في جوفِ الأرض، أو يعوده مسُّ الصَّرَع فينزف عَرَقاً يتماسك ـ كما الهلامُ حول حصاةٍ في صدفة اللؤلؤ ـ كُراتٍ يتحيَّر فيها الطَّعْمُ أهي لحمٌ أم نبات، أم مزيجُهما. لاخلافَ بلغ بالتأوُّلِ في الأحوال مبلغَ قَلَقِه قَدْرَ نشأة الكمأِ. وجودُهُ سببٌ مضطرب: تَحصُّلُ ثمرته خَلْقاً من لا تلاقُحٍ أو بذرة. ذلك ما عَدِمه إلاَّ النفخُ العَالِم في حمض الأوليّة ـ الطينِ الصلصالِ، أو مايقوم مقامه في خيال العقل المذعور. تجتمع الجواهرُ الفلكية والأعراضُ العناصرُ ـ جارياتُ العَدَم الأبكارُ ـ مصادفةً في برزخ المحنة، حين يعيا الوجود، في جداله، عن تدبير صورٍ للخيال الناطق ـ خيالِ الشكِّ الطليق الملجوم بالشكِّ المُرَوَّض؛ تجتمع الجواهر والأعراض مُتَمثِّلة، بشهوة العصيان، للغدر بالله، فتستولد ـ من عَرَق الظلام ـ كُرَةَ الكمأة على مثال أختها كُرَة الكون.

لاجذور للكمأة تنتسب بها إلى الباطن. لاورق تنتسب به إلى الظاهر. لاأثرَ تُصَنَّف به في حقائق البرهان المعقولة. يُسْتَدلُّ عليها

بغيرها. لكنه استدلال لايصير قانوناً إلاّ في موقع الشمّ من الحيوان: مرة يجدون الكمأ في ظل شجر القَصيص الغريب، أو تحت سطح نبتَ فوقه الشّكرذيون اليوناني ذو الورق الرفيع بلاسيقان، ومرة لايجدونه. يذهب به ماءُ الرعد من مجهول إلى مجهول. بَيْدَ أن الكلب المدرب على رائحته يقتفي أثر المجهول إليه، ويُسمى صيدُ الكمأِ بالكلب "علمَ الماء".

لم تقل زلفو لأمها من أين أتت بالكمأ تداوي به بصرها المحترق. جعلت الكمأَ دقيقاً مطحوناً، خلطتْ به الإثمد الذي تكتحل به أكيسا. "آه، قلبي"، كانت تردِّد المرأة على مسمع ابنتها كلما مرَّت ريشةُ الكحل بين أجفانها. قلبها الملجوم من أن يزحفَ إلى حدائق دلشاد غلبَ، بألمه، حريقَ عينيها. منذ شهر، قبل جلوسها ذلك العصر خارج بوابة البيت، لم تعد قادرة على اجتياز الجسر بلا معونة من زوجها، أو ابنتها. تهدَّل جلْدُها المشدود في لمحة عين. كانت مُدرَّبة، بصوت العاشقة فيها، أن تذوب غماماً يتنشَّقه الخفيُّ وحده في عبورها الجسرَ إلى بوابة الأمير ذي اللقب الأزرق، منسلَّةً، من الممر لصق السور الجنوبي، إلى غرفة دلشاد - غرفة التاريخ المصقول بلا تدوينٍ على الورق المصقول بقوة الأُسطوانات الضاغطة، قرب خيال الأب الأول زازا إيفاردر. وهاهي لاتصل إلى عاشقها إلاّ في انعقاد حلقة الجُلَساء بدار الأمير، جالسةً إلى جوار أختها، وخادمَيْ أختها الطورانيتين، وبعضِ الزائرات في المساء المُلَفَّق أبداً باستعراض العلوم المشدوهة على ألسنة الظُّرفاء: يختلس دلشاد النظرَ إليها ذائباً في صَدَفة السرِّ الملتهبة، وتذوب أكيسا من خيانة عينيها اللتين تُصَيِّران الشابَّ شبحاً تتقاسمه الظلالُ السميكة لمصابيح الزيت، فما يتبقّى لها غيرُ رمادِ صورةٍ.

كان دأبُ مهران أن يقرأ على جلسائه، كل مساء، السطورَ التي ينجزها دلشاد من ترجمة "المختصر في حساب المجهول". دقائق، لا أكثر، هي تحصيل انقلاب الخيال السريانيِّ خيالاً كردياً. ذلك مايقدر

المترجم أن يعود به، نقياً في غربال يومه. دقائق قليلة من القراءة، ثم يَسُوْد الصمتُ المُزبد في قِرْبة الَّلبنِ ـ العقلِ. هم لايفهمون شيئاً، في الأرجح، لكنها وساطة مُحتَملة من الوقت، في الفاصل بين نشيد الغامض على لسان مهران وبين مرتبة الترويج عن لسان المتاهات بلسان الشُّكر للنوادر، والشُّكرِ لخفَّة العقول المضحكة ـ القصصِ المقذوفة من نوافذ الأُمم إلى نوافذ الأمم يلتقطها الشُّطَّارُ العميان، الذين يغزلونها على مغزل الأصباغ الأزلية، ثم ينسجون بها العُرْيَ ـ ثوبَ التسليةِ النُّورِ.

في الشهر الخامس من صاعقة المجهول، التي أوقدت النار في محجرَيْ أكيسا، لم يعد مهران ذو اللقب الأزرق إلى قراءة شيء من كفاية الترجمة، وهي أشهر خمسة أدرك الجلساء فيها، على قَدْر علومهم بظاهر اللسان البسيط، أن لغة الأوراق بين يديه قد انحسرت عنها شهواتُ المُحيِّر، وكَبَسَت عليها شهواتُ الطرائف المقصودة، والسِّيَر المختصَرة، وغرائب الأمصار، والأحاديث المُسْتَمْلَحة بلا تزويق. "دلشاد سيرتاح قليلاً"، هكذا علَّل الأمير غيابَ قراءته المعهودة، عائداً بخيال لسانه إلى اليوم الذي أدرك فيه، بنفسه، أن السياق المعذَّب لانتقال الأنفاس بين سطور الترجمة تقوَّض بسردٍ مُلْغِزٍ عن نشأة "عقول المعادن". كان ذلك قبل ستة شهور من بلوغ الحريق مرتبةَ تفتيت الصور في عيني أكيسا. قرأ، في مسائه ذاك، ماينبغي أن يقرأه على مسامع الجلساء متخبطَ القلب. لكنه خرج في الصباح إلى الجسر ملتفّاً بعباءته السوداء، المذهَّبة الحاشية. أصغى إلى المياه قليلاً يستردُّ بخياله ودائعَ العنصر الذي يجمع نشأتيهما في خزائن المعلوم المُغلَق. سلَّم على النهر، فرد النهر التحيةَ محمولةً على أنفاس القصب. نادى، من غير أن يجاوز نهاية الجسر: "أكيسا!!!"، وانتظر برهةً، يعرف من تخاطُر الخلايا الحية بعقل العَدَم الحيِّ أن صدى الإسم سيلتقط صوتَ الإسم، فانفتحت البوابة بصريرِ سكران: "أناديتني يازوج أختي؟".

"أكيسا"، قال ذو اللقب الأزرق. ألقى ببصره إلى الماء ريثما بلغت

المرأةُ ـ البزوغُ طرفَ ظلِّه. "ماالذي قرأتُهُ البارحةَ لجلسائي؟".

أطرقتْ أكيسا، وعادت إلى إلقاء عينيها في مصبٍّ عينيه صامتةً. نطق الشيخُ بفضول يفور من لسانه: "لا أظنكِ لقَّقتِ عقولاً للمعادن". إعتصرَها بقبضة حصاره اللامرئي، فلم تقاوم: "إنه دينان".

دارت الحقائقُ بكماءَ دائخةً في فَلَك عِلْمه بالحقائق. أرغى معدنُهُ ـ معدنُ الهيئة الآدمية: "دينان؟"! ماذا جاء بدينان إلى...؟". تاه اللفظُ على لسانه محدِّقاً إلى أكيسا.

"دينان يعرف"، قالت المرأةُ ـ البزوغُ من صَدَفة اللون.

"يعرف ماذا؟"، دمدم مهران إيفاردر.

"بالذي بيني وبين دلشاد"، قالت أكيسا.

كان دينان يحوِّم حول نَفْسه كنحلة ذاتَ ليلة، بعد عودته من مجلسٍ لشُطَّار الحمَّامات، في بيت دفتردار الشحن زكي مجبور، المولع بالخطِّ الديواني في تدبير المتاهات للمَضْبَطة التركية. مثاقيلُ حكاياتِ الخفَّة، التي وزن بها الشُّطار الألْعُباناتُ خيالَ اللسان الحاذق، بلبَلَت الميزانَ في عقل مروِّض المسكوكات المصقولة بغبار الخلود: كانوا يفصلون علومَ الجسد بتأويل الماءِ الساخن، والمشموماتِ الأفاويحِ المُركَّبةِ من دهون النبات، وقشور الثمر، وغُدد الحيوان ـ مسك الغزال والسلَّور. "لا أَعمار تنجو من غواية التبخير بأرواح اللطائف. لكل عمر تزويقٌ يعترض به الخَيالُ على المقدور". توريات صقيلة واكبت ثرثرات الشُّطار في وصف حَيَل العشاق الخُلاَّسين ـ الأزواجِ والزوجات والخَدَم، والغلمان حمَّالي المتاع من الحوانيت إلى البيوت، وجُلاَّخ السكاكين الجوَّالة، وصيَّادي العقارب من سقوف المنازل بابتداع الأصوات الرُّقى. ثم رتَّبوا الآثار في رمل المعقول: "لكل مظهر قِسْمةٌ يُسْتَدَلُّ بها إلى شهوة، أو هوى. إذا أحبت المرأةُ ضاعفت الكحلَ مرتين في اليوم،

وأبقت جلدَ عانتها جليّاً كراحة اليد".

نَفَشَ دينان الصّورَ في خزانة عقله المرئيِّ الحافظِ ـ عقلِ الاستدلال بالضوء على الظاهر. استعاد أكيسا، ببصر المعاني المحسوسة، من الواقع خيالاً، ومن الخيال واقعاً. طابقَ الظنونَ فانطبقتْ. أرغى كبدُه: "سأفتّت الأَشكالَ في محجريكِ. سأقشِّرُ حدقاتكِ الخمس عن بصلة البياض الأعمى ـ حدقَتَيْ عينيك، وحدقة قلبك، وحدقة كبدك، وحدقة فرْجك، ياأكيسا". ظنونٌ رقيقة مسَّتْ عضلةَ الشُّبْهة فيه، من قبل، وهو يرى زوجته، من نافذة مشغل المصكوكات، تعبر الجسر مراراً، في اليوم الواحد، إلى بيت أختها. لكنه تخفَّف من المُحْتَمَل المسنون بذرائع النِّسَب حول أخدود قرهْ صُوْ الطويل: "النساء رمادٌ في الأربعين". ليَكُنْ أنْ تُضَاعِفَ أكيسا الكحل على عينيها. ليَكُنْ أن تظلَّ حليقةَ العانة بانتظام. ليَكُنْ أن تبخِّر خمارها بعصارة الماميران المغليَّة: "تلك هي مدافعةُ الأنثى عن حديقة فكرتها النضرة في المرآة"، هكذا سوَّغ مروِّضُ المسكوكات لنفسه مايحجب ظلَّ الشكِّ عن السقوط على أثر ظلّةٍ. لا. شُطار الحمَّامات أعادوه إلى سِكَّة فكرته ـ الشبح؛ الفكرةِ المتدحرجة ككُرة الشوك من الظن إلى الأحشاء: امرأته لاتغفل عن شعرة واحدة في موضع النَّتْف من الحاجب. نقوشُ الحنَّاء على ظاهر يديها هي في الموقع ذاته من ألق اللون ـ نقوشٌ نبيذٌ من أرقام الحساب الكُلِّي المفقودة. كل صباح تُنَقِّي فمَها بمضغ صمغ المُصْطكى. بصرُها، في مجلس المساء بدار الأمير، على دلشاد. كيف أخذتْه الغفلة، إذاً؟ مايصحُّ من التقدير في أمر عاشقة واحدة يصحُّ في أمور العاشقات جميعهن. اعتصر دينان ثديَ عقله الثامن ـ عقلِ الإطلاق: أيتبعها؟ يتبعها إلى أين؟ إلى بيت أختها؟ لو بَدَرَ من أكيسا ميلٌ يُريبُ لَلَجَمَها الأمير أو نُوْفا جانْ. هي في مرمى رقابة العجوزين السارحينِ، أبداً، في حدائق البيت المرئية والخفية، المستورة والظاهرة، المُعلَّقة إلى سماء الممكنات أو المرتكزة على كثافة الحاصل: "لايليق بك، يادينان، أن تجرفك الشبهة إلى الإختلال"، قال مروض

المسكوكات لنفسه الكادحة في تطويع معدن الصَّدمة. "إن كان في الأمر مجرَّد ميلٍ سأهددها بضَرَّةٍ بكْرٍ هي، في حساب سَهْلٍ مثلي، نجاةُ البدن من محنة الجفاف البطيء. سأُعذِّب خيالَ أكيسا ليلةً بعد ليلة. سأسلخ النقوش عن ثيابها. سأقيد الصورَ في أحلام يقظتها وأحلام منامها. بطيئاً سيغدو نَفَسُك ياأكيسا. بطيئاً سيغدو نبضُك. ستتآكل المُتَعُ الصغيرة، المنثورة حولك كبعر الأرنب"، قال دينان، غير مُكْتَفٍ بألفاظ انتقامه. تحرَّى صوراً أكثر شقاءً يمتحن بها امرأته، ثم أَقْسَم قَسَمَ الوجود بالهباءِ ـ ثمرةِ الكُلِّي الناضجة أبداً: "وحقِّ الألم، لو بَدَرتْ من قلبك، ياأكيسا، لفتةٌ، تُخفى حتى على المَلاك الرقيب، إلى رجلٍ آخر، سلبتُ من عينيك ودائعَ الله".

لم يكلف مروِّض المسكوكات نَفْسَه التزامَ العلوم المأذونة في تدبير الاستقصاء، وقِيَافة الأفعال، والتحرِّي عن المكنون بالظاهر. داهم امرأتَهُ في كمين الذهب ـ كمينِ قلبها المُطابقِ عشَّ الخُطَّاف: "ماالذي يعجبك فيه ياأكيسا؟".

كان السؤالُ الجليدُ في لاتحديده موجباً للخَدَر. شُلَّ خيالُ المرأة البزوغ. تفتَّتَ لسانُها، وتخلخل الهواء. تتبَّعته ببصرها منتقلاً، بحركةٍ تتلامس فيها البروجُ، إلى ركنه الأثير، حيث الكرسيُّ الثقيل، المُذهَّب المَسنديْنِ، برائحة قماشه المحشو إسفنجاً بحرياً ذا عقل مُدرَّب على شواطىء إسطنبول. "اسمعي، أكيسا"، قال دينان مصغياً إلى الشقاء الرقيق، المُعْتَصَر في قَدَح الحيْلَة: "لن أثير عاصفةً في عمرنا هذا". حدَّق إليها متلاشيةً. "عندي ماأساومك عليه: ستنقلين خواطري إلى دلشاد يُقحمها في فقراتٍ من ترجمته، منذ الغد".

"خواطركَ عمَّ؟"، تمتمت المرأةُ البزوغ مهشَّمةَ اللسان والصوت.

"عن عقول المعادن"، قال مروِّض المسكوكات، فلم تفقه أكيسا شيئاً.

الأمير ذو اللقب الأزرق، الذي قرأ على جلسائه أنفاسَ السطور القَلِقة من محاججات المعادن للمعادن، ذات مساء، أحسَّ صريراً في قلبه. كان قد اعتاد، في الأشهر التي سبقت غزوةَ الحريق في حدقتَيْ عينَيْ أكيسا، أن يُملي على المرأةِ البزوغ قصصَه البسيطة كي تحملها إلى دلشاد، فيعيدها إليه دلشاد في غطاءٍ ينسبها إلى ترجمة "المُخْتصَرِ في حساب المجهول"، فيقرأُها مهران لجلسائه المُستحسِنين طرائفَ الوجود البسيط. أكيسا لم تعرف، حتى ساعة جلوسها قبالةَ الجسر متصدِّعةَ البؤبوين، في الربيع الأعشى ذاك، كيف اهتدى الأمير إلى هواها المتنقل ككثيب ترعى به الريح، من حجابٍ إلى حجاب، مراعيَ دلشاد ـ جسدَهُ، وروحَهُ، ونشأةَ مادته وجوداً في الخيال الأزلي. هيَ سلكتِ الحذرَ في عبورها اليومي من بوابة بيت أختها إلى غرفة الشاب النازلِ سلالَمَ الترجمة، من غير مبالغةٍ في التحوُّط للفجاءات، مطمئنة قليلاً إلى الشرود الذهبيِّ، الذي يوطِّد لعقلَيِ الزوجين الشيخين سلامَ الغفلة عن مجابهات الأرواح الصاخبة وراء الأستار الشفيفة لحدائقهما، وفي ممرات البيت. أما الخادمان أَيْشَا وشَهْبَا، القائمتان على نظافة الدار والطهو، فهما، في الأرجح ـ تواطؤاً مع أكيسا، أو تغاضياً، أو جَهْلاً بالأمر ـ لم تكونا في عِداد حَذَرِها.

في مساء آخر، قبل شهور من المساء الذي اعترتْ فيه قراءةَ الأمير للترجمة على جلسائه ما يُريبُ خيالَه، فاعترفت له أكيسا، من ثم، بما أَقحم به دينان من إملاءاته عليها ليضيفها دلشاد إلى الترجمة؛ ـ في مساء آخر، اعْترتِ السطورَ بين يدي مهران حُمى النقْلة الغريبة من سياق في أحوال الأعيان الغامضين، داخل "المختصر في حساب المجهول"، إلى سياق في أحوال الوشم بالنَّيْلج، وبالعصارة الخضراء في حشو الجراد، والمفاضلة بينهما. بدا التأليف ركيكاً، متعثراً، متقطعاً، موصولَ الخواطر عنوةً بلاتجانس. كتم ذو اللقب الأزرق ريبتَه المُثقلة باستيائهِ. كلَّم أكيسا، في الصباح التالي، من النهاية الغربية للجسر، بعد خروج زوجها إلى

مشغل المسكوكات: "أكيسا. هَلاً استفسرتِ من دلشاد عن حكاية الوشم هذه؟"، قال، مخترقاً ببصره حقلَ القصب الأبيض على ضفاف عينيها. فوجئت المرأةُ البزوغ. ارتعشت عضلةُ الطير في روحها ـ روحِ السفح الجبلي: "لو يسأله جنابُكَ"، ردتْ مرتبكةً. أطرقَ مهران. نقلَ بصرَه إلى النهر يستشير ماءَه فأشار الماءُ عليه بالسكوت. استثقلتْ أكيسا حالَ الجواب المحجوب. كلَّمَتْه:

ـ لماذا تخيَّرتني أن أسال دلشاد؟

أعاد مهران بصرَه من الماء إليها رطباً. دار بلسانه، كعقرب الساعة، على محيط الكلام: "كوني حذرة، ياأكيسا. قد تعرف أختك نوفا ما أعرفه".

ذاب خيالُ أكيسا. مشاهِدُ عبورها بوابةَ دار الأمير إلى غرفة دلشاد لُمَحاً، تتالتْ مهشمةً في عيني قلبها. لاأحد ينجو من خذلان الحيلة، في برهة ما، على مرمى رقابة الآخر. غَلَبَةُ الظاهر، في حقل أخيه المستور، هي غَلَبَةُ غبار الطَّلع. نطقتْ أكيسا بهواء المكتوم المُعْلَن. نطق لسانُ اعترافها ـ اعترافِ الماء: "أنا لفَّقت لدلشاد تلك الإضافة إلى الترجمة، يازوج أختي"، قالت. حادتْ ببصرها عنه إلى رخام اللوعة اللامرئي: "كانت الترجمة ستنتهي".

مسَّتْ حال مهران، في برهته تلك، ريشةُ حال أكيسا، فرنَّ وتَرُ الأسى فيه من عقله إلى كبده: هي تستبقي دلشاد. تستظهره من خاطر الأنثى فيها سطوراً هي حكاية عودتها إلى كمال الفكرة المفقودة: الهوى وجوداً. الإستجارة بالهوى وجوداً. محاكاةُ الأرضيِّ للغيب المُستعاد أرضيَّاً. البقاء في طور الثمرة بلانهاية.

كانت أكيسا مقيمةً في عِلْم قلبها بالأزليِّ. هكذا رآها ذو اللقب الأزرق، فحرَّضها على تلك الإقامة بتأييده ـ تأييدِ العقد الذي لايعرفه إلاَّ قلبٌ موثوق: "ستدوم الترجمة. ستدوم مادامت يدُ دلشاد قادرة على التدوين".

بسيطاً كان التدبير: أكيسا تحمل إلى الشاب ما يمليه عليها مهران، فيعيدها إليه الشابُّ بإنشاءٍ قريب من الترجمة، وفي ظنه أن أكيسا، الملتزمةَ كتمان المهمة، هي التي تختلق الطرائفَ الرقيقة، والنوادرَ المشاعة، وتزيِّن الأقاصيص الهانئةَ والملوَّعة برسوم الكلمات المتوسلة ألوانَ السحر الملجوم. فيما دأب ذو اللقب الأزرق على ارسال كل بضعة صفحات إلى عاكف شهبان، ورَّأق كلاس، يستنسخها له أربعاً بخط المُريد الحالم: إعادة الحرف العربيِّ صورةً في مُفْتَتَحِ الفقرة الكردية. ثم يرسل النُّسخ، في محفظة سائق القطار، إلى أولاده الأربعة، المستقلين بأشغالهم، كلٌّ في محطة من الأربع المتتالية من الاسكندرونة إلى ملاطية، هانئاً في رعاية خياله المنسوج سطوراً تؤيِّد أبوَّة شيخوخته بلا قيد. لكنه صُعق من اقتحام خيالٍ آخر في ابتكارٍ أوجبه على نَفْسه، واسْتَمْلَكَه حَصْراً - خيالِ دينان برْوار، مروض المسكوكات. عَدَّ الأمرَ هرطقةً: "كيف تجاسر هذا المخذول، ياأكيسا؟ سأقشِّر بؤبؤيه. سأعيد بصرَهُ فوضى: لانور؛ لاظلام".

حين أقامت فرقة "الكَيْد" التترية دعائمَ الغناء الغريب، في دار صُوصُوكْ جُوْلْ، تنزَّل على عقل دينان خاطرٌ من شروق الحيلة: "سأُملي على أكيسا ما تمليه على دلشاد. سيكون لي في ما يترجمه عن السريانية موقعُ السطر التائه"، هكذا توعَّد الحقائقَ الكسولةَ، وتَهَدَّدَ الممكنات.

لارباط، في الأرجح، بين فكرته، وبين إصغائه إلى عزيف الآلات بين أيدي أولئك الستة، المنتفخي الأجفان على عيونٍ جروحٍ مستطيلة المذاهب، تتفقَّد المستمعين بحثاً عمَّن لم يحضروا. هم اتَّخذوا اسم "الكَيْد" من لفظ في القرآن، بحسب الترجمان التركي. لكنهم يكيدون لأصوات المهجورات المسكونة، والمسكونات المهجورة، بصناعة مثالٍ هو تلك الأصواتُ مجتمعةً في تناحر بلا انكسار أو انتصار: أصوات الريح، والماء، والسحاب، والعقل. كان مُغَنِّيهم ينتقل بحنجرته من مقام إلى مقام في النَّبر، بخليط من النَّفخ لا يشبه الغناء، وألفاظٍ هي تمامُ محاكاة

اللسان لحركة الطبيعة وأنفاسها. أما صوت العقل، كما مهَّد الترجمان للنقلة بين المراتب بالتركية، فقد اجتمع في تمثيل خاصيَّته الطنبورُ، والقرعُ بالملعقة على اسطوانةٍ حديدٍ، والنفخُ غرغرةً من الَّلَهاة: "صوت العقل هو الحجر الذي ينزلق تسع مرات على سطح الماء، في رمية واحدة"، قال ترجمان فرقة الطرب التترية، التي اصطحبت معها قِرَباً من لبن الخيل مخمَّرةً تدحرجُ الشاربَ على مدارج الرؤيا، من مبتدَأِ النشأة زمردةً في خاتم التيه إلى منتهى النشأة المُعْتَصَرة في قَدَح التيه: "إشربْ من هذا تكُنْ خيالَ حصان"، قال الترجمان لمروض المسكوكات عن لسان القارع بالملعقة على الأسطوانةِ الحديدِ. شرب دينان من طاسةِ نحاسٍ دارت دورةَ الكمال القصيرة في المجلس. استعرضَ قلبُه الخازنُ على عقله الخِزانةِ صورَ المعقولات المحتدمة: "أريد موقعَ السطر التائه ياأكيسا"، تمتم بلسان السماء المُتطبِّعة بطبائع الأرض.

لايعرف دينان لماذا تجلى ـ من بصر علومه القلقة على بصر علومه المطمئنَّة ـ ذلك السياقُ الغامض من مكاشفات المعادن للمعاني. كان انتقاله بين خواص المواد يضعه، أبداً، في صورة السؤال العادي عن ديمومة المسكوكات، التي تستولد، في خواطر الطالبين، حسابَ تاريخ العالم الصغير، والعالم الكبير، بأرقام من صناعة النَّسَب العائلي. موادُّ تدوم وأخرى تبلى. أحماض الطبيعة، الحاصلة عن إتِّفاق الأسرار الأثيرية، تهشِّم خيالَ الجماد الصلب فتتقوَّض خواصُّ الجماد، أو تجرِّحه فيغدو ضعيفَ المرتبة. ودينان، الحامل إلى زُبُنه برهانَ المعدن على أن المصادفات أناطت بها عقولاً على قَدْر بقائها، أو زوالها، يريد برهةً لا يُنْتَهَك فيها خلودُ النقش المطبوع على مادَّته: لقد كلَّم عناصرَ الخارْصِينِ بلسان مذاهب الليل ـ مذاهبِ الرهبة والرغبة؛ وكلَّم عناصرَ النحاس بلسان الأكيد المُعَذَّب ـ الأكيدِ الحالم أبداً بانعتاقه من قيد بقائه أكيداً؛ وكلَّم الذهبَ بلسان المجهول المعصوم الذي يحتال به القِدَم في تصريف الوجود المنكوب: "هَبْني أيها الجمادُ فضيلةَ القَلَق الساحر"، قال لخياله

المسكون، فوهبه الجمادُ قَلَق الإنسان. دار على عقبيه في **اتجاه ذاته** المرتضَّة: "وعْدِي أن أجرَّكِ معي إلى السطر التائه، ياأكيسا".

كانت حيرةُ أكيسا أشبه بشللٍ، حين سرد عليها زوجها دينان خواطرَ عقله التائه في مسالك المعادن. هو، نفْسُه، بدا متلعثمَ المنطق، قَلِقاً في الإنشاء، يحمل بَيْضَ الكلمات مكسورةً إلى أعشاش السطور المتوازية في خيال لسانه. حاججتْه المرأةُ البزوغ بانكسار: "لا أفهم ماتقول. كيف أنقل ما لن أحفظه إلى دلشاد؟".

"فكِّري، معي، في طريقة نبسِّط بها ما في عقلي"، قال مروِّض المسكوكات.

"لا أفهم ما في عقلك، يادينان"، ردت أكيسا.

"اخترعي معي شيئاً ما. أعينيني"، قال موبِّخاً.

"فلنفكر بحكاية صغيرة إذاً. أية حكاية تريدها"، ردت أكيسا.

"أريد المعادن أن تتحدث بلساني عن أحوالها، من عقلٍ لا هو لي ولا هو لجمادٍ آخر غيرها. المعادن"، تمتم مروض المسكوكات، فأطرقت أكيسا. أحصتْ مجرَّاتِ اللامعلوم الثماني والأربعين مستعينةً بأصابع يديها، وقدميها، وأصابعِ الخفيِّ الطويلة التي مسَّتْ أعشابَ عقلها. احتدمَ دينان: "مابكِ ساكتة؟ فكِّري"، قال، فظلت المرأةُ البزوغُ في البرزخ، تتجاذبُ والوجودَ الصغيرَ وشاحَ المفقودات الصغيرة. رنَّ صوتُ زوجها من جديد: "أريد هذه المعادن أن تعترف باقتداري على إعادتها إلى صوابها، أو فَلأَسمَعْ جدالهَا، ياأكيسا".

ظلت أكيسا في البرزخ. نقلت حصاةَ الوقت من مجرى الآثار الأرضية إلى مجرى الكيد السماوي.

غلى ماءُ الجوهر في خليَّة عَظْم دينان: "ما سكوتكِ هذا؟ أتستخفِّين بي؟". رفعت إليه أكسيا نظرتَها الفارغة، فازداد غليانه:

"اسمعي يافاشلةَ الحقيقة، ويافاشلة اللون. أنتِ استولدتِ فيَّ جرحَ الفكرة. خذي الجرحَ إلى دلشاد".

"خلق الله المعادن أولاً. فكَّرت المعادن، ثم تكلمتْ.."، هكذا بدأت أكيسا بسردِ المخطوط الخفيِّ على دلشاد، الذي لم يطاوعه الحبر. رفع القلمَ عن تخوم البياض وحدق إلى المرأة البزوغ: "ألا ينتبه مهران أننا نلفِّق له، كل يوم، شيئاً مختلفاً من عظمه إلى لحمه؟"، قال الشاب الحامل متاع الترجمة المتوعكة. "فلنقُلْ إن الترجمة انتهت، ياأكيسا. سنتدبر لحكاية قلبيْنا ملاذاً آخر".

ارتعدت أكيسا. مالت عليه في مجلسهما على الأرض تحتضنه بيديْ ثدييها، ويَديْ أحشائها، ويديها هي المُعْتَنقتين مذاهبَ اللوعة. تهدج صوتها: "كلما قلتَ هذه الكلمات أحسستُكَ تهدِّدني". ارتعش كبد دلشاد: "لا.."، قال، فسدَّتْ فمَه بصدرها. اعتصرتْ رأسَه: "ليكنْ. اقتُلني واذهبْ. اقتلني على النحو الذي تشاء. ضعْ سكيناً على نحري. اسكبْ عليَّ زيتاً مغلياً. اقطعْني شرائح رقيقة ووزِّعني على هذه الكتب، بين الصفحات. ألْقِ بي في النهر. ادفنِّي في طاحونة الملح. علِّقني قطعتين إلى شجر السِّدر، في مهب الريح على وادي قره صو كي أجفَّ. اعتصِرْني بين حجري رحى حتى أغدو هَرِيْساً تملِّط به جحور النمل في كلاس. استفرغْ دمي من وريدي في الزير، واكتب به أشعار الخسارات إلى آخر رطوبة فيه. اسلخْ جلدي في القيظ يجتمعْ عليَّ الذبابُ الأزرق. مرِّغْني في حقل من أعشاش الدبابير. ادفعْني من حافة الدنيا إلى هاوية الـ..". تعثَّر لسانُها بدرَج خيالها. وضع دلشاد راحته على فمها، وهمَّ بتقبيلها، فردَّتْه: "ثم ماذا إذا أخبرتَ مهران أن الترجمة انتهتْ؟ نتقابل، بعد ذلك، في البرية. تتنكرَّر في جلد حمار قادم من بلدة سياسيل، وأتنكَّر في جلد أتان قادمةٍ من كلاس. ها. سنكون على مايرام، ياابن الـ..". تعثَّر لسانُها بحجر الغضب فتساقطت الكلماتُ واحدةً فوق رئة الأخرى. مد دلشاد يده إلى غمامة شَعرها الحريقِ.

تكلَّمَ: "أكيسا. ستُفْتَضَح لعبتنا هذه". انتفضت أكيسا: "هل سمعتَ مهران يتذمر؟ مابك أنتَ، إذاً؟ هو راضٍ، فارْضَ. أمْ مَلَلْتني؟"، قالت منكمشةً من فجاءة الفكرة. ضحك الشاب بصوت ملجوم. دفعته المرأةُ البزوغ بيديها الحانقتين فارتدَّ دلشاد بظهره على الوسادة. جلست أكيسا على حجره. قرصت خاصرتيه، وثَنْدُوَتيْه، وجلد أضلاعه. عركتْهُ. لوته حيثما مكَّنها عضوٌ فيه من الإلواء. عضته من أنفه، وكتفيه. عضته من فخذيه المرتعشتين من غزوها لحمَهُ، ثم التقطت متاعَ الذَّكَر فيه. توَّعدت الأرضَ في خصيته اليمنى، والسماءَ في اليسرى: "لن أُبقي تراباً فيك لأنثى. لن أُبقي ماءً فيك لأنثى. فلْيَكُن سلوقيُّكَ، هذا، قنوعاً بما اصطاد منّي"، واعتصرت كَمَرَته بإصبعين، ففتح دلشاد فمَه، أخرسَ، من الألم، خوفَ أن يسمعهما أحد.

كان دلشاد، كلَّما أتته أكيسا بأحمالِ إضافاتها إلى ترجمة "المختصَر في حساب المجهول"، لايلجم حنقه. يعارضها مستهزئاً. يتهدَّدها أن السياق سيُفْتَضَح، وأن الشروخ بين أصل الترجمة وبين الإضافات الملفَّقة لم تعد تخفى على نعجة. الأعيان الغامضون، الذين يسرودن على مؤلِّف "المختصر" جرجيس لوقا سالوحي، سِيَر ملائكة بلا مهمات، يتعثرون بأكياس الإثمِد، ونيرنجات أحبار الوشم في قصص أكيسا. تتمرغ علومُهم في طرائف حكايات مهران، وتلتهمهم السويداءُ وهم يسمعون صلصلةَ معادن دينان بين سَنَنِ العقول التي يستخرجون بها ميلادَ الدورة الإلهية في الأرقام.

لطالما فاتحته أكيسا أنها لاتفقه شيئاً مما يقرؤه الأمير، في مساءاته، من الترجمة. وهو الأمر الذي كان دلشاد يكبسها به: "كيف يحدث، إذاً، أن ما لم يكن مفهوماً لك وللجلساء يصير مفهوماً حتى للهرة في دار مهران؟". يشد شاربه بأصابعه مختنقَ الغضب، ثم يلين، ثم يدوِّن ما يعرضه عليه خيالُ المرأة البزوغ متمهِّلاً: "مفهوم. وأكثر من مفهوم. بسيط، لايحتاج أحد إلى الإصغاء كي يفهم هذا ياأكيسا. إنني أسمع

عظام جرجيس سالوحي تشتمني"، يقول الشاب الصاعد سلالم الترجمة المنكوبة، منصرفاً بعد غضبه العابر إلى إنشاء التلفيقات إنشاءاً يليق، قليلاً، بخيال مهران القارىء، من غير أن يخفي تذمره: "لكِ مخالب عقل العقعق. مخالب تفكر أولاً، ثم منقار يفكر، ثم معدة تفكر، ثم ذَرْقٌ هو خلاصة سيرة الطعام".

"لم أفهم"، تقول المرأة البزوغ.

"أنا، نَفْسي، لا أجد مُخرجاً لهذا المثال. لكنه يشبه الحال التي تنتقلين بها من الوشم والكحل إلى حِيَل الجزَّارين في حَقْن اللحم بالماء، والعبور من كل هذا إلى طِلَّسمات المعادن. كيف، بالله، جمعتِ حُمْلَكِ من الغرائب؟ أم أنني لم أفطن إلى علومك، يا هِبَةَ الغيب؟"، يقول دلشاد، فتقتحمه أكيسا بمداعباتها الجسورة: "لحمك هبةُ الغيب. سآكل بعض أعضائك نيئاً، ذات يوم، وبعضها الآخر مطبوخاً بالمشمش المجفَّف".

حتى اليوم الذي جلست أكيسا فيه قبالة الجسر متقرِّحةَ الأجفان، كليلة البؤبؤين، لم تنبس بشفة لدلشاد عن تدخل مهران، أو زوجها، في تلفيق الإضافات. أبقته في هواء يقينه الذي يتنفَّسه من هبوبها هي عليه: يدوِّن ما يظن أنه اجتهادُ لسانها في تدبير العلوم الصغيرة، وابتكار الملذَّات العفيفة للأسماء. لكنها منكوبة البصر، تستجدي من خيالها المتقرِّح ترسيماتٍ تكمل لها مشهدَ الجسر متصلاً ببيت أختها ـ البيتِ الصَّدَفة التي استقرت في ركن منها لؤلؤةُ لوعتها: "آخ دلشاد. أتُراني أسأتُ إلى الله؟".

الكثير من الهندباء البرية تناثر في كل أنحاء بيت أكيسا، مذ قيل لها إن لبن سيقانها يجلو بياض العين. الهندباء الخشنة الأوراق، المتضرِّعة ـ أبداً ـ إلى التماثيل اللامرئية، لم تُنجد أكيسا. بَيْضُ دجاج، كثيرٍ، اختلط بدهن الورد المعجون، ثم طُليَتْ به أجفانها، أربع مرات في

اليوم الواحد. بَيْضُ الحمام، والعصافير، والسنونو، والحجل الجبلي، والهدهد، واللقلق، عُجِنَ كلُّه بمسحوق حجر السَّبَج الهندي، واتُّخِذَ كِمادات لعينيها. تأوَّل لها قيَّافو المستورات الذهبية حقائقَ الزُّلال والصَّفار في البيض: "الخُيلاء، والقلق"، كلاهما لونٌ يقدر على إحالة الفراغ والمَلاءِ إلى جنسٍ حركةٍ؛ والحركةُ تطرد الأورام من الأعين، ومحيطها. أما حجر السَّبج الهندي فهو حافظ المهاراتِ في كتلته ـ مهاراتِ الماء الراكد، المقتدر على ابتكار خميرته الخالقة عقلَ المحظور؛ والمرايا التي تُتَّخذ منه، بعد صقله، توسِّع حدقتيِّ الناظر إلى عينيه فيها، وتجلو الصور. أما قيَّافوا ممكنات المجهول الذهبية فتأوَّلوا خزائن الحيوان: زبْل الضبِّ ـ الشريدِ المتمرد على ضرورة الماء ـ ينفع، إذا اكتُحل به مختلَطاً بعصارة بصل الفأر، من انقلاب رطوبة العين إلى نزيف مائيٍّ يصير غشاءً، مثله مثل مرارة العُقاب، مدرِّب المنحدرات الجبلية على الطيران في ظله. وأكد رُسُل هؤلاء القيافين أنهم شهود على أن من أداموا النظر إلى حُمر الوحش لم تلحق بالصور، في مراقي أبصارهم، غشاوةٌ أو لَبْس: "حمار الوحش حرف أول في خُطاطة البيان الأعجم، المنسوب إلى أنبياء الحيوان". أما مرارة الظبي، إن نُقِع فيها عودُ المكحلة، فهي ردعٌ لقروح الأجفان، وتحوُّطٌ من عين الشر الحاسدةِ عينَ المحسود: "الظبي بؤبؤ الطبيعة في حدقة الخفيِّ المحسوس". وفي السياق المُنْتَدَب من علوم الظاهر القوية سُمِّيتْ مرارةُ القَبَج، أيضاً، بأسماء التحصيل: "طيرٌ قَدمٌ في الشَّرَك وقدم في النجاة. يرى إلى عقل الحيلة بعينَي العناصر الأربعة". كما ذُكِرتْ مرارةُ سمكة الشبوط ـ سمكةِ النهر المغلوبة بوساوس القِدَم.

لم تترك أكيسا من الأدوية ماوصِفَ لعينيها وما لم يوصف. اعتمدتْ نباتَ النهار مرجعاً، ونباتَ الليل. اعتمدتِ المُجرَّبَ من جوارح الحيوان الداخلة في كيمياء الجواهر العارضة، وغيرَ المجرَّب. نقَّلت بصرَ يأسها في حدائق الكثافات المنسية على تخوم العلوم الكبيرة: عصارة زهرة

المامیثا. عصارة الكافور. قطران شجرة العرعر. نشاء القمح. ماء المردكوش. ذَرُوْر إقليمياء الفضة والنحاس. شراب القراصيا. مرق قانصة الحبارى. دقيقُ حجرِ الفيروزج. الكراث الجبلي المطحون مع العسل. محلول البُوْرَق. عصارة القرع. ندى القصب. الكزبرةُ مخلوطة مع حليب امرأة، ومثلُ الكزبرةِ الزعفرانُ. فُتَات الشاذَنج المسمى حَجرَ الدم. عصارة الفَيْجَن البستاني المخفَّفة بالأخلاط المُرطِّبة. مرق العدس المطبوخ بشحم الجمل. ندى زهرة الغَرَب. رماد القمر، وأنفاس الجن. نعم. وضعوا ريشة من ذيل طائر الغُدافِ - مؤنسِ البراكين الخامدة - في صحن من خزف أسلاف الروم البائدة. تركوا الصحن في خزانةٍ ذات نوافذ زجاج مغلقة لا مدخل للهواء إلى جوفها، وترقبوا - بتعاقب المتناوبين علَى سهر النهار وسهر الليل - أن تتحرك الريشة، أو تنقلب على جنب، فانقلبت الريشةُ بعلْم الكمال العالِم. امتصوا هواءَ جوف الخزانة بعيدان القصب، عبر الأفوَاه، وأفرغوه في حواصل أربعة من فراخ الدجاج، ثم علقوا الحواصل إلى طوقٍ قماشٍ أحاطت به أكيسا رأسها، فوق الخمار: كلما جفتْ حوصلةٌ انفجرتْ بما فيها من أنفاس الجن، فتفتح المرأةُ البزوغ عينيها على وسعهما، مستطلعةً، في الغمام الممسك بلجام الأشكال، شروقَ البصر، من جديد على وقائع خيالها المفقود.

العناصر اللامعدودة، التي تمازجت في أخلاط الأدوية، أهدت إلى أكيسا ذاكرةً لا تنقلب على الجسد الحيِّ في استحالته جماداً بآلة الموت: ذاكرةَ الإستدلال بالخلود على اللوعة كلانهايةٍ. وهو أمر لا يحوجه تفصيل، لا من العقل البسيط ولا من المتراكب. الجسد يشرق على أحواله في ألم طاهر. العنصرُ ألَمٌ في خاصيَّته؛ ألَمٌ جوهرٌ هو ما سَكَن المادةَ منذ نشوءِ التحصيل الدوريِّ للأهوية - نشوءِ الخوف. أكيسا تعاقبت على استدراج نَفْسها إلى خيال كل مادة اتَّخذتها دواءً: الألياف في النبات، والمعادن في الجمادات المطحونة، والكيموس في الدم. كانت

تنعقد وتلتفُّ على أعماقها كحَبلٍ، وتتجمد كصمغ الحجر، وتسيل كالمصْل: ثلاث خواصَّ هي ما تعرَّف بها الأزلُ الخالق على اللاَّمتقيِّد، اللاَّمُشَاكِل، اللاَّمُستَدل، اللاَّمتعينِّ، اللامنتهي، اللاموصوف، اللامُقارَب، اللاَّمنتَسب، اللاحصول، اللاعقل، فاستحدَثَ المتاهةَ، وزخرفَ مسالكَ التيه بصور السرِّ - صورِ العِقاب الأرضيِّ الواضح، والثواب السماوي المُبهَم.

طغى خريرُ جريان الماء في نهر نوه آف، قليلاً، على ثرثرات التدبير الملجوم في خيال أكيسا، الجالسة على بُعد رميةٍ من قلبها إلى قلب دلشاد - رميةِ الحريق الحجري. مسحت بكمِّها شفتيها المملَّحتين من نشوة انفلاق بزر اليقطين بينهما. نهضت مستنشقةً هبوبَ الهواء عليها من بستان الطبائع المتناظرة. خلعت خفَّيها الجلديين الأخضرين، ومشت إلى سياج القصب الطري، النابت جدالاً أخضرَ في عقل الضفة. تبللت قدماها بللاً معدنياً باردَ الجوهر، تاركتين في الطين خَتْمَي أثريهما. تنهَّد دمها. انزلقت أكثر، بجسدها، عن حافة سرير الهواء الوثير إلى رخام الماء الصلب. انغمرت سُرَّتها - موقعُ التأويل المجسَّمُ في لوح الله. "الماء الذي يلمسني منك، الآن، هو من منبع غُولا جَارْسِدْ أيها النهر"، تمتمت أكيسا.

سبعة عشر ينبوعاً هي الجوارح الأسس في هيكل نهر نوهْ آف. ثمانية من أسافل هضاب مَرْعش، وتسعة من منحدرات أمانوس، تختفي تحت قشرة الأرض تسعين فرسخاً قبل انبجاسها في نواحي كلاس. واحد منها يقع في آخر الصف المستقيم من شجيرات الورد الأصفر، المنحدرة من بوابة دير الكلدان المهجور. أربعمائة شجيرة. سُمِّي النبعُ باسم الشجيرة الأخيرة منها. الحجر الذي تظلله حَجرٌ أصفرُ - لونُ خزانة الريح، بحسب "مِلَّة البابونج"، أو لون صَدَفة الهواء في نضوج لؤلؤته، قبل الظهيرة التي شهدت مولد الفردوس، في سياق اليومِ التمهيدِ، الذي ارتجله الله لصناعة الزمن الموثَّق بالخوف من الزمنيِّ.

"غولا جارسِدْ" ـ الوردة الأربعمائة. أكيسا خاطبت الماءَ القادمَ من النبع هناك: إنه خفيف، يتفرَّق قَطْرُهُ عن الجسد كأنما يلامس الزيتَ. خِرءُ الضفادع فيه كثيف أكثر من غيره، يتسلسل جارياً كسُبَّحة من نوى الزيتون ينتظمه خيطُ زبدٌ. أما عبوره في دغل الشِّيْح ـ نباتِ الأنفاس، وخروجه، من ثمَّ، إلى سهل اللاّذَن، قبل اتصاله بأشقائه الينابيع، فهو ما ورَّثه طبعَ الإصغاء إلى عبور الخفيِّين من حَمَلة الجسور المائية إلى البرازخ: في كل موضع يخفت فيه جريانه، على الناس أن تسكت هيبةً.

كل نبع غمس فرشاته في لون من ألوان الحقائق: أُعيد تلوينُ أكيسا صورةً في الكثيب المسحور ـ كثيبِ الوجود الزاحف من خزانة العِلَل النفيسة إلى خزانة المُطلَق المقيَّد بالمهجور المسكون. جمع الماءُ بذورَ خياله، من بساتين الثلوج في طوروس إلى بساتين المغيب عند السفوح الجنوبية للأناضول، ونثرها على خيال أكيسا.

تنفَّست أكيسا.

تنفس عقلُ البرهة، التي اختارها الله من ماءٍ ليتدبَّر انقلابَه الناطقَ على الأزليِّ العتيقِ الأخرس.

خاضت أكيسا، أعمقَ، في مجرى النهر. بلغ الزبدُ المدغدغُ عنقَها، فاتضحت السطورُ الشفيفةُ على لوح المجهول المعترف بتقصيره عن خدمة المعلومِ ـ أبيهِ المتكتِّم على خصائص الغيب.

غاصت أكيسا أكثر. لمس الماءُ شفتَها السفلى بسطحه. نطق البياض المستور ـ البياضُ الذي انحدر منه ماء النهر. علومُ الثلوج، المجتهدةِ في حفظ محاورات الأعالي، انبسطت روائحَ تحت أنف المرأة البزوغ: روائح ظلالٍ، وكهوفٍ، ورياحٍ، وأَشكال منقسمة على نَفْسها في اتخاذ القرار بالانتساب إلى الأَشكالَ. روائح بياضٍ ناطقٍ أفشى للحدائق المفقودة بأسماء الأنهار في حدائق الله، حيثَ العدمُ؟المنشرحُ متراخٍ في زحافته التي يجرُّها كلبُهُ الوجود.

من ثلوج الربيع الذائبة نسج نوهْ آف خماراً لأكيسا فوق خمارها. أوصد عليها خزانتَه - حين نزلت درجةَ جسدها الأخيرةَ إليه - وأغلق القفلَ بمفتاح الكمال.

ترقرقت دموعٌ في عينيِّ الماء. بضع فقاعات شقت طريقَها إلى السطح بنشيدها الخافت، وطفت على الرقراق المتماوج حفنةٌ من بزر اليقطين تراخثْ عنها يدُ أكيسا.

الفرسخ الخامس

(دَهَاءُ العِظام)

كان سهلاً على دلشاد اعتصارُ الخمائر الأولى من "المُخْتَصَر في حساب المجهول" في قَدَح ترجمته: لغة سريانية من ظلال شجر التين تتطابق بآثارها على آثار لغة كردية من ظلال شجر العنب. هكذا بدا الأمر في مطالع الحقائق الموثَّقة بالأرقام ـ سيِّدةِ المقادير الناقصة في طهوِ الكمال بتوابل المُطْلق المتوافرة، طريةً أو مجفَّفةً مطحونة، عند عطاريْ بلدة كلاس. لكل شيء، عند جرجيس لوقا سالوحي ـ منشىءِ الكتاب الماثل بين يَديْ عقل دلشادَ ـ وزنٌ، وبُعْدٌ، ومقدار، وعمرٌ يقاس بالتقويم المنسوج بخيوط شمسية، وألوان قمرية، وفْقَ خططِ اعتمادِ الدهر، القابل للقسمة على ألفيّات البداية والنهاية، عند البابا غريغوريوس الثالث عشر: السماء السابعة هي خمسة أضعاف الرقم الذي يخطر بالبال، أوَّلَ وهلةٍ، مضروبة في عدد أيام حياة أيِّ قديس مات من العطش. وزن جبل التاي تسع أُقَقٍ من حديد المسامير في سفينة نوح. طول قابيل ثماني أذرع وفِتْران. عمرُ حمارِ يسوع ست عشرة سنة. خطوة ملاك الموت أربعة من أبراج بابل طولاً. وزن القمر وزنُ محيطٍ واحد من مياه الأرض وسبعة خلجان بعمق فرسخين. قهقهة آدم هي البعد ذاته بين كريت وصيدون. ضرس من أضراس حوتِ يونان له الوزن ذاته الذي لبغل معصرة الزيتون في دير قنُّوبين من أرض لبنان. وزن كل لوح من ألواح موسى مايعدِلُه من سائل، نبيذاً أو ماءاً، ملءَ إبريق سقراط، إلا اللوح التاسع، فهو أنقص بمقدار نصف قدح، قُطر فوَّهته إصبع، وقطر قاعدته ثلث إصبع، وارتفاعه إصبع. بلغ عمق

الطين، بعد الطوفان، ثلاثة آلاف ذراع إلاّ فِتْراً واحداً. عمرُ إبليس، من مبتدَأِ خلْقه حتى عصيانه، أربع سنوات من تقدير الله للسنين في نشأة الملائك الصُّنَّاع المُمهِّديْن لتأثيث الفردوس، والملائك العمَّال المدبِّرين لأسباب عودة الفردوس مفقوداً. إبليس هو الأول الذي اتخذ الوشمَ زينةً على ظاهر يده اليسرى: تعمَّد رَسْمَ الله على شكل حرف من حروفٍ ينتقل خاطرُها، بعد ولادة الأرض من زبد العصيان الإنسي، إلى حبر أُمَّة الأحباش ـ السودان. أول حبرٍ جرى به تدوين لفظة "العقل" كان مزيجاً من بول الكركدن نُقِعَ فيه الزَّاجُ وفلزُّ النحاس وزهر الخربق الأسود، ثلاثة مثاقيل لكل منها بلا زيادة أو نقصان. طول شجرة المعرفة ـ الخطيئة ستة أشبار من يد آدم، وسبعة من يد حواء، التي اتخذت ورقةَ قيْقَب لستر عورتها، وليس ورقة توت؛ تزن الورقة حبةَ كستناء واحدة من شجر دير "الآباء الخيَّاطين"، في مكان بلاتحديد. أربع طُرق تنبثق من مركز الأرض، متصلة بأربعة سُحب، تنقل الأرواح عليها أمتعةَ الحياة الثانية. كل طريق عرضُه عرضُ مابين ذراعيِّ الخنفساء. في عِرْق الشيطان، بين كمرةِ غُرموله وأُنثييه، تسعُ شعرات لها طولُ ما لعثنون التيس. باضت دجاجة، يوم موت إقليدس، بيضة تزن حبَّتي عنب من كروم أنطاكية عليها رسمُ الميزان بلون أحمر. مدة صياح الديك، في الفردوس، كنُقلة الشمس، في الخريف، من الظُّهر إلى المغيب. كَمُّ فُساءِ الغراب يَعْدل نفخةً من فم الضبِّ إذا انذعر. امتهن الإنسان عادةَ النوم في السنة الرابعة من نفيه إلى الأرض. طول جناح واحد من أجنحة ملاك النسيان كالبعد بين بحر الخرز ومضيق مالطة؛ وفي الجناح ريش بعدد نجوم الفَلَك الأوسط وكواكبه، وعلى كل ريشة اسمٌ، بحروف أهل عمورة، سقط نصفُه.

كان سهلاً على دلشاد حَصْرُ الخزائن، غير المغلقة، في السرداب المُمَهَّد بقناديل العلوم المسكونة، قبل عبوره إلى البهو المهجور لـ "المختصر في حساب المجهول". عَرَتْه الريبة في اقتدار لغته الكردية على

إنضاج الرغيف السرياني في تنورها. جمع نَفْسه مقاديرَ متعادلة في الإنبيق المطهِّر خيالَ المعاني. جمع الوقود من حطبٍ متكافىء الصبر ليدفىء يديه من جليد السطور، لكن البرد أَفشل حصارَه المزمَع على حصن الألغاز في البيان الشاحب للسيد جرجيس سالوحي، فتقهقر. أعاد جَمْع شتات الألفاظ المتهادنة إذا دعاها داعي المقارنة والمطابقة، واستنفر عزائمَ الصور المشهود لها بالتطبُّع بطباع المؤانَسة والموافَقة، حتى استقرَّ له أن يجزِّىءَ المكنونَ الملتبس عليه ويُفَلِّيَ الألوان في الشعاع قبل انصهارها جِرْماً: حصر الموقفَ في معراج النَّقل السليم الجانب، مبتدئاً بمجاري القصص، على أن يؤجل ترجمة المداخلات في أسبابِ المنطق، والمناظرات في مراتب الكلام. دار دورةً في البستان الجامع للمختلِف والمؤتلف، والبرازخ المنظورة والمستورة. وقف عند حكاية قِرَدَةٍ، أول الأمر، لكنه لم يجدها مدخلاً يليق باستدراج مجلس مهران إيفاردر إلى هيبة الكشوف المترعرعة كالفراخ في مزرعةِ جرجيس ـ مزرعةِ الوميض الذهبيِّ الصادر عن أسنان الإشارات إذا ابتسمت، وصواعق الزلزلة طاحنةً في عقل الإشارات إذا اغتمَّت واكفهرَّت. "سأبدأ بالملائكة"، قال دلشاد لخياله.

أكيسا، نفسُها، اقترحت على دلشاد، حين فاتحها باقتراب نهاية الترجمة، شيئاً من قصص الملائكة، قبل عدولها عن ذلك إلى علوم في خصائص الكحلِ ـ زينةِ النظر إلى المرئيِّ بشهوة وجوده مرئياً. قالت له: "لنَقُلْ، ياالذي أنا قربانك منذ لم أوجد حتى يوم صراخي ـ والخَدَمُ النورانيون يجرونني جرّاً إلى الجنة ـ أنني لن أدخل إلاَّ معك؛ لنَقُلْ: جلس ملاكُ المجاعة أمام ملاك الحقول، وملاك الذهب أمام ملاك النحاس، وملاك الماء أمام ملاك الحجر، وملاك البرغل أما ملاك الأرزِّ، وملاك السحاب أمام ملاك الغبار، وملاك اللحم أمام ملاك القش، و..."، فقاطعها الشاب الصاعد سلالَم الترجمة مستنكراً: "من أين جئت بكل هؤلاء الملائكة ياأنفاس النِّعمة؟".

"لم آت بهم. أعدُّ منهم ما أستطيع عدَّه، فحسب"، قالت المرأةُ البزوغ.

قرَّب دلشاد وجهها إليه. قسَّم الحقائقَ تسعَ شهوات، بمدية لسانه، على شفتها العليا، قبل نزوله إلى السفلى. عضَّها، فتأوَّهت. "مادام لكِ فمٌ تذكرينهم به، فهم ـ قطْعاً ـ موجودون ياأكيسا"، تمتم دلشاد منتفخَ الرئتين من بلاغة الهواء المُنتشر من حظِّ الأنثى على حظِّ الذَّكر فيه.

"وجلس ملاكُ.."، استمرت أكيسا في إحصاء المتوازيات النورانية، فقاطعها دلشاد ثانيةً:

ـ ماذا سيفعل أحدهم بالآخر؟ هم جالسون متقابليْنَ. ثم ماذا؟.

"سنفكر، لاحقاً، بما سيفعلونه، يادلشاد"، قالت المرأةُ البزوغ.

"ملائكة.. ملائكة"، تمتم الشاب، فانتزعت منه أكيسا الكلمةَ: "ملائكة. نعم. قصصهم لها هيبة، يادلشاد"، فهز دلشاد رأسه متبرِّماً:

ـ أول قصة حملتُ ترجمتَها إلى مهران إيفاردر كانت صاخبةً بالملائكة، ياأكيسا.

مقلِقةً كانت تلك الاستفاضة، التي ازدادت غموضاً كلما اتسع إنشاؤها، في "المختصَر.."، عن أعيانٍ أشبه برُسُلٍ مُهْمَليْنَ، يتبادلون الرسائل المغلقة بشمع العسل ممزوجاً بشحم البط. شبح جرجيس لوقا سالوحي وهبَ مترجمَ كتابه ثغرات يتسنى لخياله أن يملأه بوَصْلٍ، وإضافة، لا يخلاَّن بالسياق، بل يبعثان في شخصه انشراحَه بالشراكة في التأليف، على أن يجد مخرجاً للألغاز المنظومة نَظْمَ أناشيد سَدَنة العلوم المتكتِّمة على خزائنها. فرسائل الأعيان، تلك، التي اختارها دلشاد لتأسيس رجائه بإمتاع مجلس مهران، كانت متقطعةً في مخاطباتها، بلا تحديد واضح في أَخبارها عن "أولئك المنتظِريْنَ في المكان الشاغر تفويضاً بتدبير خصائص لأنفسهم وفق ما سيوكَّلون به".

كانوا يتحدثون عن كائنات بلاخصائص، سيكون في وسعها تصويبَ نظام ماهيَّاتها حين يأتيها أمرُ التوكيل بمهمة. كائناتٌ نقوشٌ مُحتَملةٌ في الجسم الصلب للهيولى الأزلية، لم ينجزها الإزميل الأزلي. لكنها هناك، في برزخ العِلْم الذي يلي حجابَ الأحوال، تتحرك، وتتخاطب، متبرِّمة من تباطؤ الله في حسم التقدير: مهماتٌ مؤجَّلة تترتب عليها خصائص مؤجَّلة. وفي سياق انتظار هذه الكائنات ـ بحسب رسائل الأعيان المتبادَلة ـ انتقالَ مفاتيح الضرورة من يد المُعضِلة اللازمنية إلى يد المُعضلة الزمنية، تبقى جالسةً، أحدهم بإزاء الآخر، على جبهتَيْ موائد من لونٍ صلب كألواح الجماد، وهي تتبارى للفوز بلعب الشطرنج، مستحدثةً ثرثراتٍ عن نشوئها عبر سِيَرٍ متداخلة مموَّهة، مبتورة، توحي بشيءٍ وبنقيضه.

دلشاد قلَّب كلمات الأعيان، الشبيهة بكلمات رُسُل مُهْمَلين، على وجوهِ قَدْرَ خياله في استنطاق الحدود المختلفة، والمتضادة، والمتنافرة. همس لنفْسِه من خندق الفوز: "هؤلاء يتبادلون الألغاز عن ملائكة. الكائنات المسترسلة في لعب الشطرنج، ريثما يأتيها التوكيل، هي ملائكة". لم يتمعَّن كثيراً في معدن كنزه الذي فتح عنه خزانةَ العقل العابر الممسك بالمصادفات من تلابيبها. تغاضى، عن قصدٍ، في شأن الإتيان بقرائن، أو توليد مطابَقاتٍ تستأنس بها الصُّور بأشباهها، خوفَ أن يتعثر تجلِّي خاطره عليه بحجر الشكّ. دوَّن سطرَ الإشارة المُلْغِزَ، في لغة جرجيس، بحبر الجلاء واضحاً في لغة الكُرد: "أولئك ـ الملائكة ـ المنتظرون، في المكان الشاغر، تفويضاً بتدبير خصائص لأنفسهم وفْقَ ما سيوكَّلون به". هكذا قدَّم الورقتين إلى الأمير ذي اللقب الأزرق. وقد أثار السطر في المجلس مجرَّةً من جمرِ لفافات التبغ، متبوعة بالجدال المطهوِّ على نار اللسان البسيط: "ملائكة بلامهمات؟!"، غمغم أحد الجلساء، فردَّ آخر متحصِّناً باستدلاله في إشراق المحيِّرات: "ولماذا لا؟ مَنْ خلقَ ملائكة بمهمات يخلق ملائكة بلامهمات، أيضاً".

تنفَّس ملاكٌ عابر فتمايلت أعرافُ النار الصغيرة في المصابيح.

نزل الليلُ درجةً إلى مجلس مهران. نطق شخص ثالث:

ـ ليس في علوم ديننا خبرٌ من هذا، ولم نسمع ذلك من فقيه أو وليٍّ.

"ها نسمع بذلك، الآن، من سطور السيد.."، قال شخص رابع قوطِعَ: "من سطور جرجيس سالوحي، أو غيره"، استرسل الرابعُ، فتدخل خامسٌ:

ـ فلنقُلْ إن الله خلق ملائكة بلامهمات. فلنقُلْ ذلك افتراضاً. ومالذي تفعله هذه الملائكة؟

"تلعب الشطرنج، وتتحدث عن سِيَرِها"، رد الأمير ذو اللقب الأزرق.

"هذه مهمَّاتُها، إذاً. ألاترون؟"، قال متكلِّم جديد.

"هراء"، رد مهران؛ "تنقلون العبثَ إلى مرتبة المهمة الجليلة".

"الشطرنج لعبة الملوك"، قال المتكلم الجديد، فانبرى متكلِّم مثله: "هذا السالوحي يستدرجكم، ياخلائق الله، إلى الخوض في ما لاتعلمون". تقاطعت الأصوات، وتزاحمت الأخيلة على النبع الخفي.

في الليلة الثانية حمل دلشاد إلى الأمير نُقْلَةً منقطعةً عن حدائق السماء. تعلَّل أن حكاية من نسق آخر تحفظ للعقل كرامةَ الإصغاء إلى الطريف بلاهياجٍ يستنفر الجدل. أبعد الأمير الورقتين عن عينيه، ثم قرَّبهما. استعرضَ على قلبه طبائعَ المعنى البهلول: "هذه قفزة لا أظن أن جرجيس يريدنا تصديقَ مقدارها، يادلشاد"، وتفرَّس في الشاب الصاعد سلالَمَ الترجمة. "أين هي ملائكة البارحة؟".

"خفتُ ضياعَ المسامرة الأنيسة في زوبعة الجدال، ياجناب

مهران"، رد دلشاد. فهز الأمير ذو اللقب الأزرق رأسه استخفافاً: "ماجئتني به، الليلة، لن ينقذ المجلس، على أية حال، من تبعات استنطاقِ سالوحي الصامت باستنطاق الجليس، هنا، للجليس. أين رميتَ خرزةَ العقد السرياني يامحفوظ الشأن؟"، وعاد يحرث الورقتين بمحراث الرَّاوية المتمهِّل.

كان دلشاد قد تخيَّر لليلة الأمير أجاصةَ اللغز المدرَّب من بستان جرجيس: قِرَدَةٌ تدخل البهو، وتتخذ مجلسها المعتاد، في مكان مَّا من أنحاء الأقاليم المفقودة. تفتح كتباً مغلقة بأشرطة من جلد أو عصب. يحضر شخص آدمي يجلس، بدوره، في مواجهة الأرائك التي تشرف منها القردة على فِنَاء عقله المسوَّر بشجيرات العلوم القَدَرية السبع والسبعين. "علينا أن نتحدث الآن"، تقول له القِرَدة، فيجيبها: "ليس علينا، كآدميين، أن نقول شيئاً"، فتنظر القِرَدةُ بعضها إلى بعض مستبشرةً هبوبَ المنطق على خيال المخاطَبات: "هذه، أبداً، هي البداية".

خمساً وثلاثين ليلة يتواصل جدالُ القِرَدة مع الآدمي: الحقائق الكبرى، والصغرى. الأباطيل الكبرى والصغرى، التوريات المقتبَسة عن لسان الخفيِّ والجليِّ. العلوم المتحرِّرة والمستَعْبَدة. برازخ الظاهر الثمانية، وبرازخ الباطن السبعة. تُحَفُ المجاهَرات وتُحَف المسارات. النداءُ ومراتبُ الآلات المأمورة بالنداء. حُكْمُ الأقفال، وحُكْم المفاتيح، والمفاضلة بينها على أربعين وجهاً. تسفيه المجابهات بين الضروريِّ والنافل. التحقُّق من السَّكينة على أنها عِلْمٌ يُسْتَحْصَل، أمْ وهْبٌ مُوْحَىً. ماالصورة؟ ماالخدعة؟ ماالغياب؟ تكريم الليل بوصفه منطقاً، وتكريم النهار بوصفه شُبْهة يُراد بها تمكين النُّور من الإعتراف بوسواسه الأزليِّ. مداخل المفقودات ومخارجها. الشجرة كَلَوعة. النسيان كإغواء. الظلُّ عقلاً. بلاء الفردوس وعافيةُ النار. الأمثال على أنها نكوص المعنى عن وعده. الإقامة في المُشْكل لإخماد التمرد الذي يتكلَّفُه الوجود بالثرثرة، ويموِّله العَدمُ

باللسان. إختصاص الحقِّ بالخدعة، وانقلاباته بلاتمهيد. كلام الإنسان يستعيره الله معافىً بحرية اللفظ فيه، ويعيده إليه مقدَّساً منكوباً ببيان الخوف. العِلْمُ حاصلاً من شقاء الطبيعة مُذْ تعرَّفتْ إلى القانون. أحوال البيذق السبعة الآلاف في الشطرنج. المهارة عفاف الإثم. إِقراضُ الهرطقة آلةَ الترويض الموثوقةَ، المُنْتَزَعَةَ من بين غنائم الكمال. لزوم الأخذ ببرهان الندم على أنه تعريفٌ بما يُراد وبما لايُراد، إلى لانهاية. الحُمَّى مَذَاقاً من مذاقات الشكل. الأزليُّ كسَطوٍ، والأبديُّ كتعهُّد بإهمال الموازين. الزائل، وحده، يعيد الصوابَ إلى الغيب المغشيِّ عليه. مايكون حساباً بالرقم وحساباً من دونه. ماالغريب؟ أَحَضْرٌ هو للخصائص أم إسراف في خلْط المألوف بالمألوف؟. علَّة الأَحكام أنها مأمورة بتأكيد العِلَل ورعايتها. فِعْلُ ما لا فعلَ له. تبويب الشكِّ على حروف اليقين. الندم على كل آتٍ وفق مُراد الخصائص. البحر كتبعة من تبعات اليابسة. نقاءُ مايقترن بالشرِّ، كونُه منسوباً إلى الفَرَض. الإيمان كسِجالِ صوتٍ. غيرة الرِّضى من نفسه، ومن كل شيء آخر. الكتابُ توطئةُ الفضيحة. يُرَمَّم كلُّ خلاءٍ بوحشة من خلاءٍ مثله. البقاءُ هو صوغُ الجماد لفكرة الحيِّ عن حيرة الحيِّ. رسائل العبث تصل أوّلاً. لاتدبيرَ. لاتَـوَافُقَ. لامطابقةَ. لاتكليف. لانقل. المعلوم يتقوَّض في شقاء انقلابه معلوماً آخر. ترفيه المجهول بمكاتَباتٍ، على رِقٍّ أو ورق، يتبادلها المحظوظون. الأصل تخمين. البَدءُ لاشيء؛ النهايةُ كل شيء. خُمس المعنى هو إضافةُ المقصود إلى ضده.

خمساً وثلاثين ليلة يتواصل استعراض المهارات الصاخبة كانفلاق قِشْر البندق. القرود والأدميُّ يتبادلون الوسائد كلما تعبوا في جلوسهم الطويل على الأرائك. القرود تنظر في كتبها المفتوحة، والآدميُّ ينظر إلى الخطوط في راحة يده اليسرى: استعراضٌ بلاخاتمة، في جدال بلاخاتمة، للمشهدَيْنِ ـ الحقيقةِ، والدَّنَسِ الذي يدرِّب الحقيقةَ على المكر. القرود تعترف للآدميِّ بأشياء لايذكرها جرجيس صراحةً، بل بحروف

مُفردة من اللفظ الحبشي، والآدميُّ يعترف للقِرَدة بأشياء رموزُها رسومٌ على أشكال عَتَلاتٍ، وعظام، وورقِ قيْقَبٍ، وريش، وأنصاف دوائر. بعد ذا تنهض القرود خارجةً وهي تردد: "سنعود لنخاطبك"، فيجيبها جليسُها المتأهب للخروج بدوره: "ليس علينا كآدميين أن نقول شيئاً".

مهران، الأمير ذو اللقب الأزرق، ذكر شيئاً لأكيسا عن القرود، يوم أعطاها كيساً صغيراً ظنَّتْه طحيناً، لكن فكرتها تلاشت حين خاطبها بلسان الكَيد: "اخلطي هذا بتبغ زوجك"، قال. كان ذاك بعد أيام قليلة من اعترافها باقتحام دينان لحصن الترجمة، بتورياته المسكوكة على صورة "عقل المعادن". لم تكن الشذرة، التي انقذفت من فم الأمير إلى المرأة البزوغ، المنقولة عن أحوال القرود، تشبه شيئاً مما ورد في سطور جرجيس. كلَّمها أن أناساً لديهم حساسية من الخيل إذا لامسوها انقلبت أظفارهم جاسيةً كغضروف الحافر. وأن البعض يتوهم نموَّ وَبَر على لسانه إنْ أكل الخوخ. ويصير جلدُ الرِّكاب، والمرافق، عند أناس قشراً حجرياً إن هبت عليهم ريح من صحراء قَرَه قُوْم. وأن القرود إذا اغتلمَتْ، ولم تجد إناثاً، تناكحت الذُّكْران. "القرد، والحمار، والديك، والورشان، يسفد الذَّكر منها الذَّكر. وفي الإنسان، منذ امتلك سيادةَ الطبائع، أنفاسٌ من الحيوانات الأربعة في قصبة حقيقته ياأكيسا"، قال الأمير، متحوِّطاً للسانه بألفاظ الحياء قَدْر الإمكان. غير أنه لم يمض في كلامه إلى تدبير مقارنة بين مِثال القرد، الذي ساقه بلاحبكة، وبين زوجها. وضع كيس الدقيق الصغيرَ في راحة المرأة البزوغ، مردداً: "ضعي له في كل علبة تبغ مقدارَ ماتمسكه سبابتك وإبهامك، لاأكثر. اغسلي يدك بعد ذلك، وابتعدي عنه خمسة أشبار حين يدخِّن"، وتمتم: "سأبعثر في محجريْهِ الأشكالَ".

كانت الريح، التي انفلقت عنها صَدَفةُ المغاليق المرصودة، تنفث الهذيانَ في عقل الشجرات التسع المحيط بساحة بيت أكيسا، ذلك الصباح الذي مزجت فيه بعضَ الدقيق بتبغ زوجها. خرج دينان إلى

المرحاض فهرولت هي إلى علبته الذهبية، المرقونة برسْم الشعاعات الثلاثين لشمس الأحوال الأليفة. ذرَّتْ بالسبابة والإبهام نُسَافةً زرقاء على التبغ الأشقر المفروم رقيقاً بسكاكين أهل سيواس الرهيفة، ثم غمست أصبعيها في بقية من قدح الشاي البارد ـ شاي الإفطار المعْتَصَر من نكهة الجبن الدَّسِم، ذي الحروف المنقَّطة بسمسم مقشور، ومسحتها بذيل ثوبها.

الخيالُ الممتزج من مثقال النشادر، والزرنيخ الأحمر المضاف إليه نُثار البُوْرَق كي يجلو رائحتَه النتنةَ، وزهر الخَرْبَق الأسود؛. خيالُ الثلاثةِ العناصرِ ألهمَ دخانَ تبغ دينان أن ينعقد دوائرَ في صعوده، بعد النفخ، إلى أهدابه التي يستقر عليها ندىً معدنيٌّ. أربعة أشهر سيصعد الدخان ذاك، على النحو ذاته، بالندى اللامرئيِّ الذي يرسب منه على أهداب مروِّض المسكوكات. بطيئاً سينحدر الندى المعدنيُّ من الأهداب إلى الأجفان، وبطيئاً أكثر ـ بحكمة المثاقيل المحسوبة بميزان الكيد العاقل ـ سينفذ الندى إلى عروق عينيه الدقيقة من جهتَيْ مؤْقيْهِ. بعد أربعة أشهر، تحديداً، سيتسرب الجفاف المصحوب بحرقة وحكَّة إلى القِرنيتين. ستضيق القِرنيتان على الحدقتين. ستتولد الإنقطاعات فواصلَ متساويةٍ في شعاعات النُّور المرتدَّة على الشبكية. ستنزلق الألوان عن مدارجها المتراصفة في الحُزمة الواحدة، وتتخلخل، وتتزاحم في فوضى على استقراء مراتب الأجسام. ستستأثر هندسةُ الكمال المتقوِّض لنفسها بإعادة الأشكال إلى الطاعة للأنساق البَدئية: المستطيل، والمربع، والمثلث، والدائرة. لازوائدَ؛ أنساقٌ محسوبة بطبائع المقاييس المطيعة.

سينحدر بصرُ دينان إلى الفوضى، ويعمُّ الهرج في أروقة خياله.

كان يومَ ريح أيضاً، من الخريف ذاته، حين دسَّ دينان في مكحلة أكيسا زرنيخاً رمادياً، مخفَّفاً إلى أدنى مرتبة من خصائص السم فيه، إذْ مُوزجَ بعصارة الكرفس والقرنفل الدافعة للحرقة، والمرطِّبة للجفاف

المهيِّج القابض، الذي هو خصِّيصةٌ في الزرنيخ ـ المعدنِ الضاحك. رُجَّ البيت، أو هكذا توهمت أكيسا وهي تلف وشاَحاً من نَسْج أنوال شجر البندق في كيليكيا، طوله أربعة أمتار، حول خصرها المتلىء. تطاير ورق الشجرات في الحديقة، ثم اجتمع كوْماً. ملائكة الخريف، المتشدد في مواثيقه، رفعت الورقَ، من جديد، إلى؟آذانها تصغي إليه: كل ورقة إصغاءٌ من الأرض ذاتها، في شهور، إلى قلم السماء يُسطِّر مجازات اللوعة من أفواه أنبياء النبات. تبادلت الحقائقُ عقولَ المُمْكن السبعة عشر عقلاً بعقل، وأهدت الأخيرَ، الذي لاينقسم، إلى الريح. أغلقت الريحُ عليه قارورةَ خَلِّها وأقسمت أن تكون عِلْماً بالخيال الذي ليس لسواها. دارت حول بيت أكيسا فانسرب عزيفُها من السقف إلى قلب المرأة البزوغ، التي سيخلخل الزرنيخ توازنات الجُسَيم اللونيِّ في مساقط بصرها؛ ثم سيعمِّم الشُّبهةَ على كل شكل يُرى، صُلباً أو غماماً؛ ثم سيفرم بمدية خصائصه عضلةَ الشِّفافة والكثافة الملتفَّتين في نسيج واحد؛ ثم سيغزل المرئيَّ خيطاً خشناً في مرآة اللامرئي.

سينحدر بصر أكيسا إلى الفوضى، ويعمُّ تمرُّد النُّور على النُّور.

جلساء مهران، الذين ابتسموا طويلاً وهو يروي، من الغَسَق المُحيِّر خلف قباب الحكمة، جدالَ القرود في استنطاقها الآدميَّ بدهاءِ المتكلمين، التفتوا إلى دلشاد يستعطفونه بمراتب أَفهامهم: "أليس لدى جرجيس هذا قصص ملائكة ذات مَهمَّات؟"، ساءلوه، فردَّ الشاب:

ـ عنده، بالتأكيد.

"هات شيئاً منها"، قالوا متوسلين الطرائفَ، والمعاني المَقشَّرة بأنامل الحكمة الإلهية.

"ستأتي في سياقها"، ردَّ دلشاد.

"إقطع السياقَ من حيث تشاء. لن يشكوك السالوحي، هذا، إلى

السلطان"، قالوا محرِّضينَ، فردَّ دلشاد: "هذا تنكيل بكتاب جرجيس".

"نكِّلْ به"، قالوا.

قلَّب دلشاد عينيه في حقول أرواحهم مستاءاً، ثم ثبَّتهما على مهران، الذي ابتسم رافعاً كتفيه كأنه لن يكون حَكَماً. عادت الأسئلة: "مامعنى الترجمة؟"، قالوا جادِّين، فتعثرت رموز التفسير قليلاً في صعودها من عقل دلشاد إلى لسانه. "معناها.."، تمتم، ثم تخيَّر من زخارف الحقائق الصغيرة ماظنَّها تستوفي رَسْمَ شرحٍ نافر: "معنى الترجمة أن أنقل مرامي لغة إلى لغة أخرى"، وتنفَّس راضياً، فعادوا إلى تطويقه: "أيبقى شخص ما هو نفسه إذا نقلتَهُ من لغة إلى لغة أخرى؟"، ساءلوه، فاستغرب.

- لم أفهم.

"لنفترض أنك نقلت جنابَ الأمير إلى اللغة التركية، أيبقى كردياً؟"، قالوا، فأبدى تبرُّماً: "ماذا تظنونَه يصير؟".

"يصير تركياً"، قالوا بلا تردُّد.

تعثر عقلُ دلشاد ثانيةً من خفَّتهم. نظر إلى الأمير: "لاينتقل شخص، إذا تُرجِمَتْ أفعاله، وحركاته، وأحاديثه، من لغة إلى أخرى. يبقى في واقعه كما هو، فيما تُستبْدَل لغتُه، لاغير"، قال، فأبدوا من وجوههم علامةَ الفهم المتردِّد: "إذا صار الأمير يتكلم بالتركية، ويجلس بالتركية، ويقوم بالتركية، ويقرأ لنا، كل ليلة بالتركية، فكيف يبقى كردياً؟". تبرَّم دلشاد من جديد. قال: "ننقل كلام الرُّسل الأنبياء إلى الكردية، فهل يصيرون أكراداً؟".

"بالتأكيد"، قالوا، مسترسلينَ: "نقتنع بهم لأنهم ينتقلون من الإقامة بين عِرْقهم إلى الإقامة بين عِرْقنا"، وتبادلوا نظرات الرضا في تصريف البراهين الأثيرية.

ضحك الشاب الصاعد سلالم الترجمة: "صار جرجيس كردياً، أيضاً"، فاكّدوا مبتسمين: "هو كذلك، وحقُّنا عليه، مذ صار كردياً، أن نستغني عن ملائكته التي بلامهمات".

"ملائكته كردية بدورها، بمهمات أو من دون مهمات". قال دلشاد.

"هاتِ التي بمهمات، أيها الشاب. الكرد لايعرفون إلاَّ المَهمَّات"، قالوا.

"إن أردتم ملائكة، فسآتيكم بتلك التي من غير مهمات. لن أخدعَ سالوحي"، قال دلشاد بصوت الحزم الرقيق.

تأمَّله الجلساء. حدَّقوا إلى مكاييل صوته المرصوفة بحسب الكثافات، فمالوا إلى المساومة: "كما تشاء، لكن كُنْ منصفاً"، قالوا، فرد دلشاد: "لاتزاحموني على جرجيس. ملائكته بلامهمات".

خَفَتَ صوتُ المساومة. تعلَّل الجلساء برغباتهم الصامتة في الاستزادة من عوالم المستورات: "هات ماتشاء. الكرد كلهم بلامهمات"، قالوا.

قدَّم مهران اقتراحَ المتلمِّس عَدْلَ المعدنِ في الميزان: "المَهَمَّةُ كَرامة، يادلشاد. المهمة ميثاق. فلنبدأْ بقليل منها، ثم.. ماتشاء".

"ليست المسألة ماأشاء أو مالاأشاء. إنه الكتاب ياجناب مهران. لكنني سأتواطأ معكم في الغدر بجرجيس"، قال دلشاد.

كانت كلمة "الغَدر" عذبة، لأول مرة في تاريخ الإصغاء الكردي إليها مسموعةً برنينها المؤرِّخ لنكبات الأَعراق ونكبات العشاق: لقد حرَّر غدْرُ دلشاد بجرجيس نصفَ السماء، التي ينبغي أن تحرثها الملائكةُ حَرْثاً بمشاغل الليل ومشاغل النهار: إعادة الغيوم إلى زرائبها في المواعيد الممنوحة باتفاق الأرض مع الريح. تزيين المعابر الذهبية الثمانية إلى

أسواق القِدَم بزهور دوّار الشمس. تطويق الأفلاك بأبراج من هيئة الفراغ الأول. تهوية مخازن البزور والأفاويهِ، التي سيحملها بستانيو النُور إلى حدائق الفردوس اللامكتَمَلة. جَمْعُ المحاصيلِ الناضجة في صيف العَدَم لإتلافها. تلقين المختاريْنَ، على جبهتَيِّ الشكِّ المطلقتينِ، توليدَ لغة البقاء الكليِّ من لغة الزوال الكليِّ. تحصين البرازخ الكبرى، والصغرى، بحُجُبِ حريرٍ عليها تصاوير الرَّصد اللامُستنسخَةُ. إرشاد العناصر الموكَّلة بإذكاء نار الجحيم إلى التحوُّط بخيالٍ يمنع استنفادَ مادتها. ترويض المعماريين بتحريض الشكل على القياس. استعارة أُمناء للمكتبات الخفية من حواضر الكمال المبعثرة، كي يرتبوا رفوفَ المياه، ويجعلوا عليها كُتُبَ المُلْغِز المغلَّفة بالصلصال. جَلْبُ رسّامي الخرائط الصغرى للعقل، والخرائط الكبرى للمتاهات الدفينة تحت أُسُس المتاهات. تعطيل العَجَلة الرملية للأقدار كلما غلا خوفُ المشيئة منها، وتوجَّسَتْ فيها العصيانَ. تصميم الظاهر مُختلاً، وتصميم الباطن معتلاً.

تحرَّر نصفُ السماء غَذْراً. رتَّب دلشاد من حصونها المتهالكة بواباتٍ في سطور الترجمة: "كل سماء ورقة من ورقات الله السبع، كتب عليها خيبتَهُ من مهمة ملاك". هكذا بدأتِ المختاراتُ المجتزأةُ من "المختصَر في حساب المجهول"، فارتعشت عضلةُ الهيبة في جسد العقل. تحسَّس الجلساءُ قواريرَ علومهم البسيطة: "أملائكةٌ تخذل الله؟ ماهذا"، قالوا، فاسترسل الأمير: "سبعة خذلوا مهماتهم فقوَّضوها. سبعة يعرفهم الإنسان بطبعِ الضجر فيه ـ طبعِ الشجرة الثالثة في مبتدأ الوجود".

"لانعرف إلاَّ إبليس، وهاروت وماروت"، قال الجلساء، في إحصاءٍ استقصتْ مراجِعَه كائناتُ الخيبة الأرضية، نسلاً شريداً بعد نسل شريد في متاهة المعنى. تمتم الأمير: "استنكِروا، أيها الأفاضل، قَدْرَ ماتريدون، في نزهات الغد. لكن لاتشاغبوا عليَّ. ماأقرؤه عليكم وضَعَه شخص من غير دينكم، وهو لايُلزِمكم بقبول ذلك. هل سمعتم جرجيس يصرخ مستاءاً من أنكم لاتقتنعون؟ لايهمه الأمر".

أقداح الشاي، التي ارتفعت بمَجامع علومها المُختَمِرة، كانت علامةَ الألسنة في تذوُّقها السكوتَ والسُكَّر معاً، ساخنينِ في الشراب ذي الطباع المُرَّة، المستساغة. وعلى أصوات الرَّشْف المتلاحق عادت الملائكةُ السبعة إلى حَرَم الأَسماع ـ ملائكةُ تسارروثْ، بريبة، في أمر مَنْشَئها. سوَّل لها البزوغُ المعتكر للإنسان جوازَ تدبير خيالٍ على نَسَق خياله. هي لم تعرف إلاَّ خاصيَّةَ المأمور تحت أبوَّة العِلْم الواحد ـ عِلْم الَّلاتتابعُ، بل الشمول المُنْجَزِ ثابتاً في تمام حقيقته التي لاَقَبْلٌ لها ولابَعْدٌ. السبعة الملائكُ تداولت سطورَ المُعايَنات في شؤون الوجود الجديد: "هذا الإنسان، منذ ابتكرتْهُ المشيئةُ، هو رحَّالةٌ من حالٍ في العِلْم إلى حال في العِلْم، ومن نقصان إلى آخر يتمِّم به جلال الغيب. أمر غير مفهوم. خيالُهُ يُعينه أن يكون لامفهوماً. خيالُه صناعةُ اتِّزانه المفقود. فلْنعمدْ قليلاً إلى التطبُّع بطباع الحظوظ المختلَّة كي ننشِىءَ لأنفسنا خيالاً. ولنبدأْ بالشَّغب على ما لانعرفه"، قالت السبعة الملائك. غير أنها، قبل الإقدام على شَغَبِها، تساءلت في أمر الخيال ذاته؛ في ماهيته. وارتأتْ، بعد جدال في الغايات لم يكن على قَدَرٍ من الإتِّساق، أن الخيال هو التحوُّطُ من مغالبات الضجرِ اللجوج ـ الضجرِ الذي أطلق سراحَ الوجود من كمين العِلْم العريق باللاوجود. وأن الخيال هو ترميم النهايات غير المتَّفق عليها بين العبث ووارثيه الخمسة: المُطلق، والمنطق، واليقين، والشرع، فالخلود. أمَّا بدايةُ شَغَبها على ما لاتعرف فكان ابتداعَ تقديرٍ مُشْكِلٍ: "لقد وُلِدْنا من كائن وليس من الكلمة الكُلِّية".

زلزلَ التقديرُ المُرْتَجل لعِلْم النشأة كيانَ الأرواح العابرة مجلس الأمير، فوق رؤوس الجلساء ـ الأرواحِ الأثمة في تخزين محاصيل الحقائق. تململ المتسامرون المصغون إلى التَرجمة: "ياجناب مهران، أليس في كتاب جرجيس مسائل أقل اضطراباً؟"، ساءلوه متلطِّفين في استخراج قلقهم، فرفع الأمير ذو اللقب الأزرق عينيه إليهم من تحت حاجبيه الهازلَيْنِ ـ حاجِبيِّ الشيخ المبشِّر بمعْضِلات الزمن الحسابية. طوى

ورقةً، ونَشَر أخرى بين يديه: "إليكم سطوراً لاتحوجُكم سباحةٌ في حِبرها. لن تبتلُّوا"، قال. لكن الجلساء غرقوا، أو كادوا، في أقداح البلور الضامرة من هيامها بالشاي - شرابِ البوح بمعْضلة السكون ومعضلة الحركة. "ضيَّع ملاكُ الأوزان عِيَاراً من أحماله، في عبوره أرض كولمرك المزدحمة بأرواح الجياد، مُؤتَلِفاً من نِسَبِ النحاس، والرصاص، وبلَّور حجرِ البُوْرَق الجبلي، وفلز الفضة الشائب، وصمغ القيقب المتصلب، وستة عشر مثقالاً آخر من معادن الغيهب الأصغر. عيارٌ دأب الملاك على قياس الفجر، والوحشة، به في الميزان، سقط من خزانة أحماله"، قال الأمير بلسان الرَّاوية المُستظْهِر شفاعة الترجمة للعقل، فاستظهرَ الجلساءُ علومَ القياس الصغيرة لاستقراء المعنى: "الفجر، والوحشة، في الميزان" قالوا لتأكيد أثقال الكلمات في كفَّتيِّ الحقائق الوليدة توَّاً. ملاكٌ ضَيَّع عياراً - هكذا توالت استحالةُ الترجمة من أقصوصة إلى تفريع للمُلْغِز. تدحرج العيارُ الصلبُ حتى استقرَّ لصقَ هيكلِ عظْم من منكّوبي الولاية الخامسة لأئمة الدراويش المحاربين. أخفى الهيكَلُ العَظمُ العيارَ حتى جاوره الملاكُ الحائر مُتَبلبلاً. ساءله إن كان تناهى إليه سقوطُ عيار في تلك الأنحاء: "أنتم الموتى تسمعون في أدنى الأرض زفيرَ أيِّ خليج في أقصى الأرض، وليس في مذهبكم بُعْدٌ أو مسافة. الكلُّ المحيطُ مجتمعٌ في الثغرة التي تنظرون منها إلى الخصائص"، قال، فجاوبه الهيكلُ العظمُ: "وماذا أنال إن أعنتُك في العثور على العيار المفقود؟"، فرد الملاكُ: "سألبيك في ماتشاء".

أحكمَ راويةُ الترجمة، الأمير ذو اللقب الأزرق، حصاره على الأسماء مذْ نطق الهيكلُ العظمُ بشهوات عُرْيه إلى لحم: "أريد لأعضائي مايكسوها، مجلوباً من أشخاص على عددها ماتوا الساعةَ، أيها الملاكُ، من غير أن تتعدى القرى، والدساكر، في أنحاء كولمرك". تبشبش ملاك الأوزان. عاجله الهيكلُ العظم بتوضيحه: "لاتعدْ إليَّ بلحم من شخص واحد مرتين". تفهَّم الملاك توضيحه: "هذا يسيرٌ"،

قال، وبسط نَفْسَه كالظل فتتبَّعَتْه الظلالُ مهرولةً.

ذهب الملاكُ وعاد على عدد أعضاء الهيكلِ العظم، يجلب له العضل، والعصب، والغضاريف، والعروق، والأغشية، والجلد، حتى كساه إلاَّ الصدر. حام الملاك على مغاسل الموتى، والقبور، فلم يعثر على شخص جديد، ميت، يقتطع منه مايكسو آخر أعضاء الهيكل العظم. عاد إليه معتذراً، يسأله أمداً من الوقت فأمهله الأخيرُ. في الفجر الثاني جاب الملاكُ أنحاءَ كولمرك، ثم رجع إلى الهيكل العظم فَرِحاً، فكسى صدرَه بثديين لأنثى: "لقد أنهيتُ ماأردتَ"، قال في رضىً. "أعطِني العيارَ الآن".

نظر الهيكل العظم، الذي بات شخصاً مكسوّاً، إلى جُملة شكله فتحيَّر: "جلبتَ لي أعضاءَ ذَكَرٍ، وثديي أنثى. هلاَّ سألتني أيُّ جنسٍ أنا؟"، قال بلسانٍ غلبَهُ لذعُ المُشْكِل.

"لم تقل لي"، رد الملاك.

"أتيتني بثديي إمرأةٍ مُرْضِعٍ. أتسمع هياجَ الحليب فيهما؟"، ساءله الشخص، فرد ملاك الأوزان:

- ماالذي يتآكلُك الآن؟ عُدْتَ هيئةً، فاعطني العيارَ.

"كيف أغالب هذا النازع، الذي لايُقاوَم، إلى الإِرضاع؟"، ساءله الشخص، فتبرَّم الملاك:

"أعطني العيارَ، لقد تأخَّرتُ في كيْل الفجر والوحشة منذ البارحة".

"سأعطيكَ بُغيتَك شرطَ أن ترضع من ثديَيَّ هذين"، قال الشخص التامُّ الهيئة.

غضب ملاكُ الأوزان. شقَّق الظلالَ من حوله، ونكَّلَ بالهواء حتى سالت الجهات من جرح النهار كالقطران. "أيُّ وقحٍ أنتَ؟" قال، فلم

يأبه الشخص للوعيد، بل ساءلَ الملاكَ: "أتقبلُ التحكيم؟"، فرد الملاك: "من سيحكم على ملاك أن يرضع من ثديي آدميٍّ؟. نعم. أقبل التحكيم".

"فلْنحتَكمْ إلى الموت"، قال الشخص التام الهيئة.

طوى الأمير، ذو اللقب الأزرق، ورقةَ الترجمة، بعد انتهائه من رواية السطر الأخير فيها. تماوج خيالُ الجلساء حتى أحاط الزبد بعلومهم الصغيرة. "ماهذا؟ ملاك، وهيكلٌ عظمٌ، وعيار، وتحكيمُ موتٍ؟"، قال بعضهم متحيِّراً من عقل الحُجُب المُلْغِزة وتوريات الدَّهاء. فيما نحا البعض الآخر بلسان الجدل إلى توليد المشافهات المطيعة: "منِ يثق بالموت ليكون الموتُ حَكَماً؟". وتداعت مصادرُ الفطرة ببراهين المُرْتَجلات النقية:

ـ طالما لايقدر بشرٌ على عصيانه، فالأجدى أن نثق به.

ـ ومَنْ هو الموت؟

ـ هو الموت.

ـ نحن لانسلِّم الموتَ شيئاً غيرَ ماهو مأمورٌ بنقله إلى الخزائن. الموتُ مأمورٌ، ونحن نكفيه مأموريَّتَه.

ـ الأجدى أن نثق به.

ـ الموتُ ملاكٌ مأمور.

ـ نعرف أن للموت ملاكاً، لكننا لانعرف أن الموتَ ملاكٌ بنفسه.

ـ الموت رسالة يؤديها ملاك.

ـ لم نقرأ في ألواح العقائد أن الموت رسالة.

ـ ومن هو الموت إذاً؟

- هو ماينبغي أن نعتقد أنه موجود. لكنه غير موجود.

- يذكره الله مراراً في كتابه، وها تنكرون وجوده؟

- لاننكر وجود الموت، لكنه غير مانظنُّه.

- وماهو، إذاً؟

- هو تابعٌ.

- تابع منْ؟

- تابعٌ مًّا، يتبع ملاكاً مًّا.

- لانثق بالأسياد أحياناً، فكيف نثق بتابع؟

- هذه ليست مشكلتكم.

- مشكلة من هي، إذاً؟.

- مشكلة ملاك الأوزان، والهيكل العظم.

- كلما انحسر إنصافُ الله في الأرض، بات الشيطان مُنْصِفاً.

- أأنتَ تجدِّفُ؟

- دعني من التحايل..

- أتحايلُ على مَنْ؟ عليك؟

- على هذا المجلس.

- لِتَذْهبِ الأوزان، والأَعيرةُ، والهياكلُ العظامُ إلى الجحيم. لاتتطاولْ عليَّ.

- أوقِفا هذه المشاحنة؛ أنتما.

- الموت هو الشر.

ـ ماالذي فعله الموت من شرٍّ لنتهمه بالشرِّ؟ الموتُ مأمور.

ـ كنا خالدين. جاء الشيطان فأغوانا، فأنزلنا الله إلى مقام الزوال. في مقام الزوال ولد الموت.

ـ في مقام الزوال ولدتِ الطيور أيضاً. أَنتَّهِمها بالشرِّ؟

ـ لاتفعل الطيور بنا مايفعله الموت.

ـ لاينبغي اتهام الموت بالشرِّ. الموت خلود وزوال معاً.

بلَّل الجلساء ألسنةَ عقولهم ببخار الشاي. صمتوا برهةً يستنزلون من شفق العلوم الصغيرة طبائعَ المشافهات، ويبرون أقلامَ الجدال الخفية، بهمَّة التدبير الشيخ، تأهُّباً لجولة ثانية من امتحان توريات الكمال وتوريات النقصان. عادوا إلى سطور أصواتهم المتقاطعة في الفراغ المستعر من لهب الثقة بالموت واللاثقة به. هدأوا فجأةً حين نهض دلشاد متذمراً: "لن أعود بحكايات الملائكة. سأُسقِطُها من كتاب سالوحي"، قال. وجَّه الجلساء أبصارهم إلى الأمير ذي اللقب الأزرق يحكِّمونه في قرار الشاب الصاعد سلالم الترجمة. لم يحمل مهران نَفْسَه إلى ميزان الوسيط. بقي صامتاً، فمال الجلساء إلى المساومة: "لابأس أن تأتينا بقصص ملائكة بلامهمات"، وأومأ بعضهم إلى بعض موافقاً: "بلامهمات. لايهمُّ. سنحرص على ملائكة بلامهمات كحرصنا على ملائكة بمهمات. الملائكة ملائكة. سواءٌ هي إذا أتتنا محلِّقة في هذا المجلس من أرض عَدْنٍ أم من سماء السيد سالوحي".

بلل الجلساء شفة الأمل بألسنتهم وهم يرتشفون الشاي، فبلل دلشاد شفتَه السفلى يستذكر، بخيال الخسارة الناضجة ـ خيالِ ثمرة السِّدر، شفةَ أكيسا المملَّحة، أبداً، من فَصْفَصة بزر اليقطين.

الفرسخ السادس

(آلة الطِّبَاع)

المراسي الحديد، الخارجة من مسابك معادن النورماندي بأرض الغال الشمالية، شقت المياهَ إلى الأعماق القلقة حول "رأس الخنزير"، في الجنوب المروَّض من خليج اسكندرونة. لاأحد يعرف لماذا سُمِّي إحليلُ اليابسة الناتىءُ، المنبسط باتجاه الفَرْج المائي في شرق المتوسط، باسم رأس الخنزير. هو لايشبه رأس الحيوان العادل في تنمية شحمه الكثيف ـ حيوانِ الغدر بالأساطير، المدنَّسِ في سجلات العِلْم الخالد. إحليلٌ أو إصبعٌ صخرٌ، ذلَّلته مراسي الفرنسيين الحديدُ، قبل عبور المدافع ـ بصريرٍ أرعشَ ورقَ الحور ـ إلى ظلال النواعير الصغيرة في بلدة أنطاكية. بزغت شمسٌ في تلك الأنحاء، منذئذٍ، هي ليست شمس السماء الأليفة.

طلائع طيور الحجل، العابرة بيوتَ الجن في سفوح جبل الكرد، لم تستقر في السهل المترامي، المحتضن أنقاض البرج الروماني المندثر. ثرثرت قليلاً في شؤون الجماد المحيِّر، وخواصِّ الحُجُب الظاهرة والخفية. ألقت ذرْقَها المتحصِّل من نفاية عناكب الحجر والدعاسيق غير المنهضمة في معداتها، على ورق الدلبوث، ثم طارت، في البرزخ المتقوِّض من فَلَك الغمام العثماني المنحسر، إلى نواحي بلدة سياسيل، التي دخلها دلشاد شاهنور، في عودته لتفقُّد النجوم العائلية المثبَّتة بمسامير الأنساب على سماء الأعمار. احتضنته أمه. احتضنه أبوه. احتضنته أخواته. احتضنه صِبْيَةٌ وأطفال يجارون الكبار في إعادة الحقائق إلى مرتبة الحركات المنقولة عن أعراف الشوق. لكنْ ثمتَ ما لم يكن على

مايرام: العيون لم تحدق إلى عينيه بجسارة البوح المعهودة. كانت تلحظه برهةً ثم تنكسر. تلتف عليه، ولاتواجهه. لاتقرؤه، ولاتدعه يقرؤها. ترتدُّ عنه من غير أن تخترقه.

كانت العيون المفتوحة ترفع إلى عينيه نظراتٍ مغلقةً.

اختلسه ابن خالته مانو من حلقة الثياب البشرية. قاده، بانكسار، إلى هواء الساحة المُغلق بأقفال النظائر السماوية: "لديَّ بندقية، وخنجران، ويَطَقٌ واحد أستطيع أن أقشِّر به الفراغَ هذا، يادلشاد"، قال مانو هامساً من غير أن ينظر إلى رفيقه. صعدتْ دغدغةٌ خضراء، ذاتُ طَعْمٍ مُزٍّ، إلى عِرْقَيْ لسان دلشاد: "ماالذي تحاول أن تقوله، يامانو؟".

تلفَّت مانو من حوله مرتاباً من أن يسترق رُسُلُ الهباء منه السمعَ: "سنقتل دِلْبَرِي".

ارتجَّ الغَمْرُ المسكون بحيتان الخيال البسيط. تفقَّد دلشاد صورَ العقل، المختلطةَ، ببصر قلبه وروحه. تفقَّد قلبَه: "نقتل دلبري؟!!"، قال مصعوقاً من عدم اقتداره على الفهم. "أهذا مزاح، يامانو؟".

"لا"، تمتم مانو من ظل هيئته الشاحبة. "دلبري هربت مع ابن الشيخ ميران عَلُو. عائلة الشيخ، ذاتها، هربت برمتها خوف انتقامنا منهم".

انخلعت البرازخ الستة بين السماء والأرض كعوارض في بناءٍ خشبٍ. برزت الأرقام الكبرى لأعمار الملائكة متداخلةً مع أرقام الإحصاء الثالث لبيوت الجن. سيرةُ العُمران لاتُسْتَعْرَض إلا بعد الفراغ من تقدير الفراغ بإحالته إلى جسم آدميٍّ: هكذا تجاورت السطور المهشمة على لوح دلشاد ـ لوحِ عظامه الّتي تعرَّت لهبوب العبث البارد عليها. دلبري هربت مع مجفِّف فاكهة. دلبري، ابنة خالته المعقودة له بفَرْجها، وذهبِ روحها، كخطيبة منذ ثلاث سنين. دلبري أخت مانو، الخجولة

كأملٍ، الضاحكة أبداً في خفوت وهي تتلثَّم بطرف خمارها كي تخفي وجَعَ الذهب الذي يغلِّف نابيها برقائقه ـ رقائقِ صناعة الغَجَر، التي تستنجد بروح النحاس في انتشال النِّسَب الصحيحة للمعدن الأصفر الثمين من أخطاء صوابها الصحيح: ذهبٌ ينقلب أخضرَ في الفم بعد الشهر الثامن من تلبيس الأسنان به. لكنها الزينة التي تستوجب التغاضي عن الأعراض المتكررة لعبور الغَجَر، كحمى خفيفة، في جسد البلدات والقرى. لايهم. دلبري ستمنح التماعةَ نابيها الذهبيين لشعاع الرجل الذي اختارته لوجع جسدها الأول ـ وَجَعِ الأنثى في العبور من كمال خدْعَتها إلى نقصان خدعة الذَّكر. وَجَعٌ ماكرٌ سيكون وجَعُ دلبري؛ وَجَعٌ مستهزىء بذلك العار، الذي سيشوي عليه دلشاد كبدَهُ مملَّحاً.

"سأسلخ السماءَ فوق نهر الخابور. سأسلخ النجومَ فوق قرى خابور. سأسلخ ماءَ الخابور"، قال مانو متوعِّداً جهة الأرض التي فرَّ إليها العاشقان، فلمس دلشاد كتف ابن خالته. هَدَّأَ الفَلَكَ الثالث ـ فَلَك الغضب الآدميِّ بلسان الأبراج المتناظرة: "تأخرتُ على دلبري، يامانو". لم يهدأ مانو: "لارجل يتأخر على أنثى حتى لو تأخر. السفر والتأجيل ليسا تأخُّراً".

"سأعود إلى كلاس"، قال دلشاد.

صُعقَ مانو. الْتَوتِ العلوم بعضها على بعض، كعروق اللوبياء، وأشكلَتْ. جاهد الشاب أن يقرأ السطرَ الصلصاليِّ في كيان ابن خالته دلشاد: "ماذا في كلاس؟"، ساءله ممتعضاً.

"الترجمة"، رد دلشاد.

"وماذا عن دلبري؟"، ساءله مانو بصوت مُرٍّ.

"هربتْ"، رد دلشاد.

دار مانو على نفسه متآكلاً من حيرته في خمول العصب الثالث ـ

عصبِ النقمة في نشأة دلشاد اللَّيفيَّة: "عَضَلتُكَ مفقودة"، قال الشاب محتقِنَ الخيال.

"أية عضلة؟"، ساءله دلشاد.

"عضلة الليل. أنت رجل لم تَرثْ من الليل طباعَ النموِّ كائناً"، قال مانو.

"ولم أَرِثْ، في الأرجح، عضلةَ النهار أيضاً. سأعود إلى كلاس"، قال دلشاد، فجذبه مانو من تلابيبه. تصادما بصدريهما. حدق أحدهما إلى الآخر برهةً يطحن بهراوة بصره سحنةَ اللحم والعظم فيه. تراخيا وانفصلا.

"فلنقتلْ دلبري، يادلشاد. أنت تسلخني بشفرة اليَطَق الذي كنتُ سأسلخ به ماءَ الخابور. أحسُّ الشفرةَ الحديدَ تحت جلدي"، قال مانو.

"لن نقتل أحداً، يامانو"، رد دلشاد.

كانت عودة دلشاد إلى سياسيل، ذات الأرض الملآى بفطر أصفر، له رائحة تُقرأُ ولاتُشمُّ، استراحةً يجري في أمدها تمهيدُ دارِ المصكوكات، في كلاس، لإقامته. رُفِعَ متاعه من الغرفة الملحقة بدار الأمير ذي اللقب الأزرق إلى حيِّز يتَّسع لأن تتنفس العلومُ الحالمة، والمتخبطة، والمستقرة، والغائبة عن وعيها، بلاارتطام أوتَصادُم. بصرُ دينان، المنحسرُ إلى غَسَق الأشكال، أَلْهَمَ الأميرَ أن يختصر مشافهاته المديدة مع المعادن بنقلها من جماد إلى حقائق إِنسيَّة تتناهشُها التواريخُ المحسوبة، والملفَّقة، بتراضٍ. أوقفَ آلة الصكِّ المعذَّبةَ عن اختلاق الخيال للآخرين كي تنصرف إلى خيالها الصامت، الكتيم، المغلق على صوَرٍ يَهابُها اللونُ. السلطنةُ ذاتُها كانت تتراجع عن اختلاق أيِّ خيال للجهات. أقاليم تذوب أو تتخلَّع من عصف الريح الثانية ـ ريحِ التدبير السُّفلى المدرَّبة على ملل الحياة من مشهد انتصار الحياة بلا مبرر. سلاطين يتخلَّعون كأبواب الخانات. معادن

تتخلَّع من وطأة نقوشها. آلات صكٍّ تتخلَّع. والأمير مهران زازا إيفاردر يقرِّر أن يحيد بالتاريخ، قليلاً، عن سياقه السائر على سكَّة مَلَله - مَلَلِ جسده وخياله من الإتفاق على قانون الانحدار من الأليف إلى الغامض: "إنها شيخوخة المعلوم والمجهول معاً"، يقول الرجل الشيخُ للمشيئة، ثم يرتب لنفسه إقامةً، بما تبقَّى له من مُلْكية الهواءِ، في الأوراق القليلة التي يتسلمها من ترجمة "المختصر في حساب المجهول" عن الأصل، أو الإضافات إلى الأصل، بتواطؤٍ رحيم بينه وبين دلشاد.

ربما كان خمود آلة الصكِّ، بأثرٍ من محنة مرِّوض المصكوكات دينان، هو باعثُ الأمير في نقل دلشاد من البيت الملحق بداره إلى ماوراء النهر، لكنه حمل في جُملة حكمته الشفيفة إغراءَ الرحابة، توطيداً لإقامة بلاحدود تفتح للشاب الصاعد سلالمَ الترجمة باباً على نداء المكان الأعمق - نداء الشرود الساحر على وقْع العبور الساحر للأشياء إلى الحنين إليها، وهي - بَعْد - ماثلةٌ للحواس وشهواتها.

مهَّد الأمير ذو اللقب الأزرق لأمر النقل بجملة صاغها، مراراً، على نحو متفاوت الإقناع: "دلشاد: احملْ سياسيل ببصر كيانك، وبصر طباعك، وبصر الهواء في رئتيك، إلى كلاس، انقلها حفنةً حفنةً كالأرزِّ، من الكيس إلى الطنجرة، واطْهُها بهدوء على نار كلاس، تنضجْ سياسيل جديدةً لها نكهة لحم الأرنب بالزيتون والزعفران". دلشاد التقط، منذ الوهلة الأولى، عَرْضَ مهران الملتبس قليلاً من أجل الإقامة الدائمة في كلاس. "الأمكنة المفقودة هي، وحدها، أمكنةٌ حقاً". كان هليه أن يفهم من غمغمات الأمير اللطيفة، وتورياته، أن فقدان الشيء هو عثورٌ ثانٍ عليه، بل استحواذ يجردُ الشيء من حريته كمفقود: "كل مفقود حرٌّ". ربما هو لعبٌ بالمعاني المروَّضة للَّعب بها، لكن التورية تخصُّ بلدة سياسيل - مسقط القُطْر في ولادة دلشاد. أن يعود إليها، أو لايعود، تدبيرٌ لايغيِّر في سياق جسده أو خياله: هذا ماعثر عليه في سطور المكتوبِ الممحوِّ، التي تأمَّل فيها بنظر حنينه. أمَّا أن يأتي بسياسيل

كلها إلى كلاس فأمر مشوِّق: روائح الفُطر المتكلم بلسان التخصيص، ومجادلات طيور الهدهد، وتلاعب شجر الشرْبين بمقادير الهواء، وأحلام النهار المقشَّرة كبصل الدلبوث الحلو، وكثافات الظلال المعلقةُ خزائنَ آمنةً.

بعد أربعة أيام، لاغير، عاد دلشاد إلى كلاس. نشر بذورَ نومه، هذه المرة، في دار المصكوكات، الذي أعيد تأثيثه وفْقَ النِّسَب الرمزية لأحوال اليقين: أريكتان مغلفتان بقماش أزرق مقصَّب. ستة عشر رفاً خشبياً منجورة الحواف على شكل ورق العنب ـ ورق التكليف بالكتمان. سريرٌ نحاسٌ، رقيق القضبان، تكفي نقرةٌ لترديد الصدى في جوف معدنه سبع دوراتٍ متفاوتةَ الرنين كالصوت في خلجان أنتاليا. إبريقان. خزانتان. متاع من محاصيلِ ضروراتِ اليوميّ. فيما تولت خادمان نقل الإفطار والغداء إلى كمين دلشاد بين الورق، على أن يفي بنفسه الدَّيْن المتوجب عليه، في العشاء، على مائدة الأمير، بتصنيف النكهات تصنيفاً صامتاً على قياس الذوق الناطق.

بات دلشاد، منذ استقر في دار المصكوكات، يتبع النهر، كل يوم، مروراً بدار دينان بروار، إلى الجسر. ومن الجسر يوزِّع نجومَ أشغاله، وشؤونه، على المدار الصغير المثبَّتِ بمسامير الغمام فوق سوق كلاس، وحقل اللاذن، وبيت الأمير ذي اللقب الأزرق، الذي نقل إلى جلسائه، في مساء اليوم الثاني من عودته، ورقة واحدة وضعها في حِجْر مهران: "اعذرني. لم أتعود على الترجمة، بَعْدُ، في منزلي الجديد. جرجيس سالوحي يبدو قَلِقاً. حين يطمئنُّ قليلاً ستطمئنُّ الترجمة بدورها. سالوحي وكتابه سيتعودان المنزل الجديد مثلي"، قال. دارَ الأميرُ ببصره على خيال الجلساء وأبراج هيئاتهم المتطابقة مع فَلَك الفراغ. تنحنحَ. قرأ الورقةَ بلسان الدفتردار المتمهِّل: "قال الباطل..."، وتوقَّفَ يزن السطرَ بمثاقيل المعاني المُحْتَمَلة. لم يجد خياراً إلاَّ أن يسترسل في الحكاية عن "الباطل" الذي يجالس "رَجُلَ الحقيقة" قرب نبع، وهما يتسامران

مسامرةَ الندماء حول أباريق الفَناء الساقي. قال الباطل لرجل الحقيقة: "سأبوح لك بكل شيء".

تشكّك رجلُ الحقيقة في بوح الباطل على هذا النحو الواثق: "كل شيء؟ أتعني ذلك؟"، فردّ الباطل:

- كل شيء. أعني ذلك.

أبدى رجلُ الحقيقة عَطْفاً على الباطل: "إنه كثير عليك أن تقول كل شيء. أَشْفِقْ على خيالك".

تبسَّم الباطلُ. أشعل فتيلَ ثقته بقدَّاح العِلْمِ - مُشْعِلِ الحرائق الرقيقة في عيدان العقل الرقيق: "البوح بكل شيء دفعة واحدة، لايكلف شيئاً. التمهُّل مُكلف. التروي، والحذر، والتمهل، والتأني، والصبر، والتؤَدة، كلها توريات الشَّغْب يتجمَّل بها لسانُ الحيلة كي يؤجِّل التعريفَ".

"التعريفَ بِمَ؟"، ساءله رجلُ الحقيقة.

"بالخلود"، ردَّ الباطل.

رَغَا المللُ في إناء رجل الحقيقة، واشتدَّ حَمْضُ لبن المشافهة على لسانه: "إعْفِني من سماع بوحك"، قال، فتمطى الباطل. استجمع جُسُورَ الجهات المعلَّقَةَ بين الكيد والخداع: "سأتكلم"، قال، فارتعدتْ عضلةُ المُشكل تحت الثدي الأيسر لرجل الحقيقة: "لاأريد أن أسمع شيئاً. سأصم أذنيَّ".

لم يمهل الباطلُ رجلَ الحقيقة. فتح خزانةَ المغاليق المرصودةِ بأقفال الممكنات المتعرِّقة من حُمى يأسها: "الآلاتُ بصرُ المستور - آلاتُ الشغف بالمتعيِّن المتهتِّك. الصورُ مشاغل الله. الوقتُ هَمَّةُ الموت. لاتأخذْ من حاضرك إلاّ مايستحي منه غدُك. الغيبُ إهمالٌ. كلُّ ملاكٍ مغلولٌ. حين بلغ الضجرُ بالمعنى مرتبةَ التسليم بالقِدَم كقِدمٍ.. حين.."، وانفلقت

البزورُ المرويةُ بظلام الحقل الأزليّ في بوح الباطل. قلّبَ المتاهاتِ كأرغفة على صاج، وفَرَمَ بسكين الذهول علومَ الليل وعلوم النهار. حرثَ العقلَ الرابعَ ـ عقلَ التأييْدِ بمحراث العقلِ الثاني ـ عقلِ الفراغ المبشّر بشهوات الخالد المبشّر بشهوات الزائل المبشّر بشهوات الكلمة المبشرة بإرث الصُّوَر. أعاد تلقينَ الخفيِّ استغاثةَ رسوله المرئيِّ. عجن الأسماءَ المقلّدةَ صوتَ المعقول في معجن النكبات المُحْدِقَةِ بالمعاني، ومرَّغَ اليقينَ، الموصوفَ كالدَّسَم، في أنفاس شهواته الثماني عشرة. "لاقلبَ يستَخْصِل مواقيتَ الكُلّيَّات الصغيرة إلاّ باللوعة"، قال الباطل. "نَدَمُ الشيء من نَدَم المشيئة". أحصى المفاتيحَ المكسورةَ في أقفال النعمة. أحصى أقفال خزائن المُشْكِل المهشمةَ.؟ بلّغ الكمالَ العابرَ نداءَ القلِقينَ. "ماالذي لايعرفه الجاهل؟ ماالذي لايعرفه المذهول؟". نثر سمادَ الغيب على البذور الحجرية في سطور الأناشيد الهَلِعة كلّها. تكلّم عن مسافات السماء، ومسافات الأفلاك المهاجرة والمُقيمة. تكلم عن أعمار الرُّسل المجهولين، والآلهة المجهولة، وأعمار الملائكة وفْقَ ساعات الأرض، وأعمار النجوم المقرونة بمواليد المجاهيل المستنْسَخَة عن المجاهيل الصغرى والكبرى. تكلم عن سيرة العُمران في ممالك الجن وممالك الانس، وعن حِيَل الطرق في تفريغ المهمات من حواملها السائرة بلاتكليف، وعن ارتباك المعجزاتِ مَذْ تسلمتْ خلافةَ العاديِّ بانقلاب الله على الضرورة، وتمزيقه وغْدَ الخيال.

تقلّب رجل الحقيقة من جنب إلى جنب، ساداً أذنيه بيديه: "لاأريد أن أسمع". نشجَ، وناحَ، وبكى. تمرغ في ظلال المفقودات والموجودات، مستغيثاً. توسّل الباطلَ نَفْسَه كَبْحَ استرساله: "بحقِّ السِّحر المغلوب على أمره؛ بحق الندم، والعصيان، والكيد؛ بحق الحرف المفقود في كلمة القِدَم الناقصة، بحق اللاشيء الذي عليك؛ بحق الغدر العادل أوْقِفْ بوحكَ"، فلم يتوقف الباطل. نهض رجل الحقيقة وقعد مراراً حتى سُمِعَ استياءُ المكان في حناجر القصب. نزف الدمُ من منخريه

وفمه وأذنيه. تشققت عظامهُ، وانسحقت الغضاريفُ في المفاصل. خرجت خلايا كيانه على خلايا كيانه، وتنابذَ العَصبُ.

لم ينقطع صوتُ الباطل عن اختراق رجل الحقيقة برهةً. لم يحجبه العويلُ، أو سدُّ السَّمع: شقَّ الصوتُ ظلَّ قلبه النابت على غصن من شجرة الحساب، وتغلغل إلى التجاويف الزمنية في كُتلته المُقَدَّرةِ بأوزان اللازمنيِّ. فتَّتَ الجوهرَ الصلبَ والعَرَضَ الصلبَ، معاً، المتعاقديْنِ برباط المواريث، في غربال نشأته الآدمية ـ الإلهية. خَمد رجلُ الحقيقة. استسلم للصوت. قشَّر عن كماله لحاءَ الكُلِّيِّ، وجلس شاحباً تحت أنفاس الباطل المستجمِّ بروائح المعقول الصاعدة من حدائق التيه: "أظنك قلتَ كل شيء"، قال، فردَّ الباطل:

ـ نعم. قلتُ كلَّ شيء.

"ماالذي عليَّ أن أنتظره بعد الآن؟"، ساءله رجلُ الحقيقة بلسان الجفاف، فرد الباطل:

ـ لاشيء. إِعْفِ نفْسكَ من آلتك هذه.

"أية آلة؟"، ساءله رجلُ الحقيقة، فأجابه الباطل:

ـ آلة الحقيقة. عُدْ بشراً.

"ماالذي يخوِّلك، أيها الباطل، أن تضعني في هذا المقام من مشافهاتكَ؟"، ساءله رجل الحقيقة، فرد الباطل:

ـ أنا مَنْ يعقد الصُّلحَ، أبداً، بينك وبين الله.

تبسَّم رجلُ الحقيقة منكسرَ الخيال والخاطر. تمتم متسائلاً: "أأنت من يعقد الصلح بيني وبين الله؟".

"نعم"، قال الباطل.

"ومتى كنتُ في خصومة مع الله؟"، ساءله رجلُ الحقيقة.

"منذ اتَّفقتما على تسميتي باطلاً"، قال الباطل.

في الصباح الثالث من عودة دلشاد إلى كلاس، مرَّ به مهران في دار المصكوكات. عَرَضَ عليه، بنداء العُمْر الملثَّم في حنجرته الكهفية، أن يتصاحبا إلى السوق: "هذا العشب المسحور، الذي ابتكره مهاجرون من جبال التاي، يميل إلى الزرقة، يوماً بعد آخر"، قال. عقد يديه خلف جُبَّته الرمادية ـ جُبَّة المقام المنذور لعلماء البوح الصامت، وأرسل سحابتَيْ عينيه تظللان تخومَ حقل اللاذن خلف نهر نُوهْ آفْ، الحاكم بشرع الأنهار المطبوعة على معاني الكَيل. مشى الرجلان متمهِّلَيْن. غمغم الأمير ذو اللقب الأزرق من أوتار صوته الأربعة: "من أين جئت بحكاية هذين ـ الباطل وصاحبه؟"، قال، فرد الشاب الصاعد سلالم الترجمة: "من كتاب سالوحي".

"ظننتُكَ أنهيتَ الترجمة"، قال مهران.

"إنني أعود إلى صفحات نسيها جلساؤكَ"، رد دلشاد.

توقف مهران. دار بوجهه إلى دلشاد وابتسم: "ترجمة كهذه لن تنتهي"، وأردف ممسوسَ القلب بمعجزات العاديِّ: "عندي لك كنز".

"كنز لي؟"، ساءله دلشاد.

"لك، وللسيد سالوحي معاً"، رد ذو اللقب الأزرق.

لم يستقرىء دلشاد إشارات الظاهر في لغة الأمير المتلاعبة بمقادير الخمائر في المعاني. سُرِقَ خيالُه ـ خيالُ الجَمْعِ الحاجب، وأُعيْدَ إليه، في لَمْحٍ، منهوباً: لقد رأى زلفو، ابنة أكيسا، واقفة في الباب ذاته الذي دَرَّجت المرأةُ البزوغ أن تتكىء إليه في عادات مثولها كلونٍ في زخارف الله. كانت، كأمها، تفصفص بزراً أصفر من شُعلة الباطن في اليقطين المستطيل. حاذاها الرجلان. توقف مهران فتوقف دلشاد.

"ماحال أبيك؟"، ساءلها ذو اللقب الأزرق. مسحت الشابة فمها

بظاهر يدها اليسرى المعلَّمة بوشم الذهول المتقطع النقش ـ وشمِ حروف السماء الثلاثة: الياء، والشين، والهاء. ردت: "حالُه؟ هو من جهة، وزوجي من جهة. أزور أبي فيخاصمني زوجي. أعود إلى زوجي وطفلتيَّ فيخاصمني أبي. أنا سأغدو عمياء أيضاً. ياجناب مهران".

"جيئي بطفلتيك إلى كلاس، وأقيمي هنا يازلفو. تزوجي هذا الشاب"، وأمسك، في غمامة دعابته، بذراع دلشاد. ضحك دلشاد. ضحكت زلفو. تناهى إليهم صوتُ مروض المصكوكات دينان بروار، قادماً من مهبِّ الظلام الذي يقود هيكلَه المرتديَ ثياب البرزخ: "من تكلمين، يازلفو؟".

"جناب مهران، والسيد دلشاد"، قالت الشابة المُحاصَرة بلون أمها.

"مَنْ؟ دلشاد؟"، ساءلها مروض المصكوكات بلسان الزراية المحتجب في نبرةِ العاديِّ. وأردف بلا انتظار: "هل بدأ يأكل المصكوكات المخزونة في الدار؟".

لم تفهم زلفو توريةَ الرجل المرير. اقتحمه مهران:

ـ لامصكوكات ياعديلي. لانحاس. لامعادن. لاقطار. سيغدو اسمُ ملاطية منسوباً إلى فراغ السكة من الإسكندرونة إلى الجحيم.

منذ ارتعش شجر الحور، إجفالاً من عبور الفرنسيين إلى نواحي أنطاكية، ارتعش قطار ملاطية بحديده، ودخان فحمه المستقر ككرز أسود على غصون الأكاسيا الراشحة صمغاً، وانخفض شِجار السهول المدرَّبة بلسان امتدادها الباذخ. لم تعد الغيوم تتجادل، على النحو المعهود في جدالها المُستعْرِض قوانين العلوِّ والسُّفْل. باتت تتهامس، قبل انفصالها على جهتَيّ السيف اللامرئي فوق برزخ الإسكندرونة. "أتتذكر حكايةَ بكاء البشرية، التي أتيتنا بها، في أوائل أيام ترجمة كتاب

جرجيس، يادلشاد؟"، قال مهران، فهز الشاب رأسه إيجاباً. نظر إلى زلفو، وأبيها المتكىء على عارضة البوابة، فيما استرسل ذو اللقب الأزرق: "شيء من مثل حكايتك تلك سيجري في الأناضول. أسمع طقطقة الشرفات في بيوت الآستانة. لاقطار، إذاً لاأرضَ".

"إنها ليست حكايتي ياجناب مهران"، عارضَه الشاب الصاعد سلالم الترجمة. ابتسم ذو اللقب الأزرق: "من تشبه زلفو؟"، قال، فارتبك دلشاد. ردت الشابةُ: "أشبهُ أمي، ياجناب مهران. لانظر يخطىء في ذلك". هزَّ مهران يده اليسرى نفياً: "أنت تشبهين المعنى الناقص في حكاية سالوحي".

حين انتهى ذو اللقب الأزرق، ذا ليلة، من سرد السطور المحمولة إليه، بتمام حبرها العاقل، في صحيفتين من ورق الترجمة الأصفر، التفت إلى دلشاد مستنجداً: "ثم ماذا؟ هنالك شيء ناقص"، فرد دلشاد: "لانقص، ياجناب مهران. أنا، نَفْسِي، هززتُ كتاب سالوحي مراراً عسى تتساقط كلماتٌ لم تلتصق بورقها جيداً فأعيدُ ترتيبها لينكشف عني غمُّ النقصان، وهَمُّ اللُّغز، فما عثرتُ على حرف. الحكاية هي هكذا".

لم يكلف سالوحي نَفْسَه، في السياق الذي حمله دلشاد مُتَرْجَماً إلى مجلس مهران، إعادةَ ترتيب الظلال المُنسحبة من كروم اللغة السريانية إلى عرائش اللغة الكردية. كانت حكايته المروية على لسان شخص هارب، ألقى بها على سمع أول عابر مرَّ به، من غير أن يتوقف، حكايةً بسيطة، مختزلةً كأنفاس اللاهث: "البشرية، كلها، بكت ذلك اليوم"، قال، فتمتم العابرُ المباغَتُ وقد توقف: "ماذا؟ ماذا قلت؟"، فظل الشخص الهارب على جريه، مقذوفاً من سور الهواء إلى خندق الهواء. "البشرية كلها". وتلاحقت الموصوفات أنساقاً تجمع البشريةَ في سطورِ جروحٍ يسيل منها الممكن العارفُ والممكنُ الجاهل: البشرية كلها بكت

ذلك اليوم. مِلَلُ الجليد ومِلَلُ الرمال. النازحون إلى الكهوف مغلوبين على نوازع الإقامة في ترف العراءات، والسارحون في الخلاء اللاملجوم قرب بوابات المياه الكبيرة أو السهول. المموَّهون بتعاقب الظلال على جلودهم النباتية في الغابات العليا، قرب معاقل الشموس المفقودة شمالاً، والغابات السفلى قرب المعابر إلى الكنوز الدفينة في التيه جنوباً. المعتصمون بالبحر يردُّ عنهم المجاهلَ الزاحفة بمجاذيف التراب من البرِّ. المرفوعون بحبال أقدارهم إلى الجبال يبادلونها شِعراً عاصفاً بشِعر عاصف. التائهون بلاأمل، والمقيمون بلاأمل. المطمئنون إلى أسوارهم المنيعة، والمنكمشون ذعراً من الفجاءات تقوِّض عُمرانَهم القَصَبَ والغصونَ. الغالبون والمغلوبون. أهل الترف وأهل القشف. العابثون بمفاتيح الأمثال والأقوال، والناظرون بعقل الخصائص التسع إلى القِدَم المهجور. مدرِّبوا الشكِّ على مَزْجِ العِلَل كتوابل الحساء، وملقِّنوا الإيمان المهرِّج تزيين ولائم الموتى بشموع من خسارات الأحياء. المحترفون المُعْتَلُّون من كمال تدبيرهم، والأغرار المختبلون من فجاءة البدايات. الأمم الذاهلة عن ذهولها، والأمم المنصتةُ، في حياء، إلى الموت يدخُلُ الكلماتِ وحدَهُ أبداً، ثم يخرج بحشدٍ من المعاني الجريحة، أبداً. "هؤلاء كلهم بكوا، ذلك اليوم".

الرجل الهارب كان هارباً من شبيه يطابقه في الهيئة كأنما استنسخته مرآةٌ. ذلك ماكان مدوَّناً في بستان كتاب سالوحي. رجل هارب ينقلب هواءً إذا أراد. يدخل جذوعَ الأشجار ويغلقها على نفسه. يعبر الماءَ، ويمشي فوق الغصون. يتنكر في أشكال الطير، والهوام، والجماد العالم والجاهل. يحيلُ أعضاءَه أصواتاً، ويرقِّق نسيجَ جِرْمه حتى يغدو ظلاً مختلطاً بالظلال. لكن حيلة التدبير الساحر، في انقلاباته المتعددة بين الشكل والأثير، لاتُنْجيه. يلتقطه الشبيهُ في كل برزخ يصير الهارب إليه من برازخ المتماثلات الخمسة المنسوبة إلى حَياءِ العَدَم: في البرزخ الأول يعرِّي الشبيهُ الرجلَ الهاربَ من ثيابه وينثر عليه طحيناً من

حجر الحريق. في البرزخ الثاني يسلخه سَلْخاً من فروة الرأس حتى باطني قدميه. في البرزخ الثالث يفرِّغه من أحشائه بتمامها، ويجرم اللحم عن عظامه فلا يُبقيه إلا هيكلاً عظماً. في البرزخ الرابع يعرِّضه للهب الجوهر ـ لهبِ المجادلات المعذِّبة حتى يسيل من عظامه النِّقْيُ ويفور في قَحْفِه المخُّ، ويغلي في فِقَاره النخاعُ. في البرزخ الخامس يعجن دقيقَ عظامه الحيَّة بصمغ الكُنْدُر ويسدُّ به ثقوبَ الفراغ حول الشرنقة الكُليَّة ـ شرنقة الفراشة التي لن تحط، أبداً، في بساتين الإنسان. وفي مسارب الحكاية ذات الفواصلِ الصريرِ، أن الهاربَ يعود إلى هربه بعد كل وقوع بين يدي الشبيه، في البرازخ الأربعة الأولى، بعد ترديد منتَظَم لكلماته المدرَّبة على لوعتها: "لماذا تفعل هذا بي؟"، فيفلته الشبيهُ ويرجع إلى اللحاق به. في البرزخ الخامس لاتُستعاد دورةُ الهرب واالقنص. الشبيهُ، الذي ينتهي من إعادة الشخص الهارب عجيناً يلمح شبحاً يخرج إليه من كمين المستورات السبعة ـ أيام الأرض المعدودة على أصابع الندم السبع. يختبل الشبيهُ حين يقاربه الشخصُ الغريب متوعِّداً وعيداً يرشحُ منه عَرَقُ المُشْكل المستنطِق: إنه يشبهه كأنما استنسخَتْه مرآة. يهرب الشبيه فيطاره الغريبُ الشبيهُ.

"البشرية، كلها، بكت ذلك اليوم"، قال الهاربُ الجديد من شبيهه المطارِد لشخصٍ في عبوره الهَلِع برزخَ الوجود الأولَ. جلساء الأمير ذي اللقب الأزرق تململوا في نهاية الحكاية: "لابأس. شبيهٌ هارب يطارده شبيهٌ هارب، ياجناب مهران. لكن ماهو ذلك اليوم الذي بكت فيه البشرية كلُّها؟"، ساءلوه، فأحل الأمرَ، بلفتة من رأسه، إلى دلشاد: "ثمت شيء ناقص"، فرد دلشاد:

ـ إسألوا سالوحي.

"ربما علينا أن نسأل جرجيس لوقا سالوحي كي نستحصل جواباً في أحوال الأناضول"،؟ قال ذو اللقب الأزرق وهُما، بَعْدَ، على

خطوات من زلفو وأبيها المتكىء على عارضة البوابة. رفع صوته أعلى: "أتسمع مثلي، ياعديلي، أنينَ شُرفات آل عثمان؟ محمد السادس، هذا، سينقل الآستانة إلى ماوراء سور الصين". مسح مروّوض المصكوكات عينيه الرطبتين من شرارات الحريق الرطب فيهما بظاهر كُمِّه: "لو ينقل قطار ملاطية أيضاً، ودارَ المصكوكات، ونهرَ نوه آف، والسيدَ دلشاد". انتظر رداً على وقْع كلماته في الفراغ المحيط بعينيه المقشَّرتين من نقوش الأشكال. عاد بعد برهةِ صمتٍ إلى تسديد سطورِ خيالِه - السهام الباردة إلى لوح لوعته كمكسورٍ: "أليس لديك ماتترجمه للسلطام محمد، يادلشاد؟ إنه كئيب الآن. السَّلطنة كلها كئيبة كقضيب العِنِّينْ"، قال، فوبَّختْه ابنته زلفو: "أنا هنا ياأبي".

مشى مهران متجاهلاً صَدَفَةَ لسان مروض المصكوكات المنطبقة على حَشَرتها المُرَّة. أومأ دلشاد برأسه إلى زلفو إيماءةَ المعتذر عن انصرافه أَدَباً، فتعلقت المرأة الشابةُ بالشعاع الذي بزغ من لون أمِّها على بلورة عنصرهَ: تبادلا خاتميِّ الحنين إلى الأنثى ذاتها؛ تبادلا أرقامَ المحظور التي تنقسم على اللامحدود المعقول. عادت هي، من ثم، إلى مُرْتَكَزِها في النقش الأرضي على لوح الوقت، عند باب دارها؛ وعاد هو، من ثم، إلى مُرْتَكَزِ حركته، جوارَ مهران، فوق الجسر، متجهيْنِ إلى حقل العشب المسحور - عشبِ النازحين الراحلينِ من أهل التائي. في الحقل هبتْ عليهما روائحُ الجدال الخافت بين أُمم الفاكهة وأُمم الخضار؛ وروائح الصناعات المختمرة في دفء تواريخها البسيطة.

"ماهو كنزك الذي ادَّخرتَهُ لي، ياجناب مهران؟"، ساءل الشابُّ الشيخَ. رد ذو اللقب الأزرق، من غير أن يحلَّ يديه المعقودتين خلف ظهره: "الكنز..". جال ببصره - بصرِ السنين المتراخية في نعاسها - على حقل اللاذن شرقاً. تنفَّس الحقائقَ المُخْتبِلة في هبوب الجوهر الرطب عليه من منافذ التراب إلى الحقائق المعتدلة: "ماالحكمة، يادلشاد، في أن يستولدَ الرجالُ النساءَ أولاداً يعرفون أنهم سيمرضون، وسيَشْقون،

وسيُغْدر بهم، ويُغرَّر بهم، ويُنَكَّل بهم، ويُهانون، ويفْقَرون؟؛ اولاداً يخونون، ويتملقون، ويتزلفون، ويتصاغرون، ويظلمون؟. ماالحكمة في أن نجيء بأطفال نعرف أنهم إنْ سبقونا إلى الموت طحنوا أكبادَنا غمّاً، وإنْ سبقناهم إلى الموت سيلحقون بنا فتنخلع أرواحُنا أسىً عليهم حتى في الموت؟". حلَّ يديه المعقودتين خلف ظهره. تنفَّس، ثانيةً، شُبُهات المعضلة الأليفة فائحةً في بستان المقدور: "نحن مُضْجِرون في الطاعة؛ مُضْجرون في العصيان. كان أولى بالله أن يبقى في وحدته، لكنه يحب الكلمات، يادلشاد. يَعِدُنا بالثواب بكلماتنا نحن، ويتوعَّدنا بالعقاب بكلماتنا نحن. نعيرُه كلماتِنا. وُجِدْنا كي نعيرَه كلماتِنا، يادلشاد. يأخذُ سطورَنا المتسلسلةَ المعاني، ويعيدها إلينا، من ثم، بلاتصرُّف أو أية إضافةٍ أو حَذْفٍ، فنقرأ فيها الأقدارَ ظاهرةً كما دوَّناها قبل النسيان". توقفَ. أحسَّ هبوبَ الجفاف من رمل يقينه إلى خياله، تمتم مرتبكاً: "هذه هرطقة، يادلشاد. لساني يمهِّد للهرطقة. بدأتُ أخونُ بعضي". واستدار إلى الصاعد سلالَم الترجمة: "سألتني عن الكنز. نعم. هاهو"، وأشار بإصبعه إلى سوق كلاس.

غبارٌ رقيقٌ نزل، هانئاً، على رفِّ العقلِ ـ الرفِّ الذي أُخلي من كُتُب التقدير والتدبير. هذا مارآه دلشاد ببصر العبث فيه، المحدِّق من ثغرة النُّظُم الأزلية إلى الجدوى. لم يتكلم. لم يستحصل من إشارة مهران ذي اللقب الأزرق خميرةً تُنْضِج الحروفَ على لسانه كي يتكلم. فطنَ مهران إلى حيلة دلشاد المتلعثمة في ترجمة إشارته. نطق من جديد: "كل حانوت في سوق كلاس موعظةٌ، بذاته، يمكننا أن نلقيها على أسماع جلساء الليل فتنكمش جلودُهم رهبةً".

"حوانيت كلاس؟ أفي الأمر لعبٌ من محنَّك مثلك يجرُّ غرّاً مثلي إليه، ياجناب مهران؟"، ساءله دلشاد.

" لاحُنْكَةٌ. لادُرْبةٌ. لالعب، يادلشاد. إنها فكرة استلهمتُها بالقياس

إلى أحوال القبر بعد الموت"، قال مهران ذو اللقب الأزرق.

"تَرَأَّفْ بعشب عقلي، ياجناب مهران. إنك تقتحمه بسيل من الثيران"، كلَّمهُ دلشاد، فحدَّق إليه ذو اللقب الأزرق مبتسماً: "أتستعير تورياتك من لوقا سالوحي، أَمْ هي لك؟"، قال. "هو عشبٌ يجف يوماً بعد آخر حتى لو لم تلتهمه الثيران، يادلشاد. العقل عشب. الوجود عشب. والثور الأوحد، الذي يرعى هذا كله هو الموت". لمس صدرَه براحته يستقرىء الوَدَعَ المتدحرجَ مَرَحاً في مجرى قلبه ـ الجدولِ. "كُنْ صبوراً يادلشاد. أنا سأعطيك التوابلَ، وَجِدْ أنت ما تصلح تلك التوابل له".

"أنت تقلب الأمر ياجناب مهران. العاديُّ أن يُسمى الطعامُ أولاً، ويُسْأَلُ، من ثم، عما يصلح له من تابل"، قال دلشاد. نقل ذو اللقب الأزرق يدَه من صدره إلى جبينه: "هذا منطقٌ مضطربٌ إذا تعلَّق بأحوال القبر، يادلشاد. القبور توابل، وعليك أن تجد مايناسبها من الأجساد"، قال مهران. مسَّد براحته على عضلة المشهد النافر في لوح المرئيِّ الصلب: "هذه الحوانيت، التي تراها، هي الأجساد. القبر جاهز أبداً. الهواءُ القبرُ. السماءُ القبرُ، الترابُ القبرُ. الهباءُ القبرُ. قبور جاهزة، يادلشاد. صنِّفْ، أنت، مايناسبها من حوانيت كلاس".

"لم أفهم. أغلقتَ عليَّ الحقائقَ، وبَسَطتَ الشبهاتِ"، قال دلشاد ملجومَ المشيةِ، ملجومَ التصريف في خصائص المعاني الصغرى. "ماذا لو قلتَ إن القبرَ هو الطعام الذي يحوجه مايناسب من الأجساد التوابل؟. بالطبع لم أفهم ماتتدبَّر من حيَلٍ على لسانك للإيقاع بلساني".

"سنأتي بالحوانيت إلى الترجمة. لاتجفَلْ"، رد مهران.

حصاةٌ صغيرة سقطت، من قلب دلشاد، في ماء خياله. تماوجت صورةُ أكيسا: كانت ترميه، من قاعٍ بلَّورٍ، بحفنة من بزر اليقطين فيتناثر البزُر على كتاب "المُخْتَصَر في حسَاب المجهول": "نأتي بالحوانيت إلى

الترجمة؟؟!"، ساءله الشاب باستياء التمعَ في عينيه لا في كلماته.

"نعم"، رد ذو اللقب الأزرق. "إسمَعْ، واغفرْ لي". فتح يديه يستجمع رذاذَ الغمامة في سماء فكرته: "كل حانوت في كلاس هو حال من أحوال القبر الثلاثمائة قبل أوان النهوض من الموت يوم الحساب. سالوحي نَفْسَه كان سينتشي لو خَطَر له خاطرٌ كهذا يادلشاد. ألا تعتقد ذلك؟".

"أيُّ اعتقاد؟ أية حوانيت؟ أيُّ سالوحي، ياجناب مهران؟ كيف نصوغ هذا لجلسائك؟"، ساءله دلشاد، فرد مهران:

- منذ متى كانوا يصغون إلى المعاني، يادلشاد؟ يأْنَسون إلى الكلام في سَمَرهم ليرتِّبوا جدالَهم الأنيسَ، البسيطَ. أنا أعطيك الخيطَ، ورتِّقْ أنت ماتشاء.

"الفتوق، والخروق، كثيرة في فكرة كهذه، ياجناب مهران. مانَفْعُ الخيط؟"، قال الصاعدُ سلالم الترجمة منهوبَ الحال. فرد ذو اللقب الأزرق:

- خيط يكفي إذا وَصَلْتَهُ بإبرة سالوحي، يادلشاد. إبرةُ سالوحي إبرةُ الحقائق. مايخيِّطه لنا هو التوريات، والتوريات حقائق، يادلشاد. مالايدلُّ على شيء، صراحةً وتحديداً، هو نصف الحقيقة. ومالايدلُّ على شيء بإطلاقٍ، ولا على نَفْسه، أو غيره، هو الحقيقة كاملةً.

"اعذرْني إن سألتك، ياجناب مهران: كيف تعرف هذا كله؟، قال دلشاد.

عقد الشيخ ذو اللقب الأزرق يديه خلف ظهره. استعار من حقل اللاذن سطْرَ النبات المائيَّ في ديوان الخلائق: "أنا أعرف الكثير جداً، يادلشاد. لكنَّ الصوابَ في ماأعرفه قليل جداً"، قال مهران.

امتلأت ليالي الجلساء، في دار مهران، بحوانيت كلاس، محمولةً،

بجدرانها وسقوفها، حانوتاً بعد آخر، إلى ضياء المصابيح المنسوج من حِيَل العلوم. "مادكاكين سالوحي هذه؟"، ردد المتسامرون، مراراً، في إصغائهم المرتبك من شهوات السَّرد في صوت الرَّاوية ذي اللقب الأزرق: السِّلالُ جوابُ الميت عن سؤال لايعنيه، وصانع السلال، في مدخل كل سوق من أسواق الأُمم المتآلفة والمتنافرة، هو حاملُ آلة التمويه الضرورية في عقلِ الميت، كي يُبقي حيِّزَ المجابهة مع قُضاة القبر فارغاً لايملؤه إلاَّ مايملأُ السلالَ، في ذلك اليوم، من متاع الشَّاريْنَ حوائجَ أو أطعمةً. الأواني النُّحاس صوتُ الميت في مشافهاته مع المعادنِ الملتبسة ـ معادنِ الساعة المنصوبة على عمود الغَسَق الكبير، والنَّحَّاسُ مدرِّبُ الصوت على مَلْءِ الفراغ في الأواني اللامرئية بين يديِّ الملاك، القائم بغسل الميزان تمهيداً لوزن الروح الواحدة بما يعادلها من بذور المادة. الحلوى أنينُ المتعة في انقلاب الميت من حالِ أعضاءِ إلى حالِ رسالةِ يكتبها الحلوانيُّ، بريشة القَطْرِ العسلِ ـ خيالِ النحل في إعادة الأبدية مروَّضةً بسلطان الحدائق ـ إلى الظلام المنتظر أن يدلي بشهادته في أمر شقيقيْهِ: الظاهرِ والباطن أمام الله، يحرِّضه فيها على مكاشفة الله بعصيان تابِعِه الغيبِ.

كل حانوتِ حلوىً تحريضٌ في قياس العِلْم المحسوب بساعات القبر.

كل سلَّة جوابٌ إن مُلئتْ بمتاع الشَّرع الأرضيِّ، وخَرَسٌ عن جواب إنْ مُلِئَتْ بمتاع الشرع السماويِّ.

كل آنيةِ نُحاسٍ مَرْتبةٌ في الصوت، الذي يُكلم به الميتُ ضِيْقَ القبر أو وُسْعَتَه.

ثلاثة حوانيتَ مهَّدتِ المكانَ الجديدَ لسُوق العروج بالأحوال من أرض كلاس إلى أرض الرَّهبة في خيال الجُلساء. كانوا يصغون، لا كما من قبل. يصغون ولايحاجون في انزلاق العقل البسيط عن الخطط

المتراكبة لعقل الحيلة. يرددون، في حياء المستأنسين بحياءِ المعاني: "ما دكاكين سالوحي هذه؟"، بلاتوقف عند المساءلة في عَرْض عتباتها، وسُمْك جدرانها، وعلوِّ سقوفها. هكذا صار في وِسْعِ الحوانيت الأخرى، المُبْتَكَرةِ بآلات الإنشاء في لسان مهران، وحبر دلشاد وصَوْغِهِ، أن تستعرض أنْفُسَها، في خيلاءٍ، على البرازخ المترافعةِ طبقاتٍ، بحسب النِّسَب اللامتكافئة للقبور، التي باتت مرتكزةً على هندسة فيها من خصائص العُمران مقدار مافيها من خصائص الإحالة إلى المُلغِزات: قبور بلاعمق، أحياناً. قبور بلاطول، أحياناً. قبور بلاعَرْض، أحياناً. قبور رطبة إذا تفكَّر الميتُ في ترتيب جِدال مع الموت، وأُخرى جافة إذا تفكَّر الميتُ في تأجيل خلافه مع الموت. قبور لها هيبةُ السيادة، وقبور لها هوانُ التبعية.

"ما دكاكين سالوحي هذه؟". جُملةٌ كانتِ الظلَّ الملقى من سَطْر الإصغاء على سطر الترجمة المنحولة. دكاكين جامحة هي دكاكين سالوحي. تتكلَّم، وتضطرب، وتَطْربُ، وتقشعرُّ، وتنكمش، وتتمايل خنوعاً أو ابتهاجاً: الأحذيةُ سِجَال الخطوات، التي ينبغي أن يستظهرها الميتُ على عتبة قبره الصغير قبل النزوح إلى القبر الكبير. والسَّكَّافُ خطَّاطُ السِّجال بحروفٍ جِلْدٍ على الماهيَّات الرقيقة، في تلك النُّقلَة من القبر الصغير إلى القبر الكبير. حانوتُ الأقمشة تعديلٌ يضيفه الوجودُ على رسوم الله المُستَنْسَخَة، بلا استئذان، بقلم العَدَم؛ والقَمَّاشُ حيرةُ القبر في قبولِ التعديل أو تجاهُلِه. حانوت الَّلحم هو أنفاس النشأة مجتمعةً على قبول الرئة الجديدة ـ رئة الميت اللامرئية؛ والجزَّارُ عنايةُ القبر بالهواء ينقِّيْه ويُصَفِّيه من غبار الشكل إن تسرَّبَ من نوافذ الوقت إلى أبهاءِ المُطلق النظيفة. حانوتُ الحلاقة زينةُ العبث يتزيَّنها آن قدومه لتأدية مناسك الإجتهاد في عَرْصَة القِدَم؛ والحلاَّق موفَدُ الفعلِ الواجِبِ الخيار لتمكين القبر من الإشراف، بنَفْسه الحية، على حظائر الخلود وشؤونه. حانوت الحِلاجة إطراءٌ مرغوبٌ يقدِّمه الميتُ للبَدَدِ من حوله، والحلاَّج ميزانٌ

يكيل البَدَدَ للقبر بمكيال الوجدان. حانوت الخزف هو حَرْفُ التأكيد على العودة بالهيئةِ ـ الجسومِ والأفلاكِ ـ إلى قلم العادة الأزليّ يخطّطُها ويمحوها. يبنيها ويقوّضها. يرتّبها ويبعثرها؛ والخزّافُ، ربيبُ الماهيات المتداوَلة كعناصر التصريف بأيدي الكروبيين، يتعهّد العادةَ برعايته وعنايته نَضِرةً من عِلْمِ الله بها إلى عِلْم الإنسان بها في القبر. حانوتُ النِّجارة استنفارُ حشودٍ من المعضلات يتزلّف بها الميتُ، إهداءً، إلى موته؛ ينكمش منها الغيب استياءً، ويتعرّق الكمالُ كعَرَق الحُمّى. والنَّجّارُ حاصلُ الحساب المقسوم على عدد الطبائع في خلائق الأرض وخلائق السماء، بعد أن يختزل القبرُ الرقمَ إلى نصفِه المنطقيّ: النصفِ المفقود. حانوتُ العنصرِ النباتِ ـ الفاكهةِ والخُضارِ ـ معجمُ طبائعَ يُرْفَع إلى مكتبة الفردوس الخالية إلاّ من كُتُب الملذات المتقطّرة شحماً نقياً من حُمى وَقْدِها الطاهر. شهوات الحياة تُكافَأُ، بالجهاد الطاحن من آلات خيال الذِّكر، بإلزام الفردوس أن يتقيّد بعقْد المحسوسات، التي هي المطابقة النهائية بين غاية الفردوس وكونه ثواباً. الفاكهة والخضار، كلها، هناك، على مائدة الملذات الثانية، عقب عودة الجسد الميت من نزهته الغريبة في حدائق القبر إلى إحياء علومه: النكاح بلاحدود. منيٌّ لاينضب، متغذياً بطبائع النبات ـ بعد اللحم، والخمر، والعسل، واللبن ـ وقد شحذها، وصَقّلَها، ودرَّبها، وأعاد إليها صوابَ حقيقتها على نَسَقٍ واحدٍ: نَهْبُ الفَرْج. طباعٌ كانت، من قبل، مُلْزَمةً بشَرْعِ المُخالَفة بتواضعِ، والمواءَمَة بتواضع، والمعاكَسَة بتواضع، والجنوح إلى التضاد الصاخبِ أيضاً: طباعٌ صريعةٌ عذوبتها كما في الكَرز. طباعٌ خجولة كما في زهر التفاح. طباع فظّة كما في زهر القثّاء. طباعٌ متهورة كما في زهر الباذنجان. طباعٌ خرقاء كما في زهر الكوسا. طباعٌ خنثى كما في زهر الليمون. طباعٌ ماجنةٌ كما في زهر البطيخ الأحمر. طباعٌ هرطوقية كما في زهر اليقطين...الخ. لكنها، في التزامها بعقد الفردوس الجديد، المدوَّن بحبر الغُلْمة، منقادة لبند واحد هو صورةُ أخلاق تلك الطباع إلى

أبد الآباد: ترويض الروحانيّ ـ مُذْ يصير الروحانيُّ محدوداً في شرع الثواب الخالد ـ على تملُّق الجسد الحسيِّ، بعد صيرورة الحسيِّ مُطْلَقاً في شرع الثواب الخالد.

الإناث لن يجتهدن في تدبير اقتراح واحد عن صورة الفردوس. كذا يقول العِلْم الجابي لله مكوسَ الثواب للإنسيين، بعد الموت، بالدراهم الأرضية ذاتها ـ دراهم الشهوات ذات الرنين. الإناث سيلبثن في حقيقتهن المنحوتة من حَجَر الغيب طاعةً للحقيقة. لن يتقلَّبن على فُرَش الخُصى الكثيرة كتقلب الذكر على فُرُش الفروج. لن يتأمَّلن في لون العقل، الذي حَصَر إرثَ السماء بكَمَرةِ شريكهن الفحل حتى لاتضجر الكمرةُ من سَكْبِ يقينها الزلال في جسد واحد. لن يكون لهن أن يتناوبن على تداول العلوم الكثيرة عن طباع المُثُلِ في قضيب شريكهن، كتناوب شريكهن على تداول العلوم الكثيرة عن عِمارة البظر وخصائص نهضته الأزلية.

طباعُ الفاكهة، والخضار، كلها هناك، على بعد نَفَسٍ من رئة القبر. دلشاد ومهران أضافا إلى طباع الحوانيت الأخرى في كلاس ما لم يوجد في كلاس. جاءا بحوانيت لصناعة الأسلحة ـ البنادق الطويلة المواسير، والخناجر المحفورة المعدن بحروف الفتنة التي تُكتب بالأرمنية مقلوبةً: "الأسلحةُ صبرُ الموت على ثرثرات الموتى". ذلك مادوَّنه الشاب الصاعد سلالم الترجمة في ختام الورقتين الأخيرتين من سيرة حوانيت سالوحي، اللتين قرأهما ذو اللقب الأزرق، في الليلة الثانية من غيبوبة زوجته نوفا جان سَيْدا. أما في اليوم الذي توجها فيه، معاً، إلى سوق كلاس، وبدت خدعة الحوانيت اقتحاماً بثيران الرياح لعقل دلشاد، فقد أنزل مهران على روح رفيقه مابلبلها فانلجم فيه لسانُ المعقول الناطق. قال مبتسماً: "إنْ أبقينا زلفو أياماً أخرى طلَّقها بعلها الحمار. ذلك كان وعيدُه متبوعاً بالقَسَم الذي لارجعة عنه. لايريد زياراتها هذه إلى كلاس للاطمئنان إلى أبيها. هي على الحافة. أرأيتَ عينيها، يادلشاد؟".

ظلت الحروفُ حبيسةَ اللسان الحبيس. لم ينطق دلشاد. تحرَّش ذو اللقب الأزرق بكائنات الخيال الملتجئة إلى الجزء الخجول من عقل الشاب: "في عيني كل امرأة ظلُّ رجل، إلاَّ الذاهلة عن نَفْسِها، والعازفة عن صروف جسدها. زلفو لاظلَّ لرجل في عينيها"، قال.

تمالك دلشاد الهواءَ في حنجرته وقطَّعه حروفاً تآلفت في حياءٍ: "كيف ترى، ياجناب مهران، ظلَّ الرجل في عيني المرأة؟".

"من أنفاسها، إذا تكلَّمتْ"، ردَّ ذو اللقب الأزرق، وأردف إلى سَطْره المحكيِّ السابق سطَرَه المحكيَّ الصاعق:

"أتتزوجها إن طلِّقتْ، يادلشاد؟".

"لا"، رد دلشاد ينفض عن خياله غبارَ خيال الأمير مهران.

"بلْ تتزوجها، أيها الموعود؛ هي لك مُذْ كانت أُمُّها لكَ"، قال ذو اللقب الأزرق.

بوغت دلشاد ومهران من بروز الرجل الأحدب، ابن بُوْرِيْكان، من خندق في حقل اللاذن. قهقه الأحدب. "اللعنة"، قال مهران. "خلعت قلبي من بستانه. أأنت آدميٌّ أم تنبتُ فجأةً كالفُطر السَّام؟".

"لستُ آدمياً، ياجنابَ مهران. ولستُ نباتاً. حتى النبات النَّكَّاحُ هو أفضل حالاً مني"، قال الأحدب.

"ماالنباتُ النَّكاحُ، يامُعلِّم المسوخ؟" ساءله مهران.

"ذاك الذي يبقى مقوَّساً، فإن مرَّ به الآدميُّ انتعظ. ينبت تحت شجر الغَرَب. وأنا، ياجناب مهران، لومرَّت بي الجنُّ، والملائكةُ، والمسوخ، والأباطرةُ، وأهل الخوارق، لم يستقِمْ جذعي"، قال ابن بوريكان بلوعة المكشوف لحاله الأبدية.

"ماالذي تفعله في هذا الخندق؟"، ساءله مهران، فرد الأحدب

بصريف من أسنانه وعزيف من كلماته: "كنتُ أتصيَّد أبي، ياجناب مهران. لن ينجو مني. سأتصيده من الموت. من يورِّث ابنه حَدَبة في هيكل مكسور ليس أباً. عليه أن يعيدني من أبوَّته الشقية مثلي إلى أبوة أيِّ آدميٍّ آخر، ياجناب مهران. سأتصيده ليعيدني من هذا الشكل، أو يقتلني انتقاماً من الله"، قال، فعاتبه ذو اللقب الأزرق:

ـ ماتظنُّه خطأً أصابك من العليِّ القدير هو امتحان، ياابن بوريكان. تأسَّ، واصبرْ.

"أخطاء السموات هي أخطاء الآباء، ياجناب مهران. تخطىء السماء يخطىء الأب والأم. يخطئان تخطىء السماءُ. قلْ لي، ياجناب مهران، لماذا يتزوج ذَكَرٌ قبيح من أنثى قبيحة؟"، دمدم ابن بوريكان، فعاد ذو اللقب الأورق إلى معاتبته:

ـ هما أبواك. أَكَلَهما الهمُّ، حتى موتهما، من أن يرياك هكذا. ارحمهما، واصبرْ. هما ميِّتان.

"سأتصيد أبي. سأصلم أذنيه بمديتي هذه"، قال ابن بوريكان، وأخرج مطواةً من جيب سترته صدىءَ مقبضها، يتهدَّد بها أفقَ الموتى المفقودين.

قطعاً، لو سمع دلشاد كلمةَ صَلْم الأذنين، بعد ثمانية أيام من فحيح ابن بوريكان المطعون، لتزلزلَ عظْمُه وانزلق عنه اللحم. صَلْمُ الأُذن تعبير مصكوك من إنشاء الخِفَّة على لسان الوعيد. الكلُّ يتهدَّد بقَطْع الآذان إذا تخاصموا، أو تصارموا، أو تنابذوا، أو تخاشنوا في الجفاء والبغضاء، من غير رفع الوعيد إلى تحكيم الشفرة في الجوارح، إلا أهل البطش المعصومين من مساءلات القَضاء والقصاص، وأهل الجروح الكبيرة في عَضَلة الشَّرف وشحمه النقيِّ الهَبِر. أولئك، وحدهم، يصلمون الآذان، ويجدعون الأنوف، ويَجُبُّون الأحاليل، ويخفضون بظْرَ الأرض ومشارقها، وخُصى السماء ومغاربها. لكن

الرسول الذي حمل إلى دلشاد في دار المصكوكات - بعد ثمانية أيام من ظهور ابن بوريكان في حقل اللاذن - منديلاً داكن الخُضرة، أضاف إلى أهل الوعيد النافذ اسمَ ابن خالته، مانو: "ياصاحب عضلة الليل المفقودة - دلشاد، ها أنا أعيد إليك اعتبار الهواء في سياسيل". تلك كانت الجُملة المدونة، بالكردية، على ورقة مدعوكة لوَّثها خَيْطان من دم جاف، احتوث أذنينِ آدميتين هما أُذُنا دِلْبَري.

الفرسخ السابع

(الجِدال)

"أكيسا. ماذا تفعلين الآن، ياأكيسا؟ أتخترعين قصصاً تُمْلينها على ملاكٍ تُرجمانٍ، ياأكيسا؟ أعندكِ كفايةٌ من بزر اليقطين؟ لو خَلا لِيَ المكان غطيتكِ بسنين عمري، لابالتراب، ياأكيسا. ولو قُدِّر لي أن أتدخل - بعد إكراه نَفْسي على قبول دفنكِ - في الدَّفن، لدخلت معك إلى بستان الله ياأكيسا، ومعي أحمالُ تسعة حمير من بزر اليقطين، والبطيخ، ودوَّار الشمس، نفصفصها معاً حتى فجر القيامة. أنا أقرب إلى نهر نوه آف، الآن، بخمسة أشبار، مذ سكنتُ دار المصكوكات. أضع يدي في النهر فألمسك ياأكيسا. خطواتكِ في الماء. وجهك في الماء. قشورُ البزر الذي تأكلينه يحوِّم في المكان ذاته لصقَ الضفة. أية صِوَرٍ أشرقت من خيالكِ على خيال عينيك المنطفئتين قبل غرقك، ياأكيسا؟ أكنتُ، أنا، في صورة منها؟ أكنتُ في الضوء العابر من الحياة إلى الموت، معك، ياأكيسا؟ وَيْحي. لم أكن أتجاسر على النظر إليك، وأنت تتكئين على عتبة بوابة بيتك منكسرةً ياأكيسا. مُذ انحسرتِ الأشكالُ عن بصرك حسرتُ بصري عن الأشكال. أنا لاأرى ياأكيسا. أنظرُ ولاأرى. هي سنة، الآن، على رحيلك. هرمتُ."، قال دلشاد ذائباً.

على تلٍّ، شرق سوق كلاس بنصف فرسخ، قامت المقبرة الذهبية - مقبرة الشيخ نَاصُوْلْ الغاضب على الأمم البائدة والسائدة معاً. هناك، قرب شجرة التين، على بعد تسعة أذرع من قبر أكيسا، دُفن مهران ذو اللقب الأزرق. في اليوم التاسع عشر بعد دفنه، الذي صادف سنةً على رحيل أكيسا، زار دلشاد قبر الأمير. قرأ الفاتحة على عجل، ثم تحوَّل

عن قبره إلى قبر أكيسا، الذي لم يزُره من قبل قط. عشب خفيف، متأدِّب على مسارات الموتى، نهض عند رأسها وقدميها. زهرة قصيرة العنق، زرقاء صغيرة، بزغت من الوسط. قطفها دلشاد معتذراً ليعود بها إلى زوجته زلفو.

ستة وعشرون يوماً، قبل موت مهران، تزوج دلشاد من زلفو - المرأةِ المخضَّبة بشعاعات من لون أمها. مهران أوقع بزوج زلفو الأول. فصَّل له ثوبَ الطلاق على مقاس استدراجه إلى الغضب. أرسل إلى الزوج، المجروح من بقاء زوجته ذاهبة آيبة من كلاس إلى كلاس، سطراً من ملح على لسان بريده الآدمي: "ياعزيزنا الذي نحبه، ونحب قرابته، ونفضِّله على فيالق من شُبان جنوب الأناضول وشماله المصارعين، الغالبين، في أعياد الربيع؛ ياعزيزنا، لو لم تكن غبياً، جاهلاً، فقير البصر، صدىءَ العَظْم، مُنْحَلَّ اللحم، مثلوم اللسان، متآكل العصب، فارغ القحفِ، أعرَجَ الهمَّة، مُقدَّدَ الخصيتين، حماراً، لا، بل نهيق حمار؛ لو لم تكن عجيناً متفسخَ الخميرة، تبغاً مبتلاً، ثؤلولاً، بندقية بلازناد، شَعْراً على أنف امرأة عجوز، لأَرَحْتَنا".

صُعق زوج زلفو من النبرة الهادئة التي أنزل بها الرسولُ كلماته قطراتٍ من زيتٍ يغلي في أذنيه. التفت إلى أبيه وأمه منكوبَ اللسان يستوضحهما مالن يقدرا على توضيحه: "أُريحُه مِمَّ؟". هُما صُعقا أيضاً: "أهذه كلمات جناب مهران؟ كيف حفظتها؟"، ساءلا رسولَ بريد مهران الآدميّ، فرد بنبرة اللسان المُدرَّب على تهارُشِ التوريات: "المطرُ الكفاية يذكِّر الأرض بالعشب، فتُعشِب".

صعد الكون ونزل مراراً، كاليَسْروُعِ، على غصنِ قلب الرجل، زوج كلفو. كونٌ صقيعٌ، مهجور، موحشٌ، مريبٌ. "أُريْحُه مِمَّ؟ أيقصد أن أمنعها، عنوةً، من الذهاب إلى كلاس، ياأبي؟"، قال الرجل، فرد الأب: "ربما الأمرُ هو هذا".

"أمْ تظنين، ياأمي، أن أطلِّق زلفو لأبدو رجلاً لائقاً برجولته التي تريح مُحترماً مثل مهران؟"، فردتِ الأمُّ: "ربما الأمر هو هذا".

"لا. الأرجح أن أقتلها. هذا قصده. ألست ترى ذلك ياأبي؟"، قال الرجل، فرد الأب: "ربما"، ووافقت الأمُّ الأبَ "اقتلها"، قالت بلااكتراث منها لمجازفات الأَحكام.

شحذَ الرجل منجل الحصاد حتى رقَّت شفرته. شقَّ به الهواء فبانَ الشَّقُّ أصفر: "لا"، قال الرجل. "أقتلُها بشيء آخر". جاء بمدقَّة الجُرنِ النحاس: "هذه تهرسُ العظام"، قال. ثم انسحب بخياله القَلِق - خيالِ المؤكَّدات المحجوبة - إلى قلق الأَحكام: "خَنْقاً بوشاحها. لاألم في ذلك. بالمدية المثلومة. لا. الألم لايناسب الحال. هَرْساً بالمدحلة الحجرية. لا. بالبندقية. نعم. ألدينا بندقية، ياأبي؟"، فرد الأب: "لا".

لم يغادر رسولُ البريد الآدميّ بيت زوج زلفو. جلس على أريكة يعاين استعراضَ الأسلحةِ الحاضرةِ والغائبة. جمعَ الوقتَ وسادة واتَّكأ عليها بمرفقه الأيمن. قال له مهران: "لاتأْتني بخبرٍ ليس فيه طلاق"، وهو لن يعود إلى ذي اللقب الأزرق بخبر ليس فيه طلاق. سينتظر قَدْرَ ماتَقْدِرُ خلائقُ الظاهر والباطن على توليد المجهول من المعلوم بحسابٍ من أرقام الشقاء والتَّرف. سيشرب، ويأكل، على الأريكة تلك حتى يستنفِدَ زوجُ زلفو آلات الوعيد اللَّدنةَ، والصلبةَ، والأثيرية بتمامها. لكن الرجل لم يُطِلْ استضافةَ البريد الآدميّ. خرج ساعةً وعاد بشيخ ذي هِمَّة في محاصَرات المُعْضل، يتبعه شاهدان: "إنها طالق، ولتحتفظ بابنتيها". كذا خُتِمَ المقدور في سيرورة بقاء ذَكر وأنثى رهينتَيْ عقْدٍ واحد. ولما خرج البريدُ الآدميُّ إلى سبيل عودته لحقَ به زوجُ زلفو: "أدِّ لي معروفاً أيها الرسول. قُلْ لزلفو إنني سأتزوج من غدي، وسأُنجبُ أطفالاً ناضجيْ اللون"، قال، ثم عاد إلى أبويه مُملَّحَ اللسان من انتصار كلماته، في جدالٍ رتَّبه على مقاسها مع الخفيِّ الصامت.

كان في بغية دلشاد أن يقول لأكيسا، في انزياح بصر قلبه عن قبر ذي اللقب الأزرق إلى قبرها، إن ابنتها تقيم، الآن، في الحرف المُدوَّن، بخيال معناه، على لوح أبوَّته المحتملة لحفيدٍ أو حفيدةٍ لها. كانت النطفةُ المنطبقة من خصائص منيِّه على بزرة الهواء في رحم زلفو قد اختمرتْ، بظهور أعراضِها الكوكبية من مَدٍّ وجّزرٍ على شهوات ذوقها، وحصادِهِ من حلوى أسواق كلاس: أكلتِ الملح صِرْفاً في الأول. ثم أكلت نخالة الذُّرة معجَّنةً بورق القرنفل اليابس وماءٍ ذُوِّب فيه التمر. ثم أكلت أوراق شجر العنب خضراء على حالها. ثم أكلت العسل بالملاعق: "أنا حامل يادلشاد"، قالت له بنبرةِ الرَّحِم الناطقة. لكن دلشاد لم يقل ذلك لقبر أكيسا. لمس خيالُهُ الصامتُ خيالَها الصامتَ بشعاع من لون الزهرة الزرقاء، التي اقتطفها. تمتمتْ أعماقه: "أنت تعرفين كل شيء ياأكيسا. رحمُ ابنتكِ هي عينُ رحمكِ الناظرةُ من غمام جسدها الكثيف إليَّ".

"لن أموت وأنت أعزب"، قال ذو اللقب الأزرق للصاعد سلالم الترجمة. "ستدفنني بصحبة أولادي، وكتفك تلمس كتفَ امرأتك. ادفن معي ورقتين من كتاب سالوحي، لأقرأهما، في ليلتي الأولى، على مِلَلِ العلم المستور الخالد. سأعرف الكثير هذه المرة؛ الكثير بلاحدود. وسيكون الصحيح في ما أعرفه هو الموت: يادلشاد، أحسُّ بوعكة هي أثرٌ من وعكة المجهول إذ يرانا مقبلْين إلى خلوده. ليكُنْ: الفناءُ يتوعَّكُ، ومثلُهُ الخلود يادلشاد. فماذا ترتأي؟".

"أرتأي ماذا عن ماذا؟"، ساءله دلشاد.

"عن وعكتي - وعكةِ الختام هذه. عن زوجتك القادمة. عن تفضيلك لصفحتين من كتاب سالوحي. عن فنائنا". قال مهران، فأبدى دلشاد عجزَ خياله بصورٍ نقشها بيديه على لوح الجواب الملجوم: "خلطتَ عليَّ السماءَ ياجناب مهران. علومي مأمورة بالمشي على مقاس خطواتي بين بيتك، ودار المصكوكات، وسوق كلاس".

نظر ذو اللقب الأزرق، المتكىء بظهره إلى عوارض سريره النحاس ـ معدنِ الخيبة المترفِّع، إلى أبنائه، وزوجه التي تفيق مرتين في اليوم من غيبوبتها، ثم تعود إليها: "العِلْمُ ملاكٌ مأمور. عِلْمٌ ناقصٌ لاينبغي وضْمُه بالُمعيْب. العيبُ، ذاته، من ملائكة الأحوال المأمورين. والنقصانُ ملاكٌ مأمور، يادلشاد. لكن أجبْني الآن: متى تتزوج زلفو ـ امرأتَكَ منذ البداية؟".

ستة وعشرون يوماً، قبل موت مهران تزوج دلشاد من زلفو.؟ غضب دينان ـ مروِّض المصكوكات إذ عُرضت على بصر خياله التائه صورةُ ابنته مختلطَة اللهاث بلهاث دلشاد، وهما ينقلان جسديهما من خندق الوجود إلى حِضْن الكُليِّ، ثم يعودان فيقذفان بهما من أسوار الكليِّ إلى خندق الوجود. كاد يسمع نبضَ قلبيهما المخْتَطَفينِ إلى التعب العذب؛ هي تسكب نَفْسَها في قارورة عنصره الناطق، ويسكب نَفْسَه في قارورة عنصرها الناطق، من قُمْع خواصِّهما الأزلية، نقيَّيْن لذَّةً.

غضب دينان. دار على نَفْسه دورةَ الحقائق في مُرْتَكَزها المُفْتَرَض على معدن الزمن القرْصِ، ثم ضرب على وركيْه براحتي يديه: "أَذَبحتم مِلَل الأرض حتى لم يبق عليها غيرنا وغير هذا الترجمان؟ زوَّجتموه بيتَ مهران، ودارَ المصكوكات، ونهرَ نوه آف، والجسرَ. والآن دورُ بيتي. ألا فروجَ لبنات كلاس تتَّسع لقلم رسول السالوحي؟". كانت تلك كلماته التي اعتصرها من عنقود ظلامه الناضج، أمام سهمد، ابن مهران الثالث بالحساب المضبوط على رحم أمه نوفاجان. لكن زلفو لجمت دورة أبيها المرتكزة على فناء الشَّكل في محجريه القابضينْ على مُطْلَق اللاَّصور: "لو عَمِيَ لسانُك ياأبي، لابصرُك"، قالت موبِّخةً، فاستعاد مروِّضُ المصكوكات حضورَه إلى ذهول يقينه الصامت. انكفأ مُطْبِقاً على نَفْسه صَدَفةَ السطر الممحو؟ على لوح نوه آف.

أعلن مهران، ذو اللقب الأزرق، في اليوم السادس بعد العشرين

من زواجِ دلشاد وزلفو، أن "الخيرَ الهائج لايلجمه إلاّ الشرُّ الحكيم".
كذا بدأَ نهارَهُ ـ نهارَ النُّورِ الأنثى في حال الطلق، وهي تشهقُ في دفعِ الموتِ ـ وليدِها من الرحم الذي انتظر مهرانُ نضوجَ نُطفة الحقائق فيه. "إنني أَلِدُ من هناك"، قال مشيراً بيده اليمنى إلى النافذة، وهو جالس على الأريكة باسترخاء، قرب قدمي زوجته نوفا جان السارحة في غيبوبتها. "هذا النهارُ هو أمِّي".

أولاده الأربعةُ، كانوا هناك. أحضرتهم زلفو على عجل. مامن عوارض ظهرت على جسد مهران، أو خياله، قبل ذلك الصباحِ الأنثى، قادمةً من بستان الجوهر ذي الثمر الناضج من رِواءِ الموت. استيقظ فنادى الخادمينْ اللتين باتتا تنامان في داره، منذ نقشتْ نوفاجان على جِصِّ كيانها أرقامَ الغيبوبة الثلاثة عشر، موزَّعةً على مفاصل العظام. "فلتطلب إحداكن زلفو من دارها"، فجاءتْ زلفو عاهدةً بابنتيها إلى دلشاد.

"اطلبي الأولادَ يازلفو"، قال، فهرعت إلى دار هيمام، الذي تولى أولاده المجيءَ بأعمامهم الثلاثة الآخرين، الذين حين أحاطوا بأبيهم فتح ذو اللقب الأزرق راحة يده اليسرى أمام أبصارهم، كأنما يُريهم شيئاً: "أترون هذا؟"، فردّوا: "لانرى شيئاً ياأبي، يدك فارغة"، فتأفَّف: "كيف لاترون؟. هذه بذور العِلْم واضحةٌ كأسنانكم المصفرَّة من دخان التبغ".

منذ سكن القلبُ الحديدُ لقطار ملاطية استوحشتِ الأرضُ، المنبسطةُ على جانبي السكَّة. شجر الأكاسيا المدمنُ دخانَ الفحم، لم تلائمه عوارضُ نقاء الريح. هَزُلَ وتهدَّل. طيور اليمام، ذوات الأطواق الخضراء، المُنْتَدَبةُ من كَهَنَة الطير لتأويل جوهر البرِّ، اشتبه عليها السكونُ ـ مُكَمِّمُ الخفيِّ الناطقِ بلسان الظاهر الأخرس. كان صوتُ قطار ملاطية توضيحاً لِما لم يقدر اليمامُ على توضيحه لكهنة الطير عن حركة

الأفلاك المسحورة بهذيان الأرض. لم يكن صوتاً صوتُ قطار ملاطيه؛ كان إصغاءً صاخباً إلى حكمة الخلود الخجول، وهو يؤثِّثُ منازلَ أحفاده في حدائق المجهول، بأثاث الإنسان.

سَكنَ قلبُ القطار، فسكنتِ الأرواحُ المتجادلةُ على جهتَيْ سِكَّته. نَزَعت الأحوالُ عن أبدانها صِفاتِ الأحوال، وتناومت في الظل المتشقِّق لسماء الخلافة المتشققة فوق الأناضول. شاخَ الهواءُ هناك.

"أحلامي تشيخ، يادلشاد"، قال ذو اللقب الأزرق للصاعد سلالمَ الترجمة، قبل يوم من نهار النُّور الأنثى. "أحلامي متهدِّلة كلحم متهدِّل. أرى أكياسَ نُخالة ممزَّقة، يادلشاد. أرى البيتَ مليئاً بأكياس نُخالة، والجدرانَ يسيل منها الصمغ. الصورُ ذاتها تتعاقب على منامي". لكنه، حين اجتمع حوله أبناؤه الذكور الأربعة، تَنَشَّقَ غبارَ الطَّلْع من الحديقة الفَتيَّة ـ حديقة النهار الذي أنجبَ الموتَ طريَّاً كالبيضة. "أحلامي شابَّة، وأنا شابٌّ"، قال لهم، فوافقوه بحركات من رؤوسهم، وأسى خفيف في العيون. "الحياةُ وحدها هي التي تشيخ"، تمتم بلسان البسالة المترفِّعة تمشي على ساقين من الخوف. "الحياةُ تشيخ فتُهيننا. لن أقبل هذه الإهانة".

أولاده، الذين عادوا إلى كلاس، بعد أنْ سَكَن قلبُ الحديد الحيِّ على خطِّ الإسكندرونة ـ ملاطية، خفَّفوا عن أبيهم برهةَ انتسابه إلى البرزخ منكوباً بهواجس حقائقه: "أية إهانة، ياأبانا؟ مِثْلُك لايُهان ونحن أحياء. ومثْلُك لايشيخ، ياأبانا، لأنك شبابُنا نحن، وشَبابُ أولادنا". قَنِع ذو اللقب الأزرق، في حذرٍ، بالحصانة الموهوبة من أبنائه. تمتم: "ماالعددُ الذي يحفظه المرءُ من الأسماء في حياته؟". قلَّب عينيه بين الوجوه. "عددُ الأسماء التي يحفظها هو عدد أيام حياة المرء عند أُمَم، وعدد أسابيع حياته عند أمم، وعدد شهور حياته عند أُمم، وعدد سنين حياته عند أمم". زفرَ الهواءَ في هدوء من رئتيه، ومات.

في اليوم الرابع بعد موت مهران، حين خفَّ قليلاً حصارُ المُعزِّين، ولانت كلماتُ الأسى الصلبةُ على الألسن، وتراجع الشهيقُ والزفير إلى مرتبتهما الواحدة كأنفاسٍ محسوبة في الرئة بقياس عاديٍّ؛ حين توطَّد ذلك خلسةً بين دخولِ الموت المأمور بإعانة الحياة على خدعتها، وخروجه من دار مهران، حزم دلشادُ يقينَه القَلِقَ برباط لسانه، مزمعاً أن يُنجز لخياله انعطافاً من سياق بلدة كلاس إلى سياسيل. مالَ على هيمام ـ بِكْرِ خزانةِ نسلِ أبيه: "أفكِّر في العودة، مع زوجتي زلفو، إلى أهلي، ياجنابَ هيمام".

نظر الرجل الآتي من معاصر الخطوط التركية إلى دلشاد نظرةً فارغةً من مقادير المعاني وتوابلها. كَلَّم الفراغَ بحروف الجفاف العشرة المُخْتَزَلة: "لماذا؟".

"أطلتُ المكوثَ هنا. انتهت الترجمة. لاأجد مسوِّغاً للتطفُّل على كَرَمكم أكثر"، قال دلشاد.

"عندك زوجة، يادلشاد، وهي حامل الآن. ولكَ بيتٌ"، قال هيمام، ثم انعطف بكلماته صوبَ نداءِ الفيض العاقل: "دار المصكوكات هي هبةٌ لك. سنكتب صَكَّ تمليك عند دفتردار السراي بأضنة نَفْسها، ممهوراً بخَتْم النَّقْل مِنَّا إليك. أما الترجمة، يادلشاد.."، توقف لسانُه مفسحاً للسان نظره تذوُّقَ الطعوم الخفية في قُدُورها الخفية: "وُلِدَ كتابُ سالوحي لنُتَرْجِمه حتى فناءِ أهل هذا البيت، يادلشاد".

سقطت ابتسامةُ دلشاد في يديِّ العبث. نبتتْ بستة وثلاثين لوناً صبغت فَمَه: "انتهت الترجمةُ ياجنابَ هيمام. انتهت. انتهت. وضعتُ، منذ زمن، آخرَ نقطة، في آخر سطر سلَّمْتُه إلى المغفور له أبيكَ، في..."، فقاطعه الرجل المتدرِّج بين مراتب الخطوط: "من منكما يُقْنِع الآخرَ بانتهاء الترجمة، يادلشاد؟ أنت أم سالوحي؟".

لم يفهم دلشاد تورية العقل المتلاعب بمقادير معادنه. نظرَ إلى هيمام نظرةَ الجدال المروِّض، وأغلقَ بصرَ قلبه على صِوَر التسليم: "إنني أُقنِعه بالمضيِّ في الكتابة، وهو يقنعني بالمضيِّ في الترجمة، ياجناب هيمام. لن يتوقف أحدُنا بعد الآن"، قال.

مطلع آذار وضعَ دلشاد أربع ورقات من الترجمة بين يدي سَهْمَد، في المجلس الجديد بدار الأخ الأصغر نَذْرَتْ. الأربعة الذُّكور من نسل مهران ذي اللقب الأزرق ابتنوا معاصِرَ عنب وتوت في حقول كلاس، مُذْ عادوا إليها من معاقلهم المهجورةِ - محطاتِ الشروق الكبرى في طريق قطار ملاطية. ابتنوا مداجنَ دجاج، ووسَّعوا في الريح لأشجار الكرز الأسود - نبيِّ الفاكهة المتلعثم. وإذِ انتشرتْ بساتين الأكيدُنيا، والزيتون، متجاورة على ضفتَي نوه آف، نزحت إلى المكان أسرابٌ لاتُحصى من طيور الصُّفَّاريَّة، والقَرَلَّى. كثُرَ الذرقُ المُخْصِبُ: البعوضُ، وديدان اليَسْروع الخضراء، ولُبابُ زهر اللاذن، وجنادب حقل العشب المسحور، تمازجتْ بثوابت كيْلُوْسها عقولاً من آداب النبات والحشرات في ذَرْق الصُّفارية الأخضر المصفرِّ. ذرقٌ حالِم حمله الذبابُ طريّاً، والريحُ جافاً، إلى مصائد الشهوات في أثلام الأرض الرطبة. تفاقم الهوى، وساد السِّفَاحُ الطاهرُ في شرع البساتين.

الحلزون، والصَّدَفُ، والقواقع، وذبابُ الماء، والدعاميص، وبَيْضُ السمك والضفادع، وصِغار الحنكليس والسلطعون، تمازجت بتمام ماهيَّاتها المائية في أحشاء طيور القرلَّى. حقائقُ الأغذية ختمتْ محاوراتِ الغذاء بنقل نصوصها إلى الذرْق اللزج، المنساب خيوطاً بيضاء على أوراق القصب قبل أن يتجمَّد. وما سقط منه على الأرض فنَّد شكوكَ بذور النبات، فانطلقت بآلاتِ يقينها إلى توليد جذورٍ تخصُّ برهان البذرة على خلود نقصانها.

طيور أخرى أحكمتْ، بأَعدادِها المعتدلة، سلطانَ الذَّرق المؤيَّد

بمَلَكَات العافية في الهَضْم. ذَرقٌ غذاءٌ هو عينُ الحياة المبصرةُ خصائصَ العناصر: اللقالقُ رَمَتْ إلى الأرض سَلْحاً فيه خيالُ السحالي المأكولة. الغربان ألقت إلى الأرض سَلْحاً فيه طَرَبٌ من أناشيد الجنادب، وعلومٌ محفوظة ادَّخَرَتْها عقولُ الخَراطينُ الحمراء. الوزْشانُ رمت إلى الأرض سَلْحاً فيه من فَضْلَة الذباب المروقُ، ومن فَضْلة العناكب الهرطقةُ، ومن فضْلة القَرَنْبى الكتمانُ. الشحارير رمت إلى الأرض سَلْحاً فيه شكوى الكرز، ودلالُ توت العُلَّيق. طيورُ الهدهد رمت إلى خزائن التراب سلحاً فيه من بذر نبات الكَبَر فجاجةُ التسليم، ومن بذر الصَّاصَل استذكارُهُ أرقامَ المُشْكِل الستة، ومن بذر الكَتَّان رفاهُ المشافهات الناعسة. طيورُ الدُّرَّاج أفرغت في قوارير الأرض العريقة سَلْحاً فيه خضابُ فراشاتِ النعناع الأصفر، ونداءُ الزهور الزرقاء في نبات الحُمْحُم.

ذَرْقٌ علومٌ في انقلاب الخصائص على نفسها، وفي استحالة الجوهر الماديِّ، بمروره في أجهزة الهضم، إلى نفايةِ روحٍ هي نَفْخُ الغذاء في بذور الأرض سببَ نشوئها أُمَماً من النبات. وقد سهرت البساتينُ، والحقول المُنْجَزَةُ العافية بأنفاس أبناء مهران، على استخلاص المأثور من عقائد الفاكهة ومذاهب إيمانها، وفْقَ إلهام الذرق ذاته، وإشراق الأكسير فيه من جهة العقل الثالث من مراتب العقول المعهودة المعدودة، التي لايرى سَهْمَد نهايةً لها: "أقفالي، في محطة لاْ لاْ، كانت عقولاً قائمة بحقائق شكوكها. القفل عقلٌ شكٌّ".

منذ حمل دلشاد الورقات الأربع إلى مجلس سَهْمد، الذي اخْتيْرَ من بين سائر إخوته على انتقال عقد السَّمَر إلى بَنْدِ دولةِ بيته، لم يكفَّ الرجل عن انتداب أقفاله على ظلِّ سطور الترجمة. بعد كل سطرين يقرؤهما على الجلساء، يأتي بأقفاله إلى السطر الثالث: "إذا كان لكل شيء ملاكٌ مأمور، فللأقفال ـ قَطْعاً ـ ملاكُها". إخوته المعترضون على مداخلاته قبلوا، وقتاً بعد آخر، ذلك الإقتران بين صِوَر المعدن، في خيال أخيهم، وبين الملائك الصاعدين، والهابطين مدارجَ المكان الشفيف

التائه، بمهمَّاتٍ أو من دونها. حكايةُ العَدَم، التي بسط دلشادُ وَرَقَها تحت حِبْر العقول في المجلس، أفْضَتْ ـ بعد منازعاتٍ من تدبير الكلام البسيط ـ إلى تسامح في أخذ كلِّ شيءٍ مأخَذَ الكناية المتعلقة بسرٍّ كريم. لذلك لم يعد إخوةُ سهمد إلى معارضته بمنطق اللسان، الذي قوَّض حساءُ المعاني الشديدُ الغلَيانِ حسَّ الذوق فيه.

"كان العَدَمُ ملاكاً..."، هكذا بدأت البزرة المستخرجةُ من حبَّة الدراق في بستان سالوحي. بزرة مُرَّة، لكنها المرارةُ الكافية، في علوم النطاسيين، لإغاثة المسموم. تململ الجلساءُ حين قُرِئَتْ موجةُ السطر الأول في إحدى ورقات المساء الثالث عشر: "أليس الأجدى لترجمتك، ياسيد دلشاد، أن تقول: كان ملاكُ العَدَم.. ".

"هذا تدبير السيد سالوحي، أيها الحَضَراتُ الشرفاء. لو أراد قولَ الأمر على نحوٍ آخر لفعل"، ردَّ دلشاد.

"العَدَمُ، كغيره، ملاكٌ مأمور"، تدخَّل سَهْمَد.

"أليس الأمر هو ذاته؟ العَدَمُ ملاكٌ في الحالين"، قال أحد الجلساء.

"لماذا تقاطعونني، إذاً؟"، ساءل سَهْمَدُ الأبصارَ المنتقلة من غصون العقول إلى غصون الأجساد. "كام العدمُ ملاكاً. أوْ فليكنْ: كان ملاكُ العدم قد جمع ملائكةَ عَدَمٍ من طائفته". وتوالت السطور متصادمةً في الهواء الذي عبث قليلاً بظلال الشجر في بستان سالوحي ـ بستانِ المعقول الحاصل من تقسيم مجزوءات الأرقام الظاهرة على مجزوءات الأرقام الخفية. ملاكُ العدم جمعَ قبائلَه على تخوم "المُخْتَصَرِ في حساب المجهول". خطب فيهم بلسان المُلْغِزِ وإشارات الحقائق المُحايدة المعتدلة. أرَّخ بصوته ـ صوتِ المُجَرِّب الكشَّاف ـ لعزلة الكمال الطاحن وكآبته التي توارثها الوجودُ الطاحنُ. ردد في كل نُقْلة بين خنادق المعاني كلمة "الذلّ" مصحوبةً بهياج المجتمعين. ولما توقف عن تدبير المكاشفة في

عِلْمِ اللامعلوم، لم يتوقف تهليل قبائله. تودَّد إليهم بالسكون الناطق في عينيه أن يتوقفوا، فلم يتوقف الهياجُ التهليلُ. عارضَهم بيديه الناطقتين أن يتوقفوا، فلم يتوقفوا. أبدى بَرَمه من تجاهل إشاراته. وضع إصبعاً على فمه تدليلاً على طلبه سكوتَهم، فلم يسكتوا. أدار لهم ظهره وسدَّ أذنيه براحَتيْ يديه، إمعاناً في استيائه من هياجهم، فلم يتوقف الهياج. ضرب بقبضة يده اليسرى ـ يدِ العُزلة العريقة ـ منضدةَ المُمكنات العريقة فتردَّد صدى الضربة تسعة وتسعين قرناً. زفر من منخريه هواءَ اللاتعيين الباردَ، واعتصر ثمرةَ المغاليق الذهبية حتى تهشَّمتْ: "ماالذي تظنون أنكم فاعلوه؟ أوقفوا تهليلكم الناشيءِ عن كونكم لم تكونوا. أنتم تغتالون العِلْمَ الذي استولدكُم مِمَّا لاتكونون"، صرخ ملاكُ العدم يائساً، فلم يتوقف الهياج. نزفَ من مسامِّ نشأتِهِ خمائرَ اللاَّحدوث، اللاتجسيم، اللاَّمعلول، اللاَّبَدْءِ، اللاَّنِسْبة، اللاَّمُتَعَلِّق، حتى ابتلَّتْ أعقابُ الخلائق كلِّها، من مراقي السماء إلى مَعارج الأرض، فلم يتوقف التهليل. رماهم بآلات الوجود الخمس: الأبعاد، اللون، الفراغ، القلق والهلع، صارخاً: "خذوها. إنكم تُعطِّلون الميزانَ الذي كنتموه".

لم يزل دَأْبُ ملاك العدم أن يرمي قبائلَه، كلَّ نشوء جنينٍ آدميٍّ، أو حيوانيٍّ، أو تفتُّق بزرة، بآلات الوجود المُغبرَّةِ الخمس ذاتها. ذلك مادوَّنتْهُ يدُ الحبر في الأوراق التي قُرِئت بلسان سَهْمد، فتوقَّف منذئذ اعتراض المعترضين، عادةً، على الخيال المُشْكل، واختلاط العِلَل، واختبال المَقاييس. سَهْمد، نفسه، جادل قليلاً، في المعضلة المترتبة على حُلْم ملاكٍ، لَمَّا جاءه دلشاد بأقاصيص سالوحي عن حلم ملاكٍ، فلجمه الجلساءُ بالهمهمات: "أتنفي عن الله استطاعتَهُ إلهامَ ملاكٍ أن يحلم؟ إنْ حَلمَ ملاكٌ فهو مأمور بذلك"، قالوا.

"سالوحي جاوز الأمر إلى التطاول بخياله على الممكنات، ياأفاضلُ. أيحلم ملاكٌ حلْمَ إنسان؟ هاهو مكتوبٌ هنا"، وعرض سهمد ورقةً على الأبصار، يتخبط بين سطورها ملاكٌ أصابه الهلع حين سها قليلاً فحلم

أن عليه ثياباً خشنة، وفي يديه اسطرلاب مهشَّم. تصعد في حنجرته حرقةٌ، وتهبط إلى قلبه مرارةُ المغبون. "أنظروا إلى هذه الورقة، ياأفاضل. الملائكة، والحوريات، وغلمان الجنة، معصومون من الإمتحان الذي يعترضُ الآدميَّ. محنةُ الآدميِّ فطرتُه، وفطرتُهُ العصيان".

"ألا تقع كائناتُ الله العُلْوية، المعصومة، في شيء كالذي يقع فيه الإنسان، ياجناب سهمد؟"، ساءله أحد الجلساء بلسان الاستدراج الذَّلق.

"أتُمَاحكني، أيها العم جُّمو؟ المعصوم معصوم، واللامعصوم لامعصوم، فماذا ترى؟"، قال سهمد.

"حين يرفع الصالحون أفخاذ الحوريات، ويشتد ضربُ الخُصى مابين الأَدْبار والفروج، ألايتأوَّهن لَذَّةً كنساء عالمنا؟ أمْ يبقين يُسبِّحن، ياجناب سهمد؟"، قال الجليس، فانفلتت القهقهةُ من عقالها في رئات الجُلساء.

"ماقَصْدُكَ؟"، همس سهمد من تحت شاربيه.

"قصدي أن بعض الكائنات المعصومة سيتذوَّق من نكاح الذَّكر الأدميِّ ماتتذوَّقه الأنثى الآدمية. أَمْ تظن ياجناب سهمد أن لذة الأدميِّ من نكاح الحوريات لن يكون كلذَّته من نكاح الآدميات، بل سيكون نوعاً من التسبيح؟"، قال الجليس.

"فلنتركْ النكاحَ في الفردوس لعلوم الفردوس، ياكرامُ. نحن هنا لنصغي إلى السيد سالوحي بهمَّة جناب دلشاد"، قال جليسٌ ثانٍ مختزلاً تقاطُعات المُعضلة بين لسانَيِ المتجادليْن. خمدتِ الصورُ المُقْتَطَفة من شفق الغيب. انحلَّ اللون عن الشَّكل قليلاً، قبل أن يعبث بأقلام النشوءِ جليسٌ ثالث:

- لاتكون الجنةُ جنةً بلافُروج.

"عرف الله كيف يهديك. عِفَّ، إذاً، في هذه الدنيا، يزْدَدْ قضيبُكَ صلابةً، وغِلْظةً، وطولاً، وانتصاباً. ستحتاج إلى ذلك، أيها الجارُ الصالح"، قال أحد المُتبرِّمينَ ساخراً من المُداخلات، فرفع سهمد الورقة إلى ضوء السراج الذهبيِّ، جانبياً، واسترسل في قراءة السطور الحالمةِ حُلْمَ آدميٍّ في خيال ملاك أصابه الهلعُ إذْ سَهَا فحلمَ.

زلفو، المُخَضَّبةُ بشعاعات من لون أمها، لم تكن تحضر المَجْلِس. نساء أولاد خالتها، وبناتهم، كن يحضرن المُسامراتِ المُثقلةَ برفيف أجنحة لاتحصى من ملائكة يدخلون الحكايات ضَجِريْنَ ويخرجون ضَجِريْنَ. زلفو، أمُّ البنتين الصغيرتين المهقاويْنِ، آثرتْ نَسْجَ قمصان الصوف السميكة للعائلة. كُراتٌ من ألوان الحجابِ ـ ألوانِ الأرض المُخْتَبِلة ـ تدحرجت، بهيَّة، بين الغُرَف، وفوق الأرائك، وعلى صَحْفة الطعام. الطفلتان المهقاوان عبثتا بالخيوط حتى لَفَّتا نفسيهما بها فعادت إليهما، لبرهاتٍ، حصانةُ الشكل الذي فِطْرَتُهُ اللَّونُ. تبرَّم دلشاد، أحياناً، من عَصْفِ الكُرات بالبيت: "يازوجتي زلفو، كُرات الصوف هذه تُرْبكني حين تدخل معنا السرير. أحسُّ بالحياء أنْ ليس لديَّ خصيتان في حجمها".

"لم أسألك عن حجمهما حين تزوجتك، فاطمئنَّ. ولم أسألك إنْ كان لديك عضو في طول سنارة النَّسْج هذه"، ورفعت أما عينيه إحدى سنَّارتيها. "سيكون لابنتك، التي في أحشائي، ألوانُ الكُرات. فلاتتبرَّمْ".

"وكيف تعرفين أنها بنتٌ، يازلفو؟"، ساءلها دلشاد، فردَّت المرأةُ المخضَّبة بشعاعات من لون أُمها:

ـ كان في عينيك حياءُ فتاة ليلةَ زفافنا. عَصَبُ إحليلك لم يكن مهيَّأً ليحمل من مائك إلاَّ مافيه بزورُ الإناث.

حكَّ دلشاد صدره، من فوق قميصه: "لم ألحظ، من قبل، في

لسانك إلاّ العفاف، يازلفو. هاأنتِ تنطقين الكلمات اللامُحْتَشِمة"، قال. فزدت المرأةُ ضاحكةً، وهي تمدُّ يدها إلى عانته: "هواءُ كلاس هواءٌ ماجنٌ".

أُجفل دلشاد قليلاً من جرأتها، ثم غَلَبَه المرحُ فمد يده إلى أسفل عانتها: "تعالي. ساغذّي رحَمكِ ببذور اللون".

خيالُ زلفو كان خيالَ شتاءٍ في ذلك الربيع. رُسُلُ المكاشَفَاتِ الخفيَّةِ وضعوا رسائلَ جليدٍ بين يدي عقلها المُشْرف، من غابة السكون المحموم، على عبور الجياد الأميرية سهولَ كلاس. عَسْكَرُ الأناضول كانوا يجمعون ثلاثة أصناف من أهل الديار الوسطى للجندية: المتطوعين الفقراء مقابل طعام وكسوة. والمتطفلين على مآدب الأعراس، يقتحمونها بلا استئذانَ، حامليْنَ الربابات على ادِّعائهم الإنتسابَ إلى مِلَلِ الطرب، فيأكلون حتى يسقطون أرضاً من التخمة. أما الصنف الثالث فهم الصيادون، العارفون بأحوال البنادق، يكونون قناصين مقابل أجر.

"لن يكون في الشتاء القادم لهبٌ إلا لهب الجليد، يادلشاد. الغابات القريبة لن تكفي لتدفئة هذا الجيش. مامن حطّاب سيأتي إلى كلاس بالحطب. سنحتاج إلى صوف كثير لنتدفّأَ". هكذا وضعت زلفو خططَ الحَذَر غير مفصَّلةٍ بين يدي زوجها. كل خبر تدحرج عبر الأناضول لاهثاً أثارَ جفافاً في حنجرة زلفو. أخبار بوجوه وبلاوجوه، عليها ذرقُ اللقالق المليء ببذور الأجاص، أو عليها غبارُ طَلْعِ الكستناء الجبلي، ذي الثمر المحتشم. السلطانُ الخِتامُ في السلالة، التي صهرت معادنَ التَّوارث العربي للخلافة في صورة طُغراء، وحَملتها إلى خزانة الآستانة ذات الحديد الناطق بلسان العجم؛ السلطانُ ذاك، محمد، السادس في شرعة الإسم المُسْتَنْسَخ بالأرقام، فسخ عقد التاريخ مع الله، وأعادَ حلوى الخلافة إلى أبيها العَدَم يوزِّعها قطعةً قطعةً على ملائك النسيان العشرة. الزمن، الذي اهتدى بالحرف العربي إلى ترتيب

وصايته على نقوش اللسان التركي، بدأ يلحظ، بين السطور اللامكتوبة بَعْدُ، خَفْقَ الخيال المتدرِّج لحروف أخرى في قلب الأرض السلطانية، وانسيابَ الهواء المحمول على عجائب الغرب عبر الدردنيل. سنة واحدة بعد فسخ عقد التاريخ مع الله ستبزغ شمسُ الحروف اللاتينية، بوصايتها، على الإقليم المنكمش كَجِلْدٍ لن يُدْبَغ، وسيُدعى المكانُ، المتبقي من سيل الإمبراطورية الغائر، باسم تركيا الجمهورية ـ نداءِ الغرب في جُبَّةٍ وعمامة.

زلفو لم تخمِّن انقلاباً كذاك في بستان المعاني البسيطة. بقيَ بصرُ قلبها على رُسُل الثلوج المتهيئين للنزول بجيادهم ذوات القوائم الجليدِ، من قمم أراكس، وأرارات، وطوروس، في اتجاه الجنوب المسحور بألاعيب زهر اللاذَن. الإمبراطورية المنحَلَّة مسَّها نَفَسٌ من هواجس زلفو الموعودة وَغداً مجهولَ الأب بشتاءٍ عنيف: أُحيلَتْ ألاتُ صنع الورق في ثلاثة أرباع أرضها، على صمتٍ مفتوح الأجل، واستُقْدِمَتْ جَلَبةُ آلات حَبْك قماش المعاطف العسكرية السميكة، وخياطتها. "مامن ورق في كلاس"، قال دلشاد مذعوراً. "قمصانك الصوف، يازلفو، أوقعت الدولة في الخدعة، وأثمرت البساتينُ معاطفَ". حدَّق إليها بعيني ريْبَتِهِ من مصادفات المعقول: "ماالذي قُلْتِهِ للدولة، يازوجتي؟".

آلات صنع المعاطف كانت مؤجلةَ الدَّفع ترغيباً لأصحاب صناعات الورق في العُدول عن صِناعتهم. المصانع والمشاغل، التي لم تلتحق بنظيراتها في الانقلاب لم تُخفِ حسَدَها. ثمن المعاطف يصل من فوره، فيما انلجمت شهيةُ الحبر إلى التدوين: اصفرَّ الورقُ في مخازنه مرارةً من حظه العاثر. "كم قميصاً أنجزتِ، يازلفو؟"، ساءل دلشاد امرأتَه المخضَّبة بشعاعات من لون أمها، فلم تردَّ. قاست بالأشبار ذراع قميص غير مكتمل، على وقْعِ الألات اللامرئية في مصانع المعاطف، التي باتت تكفي، في الأرجح، لجنود الدولة، وعائلاتهم، وأشجار الغابات، والغيوم النحيلة فوق مضيق البوسفور. فيما يظن دلشاد أن زلفو

أنجزت، بدورها، قمصاناً صوفاً تكفي العائلة تسع سنين، ومن غير أن تخلعها قط، حتى في الصيف. "ربما تكون في الأمر حكمةٌ"، قال الصاعدُ سلالم الترجمة لزوجته.

"في أي أمرٍ؟"، ساءلته زلفو.

"في انحباس الورق عن كلاس"، رد دلشاد، ثم نقّلَ بصر التأويل بين سطور الظاهر المؤجَّل: "هذا إنذار من السماء بنهاية مُرْضِية لقَدَر السيد سالوحي. لقد أنهكناه في اللحاقِ بنا".

"مَنْ؟"، ساءلته زلفو بلافضول.

"سالوحي. أنت لم تحضري قراءةَ ورقةٍ واحدة من الترجمة، ياحبيبتي. سالوحي الجالس على باب السطور. سالوحي، يازلفو. سالوحي، بوّاب "المُختَصر في حساب المجهول"، يازلفو. الترجمة، يازلفو. الترجمة"، قالها لاهثاً.

"لاأفهمك"، تمتمت المرأة المخضبة بشعاعات من لون أمها.

"لم أفهم، أنا أيضاً. لكنني مأمور مثل ملاكٍ مأمور"، قال دلشاد.

حملت زلفو كوكبَ دلشاد الشارد في فَلَك المعاني الشاردة إلى سديمها الذهبيّ. بلَّلته بمرح عينيها: "خُذْ بزراً. صوتُ فَصْفَصَة البزر يفسد على الملائكة الإصغاء إلى عقولنا"، قالت، ومدت إليه راحتَها المفتوحة عن بزر اليقطين ـ ثمرةِ النبات البهلول. تقدم منها دلشاد. قبَّل فمها المُمَلَّح: "سأصغي إلى عقلك من هنا"، ووضع يده على فرجها.

إبنتا زلفو المهقاوان، الصغيرتان، دُنيا، وسَافيناز، ملأتا البرازخَ بين الشرود والفكر في مدار دلشاد، العامل كل صباح إلى الظهيرة على نقل الموازين الأزلية من أسماء الوقت والمكان إلى خزائن تصريفها أفعالاً هائجةً، أو ملجومة، وفْقَ مجازفات لغته الكردية بالأقدارِ ـ تلك الغنائم المُقْتَرَضَةِ من سلطة المصادفات. خلطتا أوراقَهُ مراراً من غير أن تُغيظاه.

سردتا عليه سَرْداً متداخلاً، بصوت واحد، تواريخَ خزائن العقل الأولى ـ خزائن البسائط الصلبة في كمالها، قبل انتقال تلك البسائط إلى خزائن المركَّبات الصلبة في نُقصانها. حاورتاه: "سنجمع القواقع من النهر لنبني بيتاً لأُختنا".

"أأخبرتكما أمكما أنها بنت؟"، ساءلهما، فأجابتاه:

ـ لا. نحن نعرف.

"كيف تعرفان؟"، ساءلهما.

تبادلتا نظراتِ الحقائق الملتجئة إلى عيونهما. ضحكتا ضحكَ غمام: "هو لايعرف أننا نعرف أنها بنت". تأمَّلتاه حذرتَيْن من غَدْر لسانه بعلومهما: "أصحيح أنك لاتعرف؟".

"صرتُ أعرف الآن"، قال، فانشرحتا برهةً، ثم هاجتا وتصايحتا حين حوَّمت فوقهما نحلة شديدة الثقة باقتدارها على استدراج الزهر إلى الإعتراف بماهيات الغيب الثلاث عشرة.

نحلُ الوالي صفوت بكبكيجوك كان الأكثر سبقاً في مِلَل النَّحْل إلى مناجاة الخزائن المختومة بأَقفال اللون في ربيع كلاس. لم يستأذن الطبيعةَ ـ المتأنِّيةَ في ابتكار السطور المثيرة من سَرْدِها لمنهج النَّبات على أسماع البساتين، والحدائق، والسهول ـ كي يبدأ جبايةَ الخيالِ من الأفاويح الظاهرة والخفية؛ الخيالِ المُنْتَحِل أسرارَ الذوق في لسان النهار ولسان الليل: لقد اقتحم ضِفَتَيْ نوه آف منذ أول بزوغ للشعاعات الخضراء، المنبثقة عن الشموس المحتجبة لزهر الهندباءِ البريَّة، والهُرْطُمان، والخُبَّيْزَة الماجنة. هي نباتات تسبق البابونج، أو تزاحمه، في المثول أمام ملاك التصانيف فيعيد تأكيد تصنيفها الدَّوريِّ، باعتبارها أرواحَ تراب مرئيَّةً في أنساق من الطبائع. بعض النبات لايُعاد تصنيفه بموجب حقيقةٍ أولى. يعاكسه الملاكُ بسبب اختلالٍ يصيب الخاصِّيَّةَ من إصغاء النبات إلى

هرطقة طيور الشتاء، فيصنِّفه خادماً مثل البقلة، أو عاملاً بالسُّخرة مثل النعناع، أو أجيراً مثلِ الكُرَّاث، أو محرِّضاً على خلاص العناصر من نِسَب مقاديرها مثل الأفاويهِ. نحلُ بكبكيجوك لايعرف ذلك، لكنه يُباكرُ الربيعَ في نزول الربيعِ من معقل خمائره للتزوُّد بالماهيات الخضراء. وأول نُزْلٍ هو ضفَّتا نوه آفَ.

دَأْبُ دلشاد، وزلفو، أن يصحبا البنتينْ، في الظهيرات إنْ لم يتلفها غيمٌ متوعِّدٌ أو رِيحٌ، إلى نزْهة بين سطور الماء والعشب، المُقْتَبَسَة من لوح العلوم المُرْتَجلة. ملاطفاتٌ، بلاحَصْر، تتراشق بها الحيواتُ الصغيرةُ وأخواتها من الحيوات الكبيرة، فتتلقَّفها الطفلتان في طاستيهما النحاس، اللتين تملآنهما بالأصداف السوداء، والقواقع، والحصى الصقيل أيضاً، وربما دروع سلاحف أكلت حَشْوَها طيورُ القرلَّ والقوق. سَكينةٌ أفقٌ هناك، لولا انكباب الماء على تدوين سيرة الزَّبد بأقلام الصوت. دلشاد يصغي إلى أحوال التدوين ذاك، المنطبقة بهيئاتها على أحوال تدوينه للمتناهي الناطق حول "المختصَر في حساب المجهول"، ظاهرِهِ، وباطنِه، ومافيه، وماليس فيه. لكن السَّكينة كانت معتلَّةً، ظهيرةَ النهار الذي سقطت نحلةٌ من شَبكة ضيائه على شَعر سافيناز دائخةً فهرعت زلفو إلى طردها: أوزال بكبكيجوك، ابن عم الوالي صفوت، خيَّم بأقرباء له على الضفة الشرقية من نوه آف. نصبوا مظلاَّتٍ مخطَّطةً من نَسْج أُمم الصقالبة لسيتدرجوا أرواحَهم الملولةَ إلى الظلال أُسوةً بالغطارفة الإفرنسيين على ضفاف الأنهار، وجاءوا بكراسيِّهم ذوات المساند المحشوة بقطن الفرات ـ قطنِ الشكوكِ المعذَّبَةِ برقَّتها. رسموا النارَ أجساماً في الهواء، ملتصقةَ الأقدام بحطب الحور، ونصبوا أنصافَ خراف أربعةً ـ خرافِ الشهر الثاني من مولدها ـ مشطورةً من الأعناق حتى أعجازها المنتهية بعناقيد الشحم، المعافى أبيضَ يتلألأُ على بلّوره قَدَرُ اللهب المعافى؛ نصبوها مصلوبةً على أعمدةٍ مركوزة في الأرض، مائلة باتجاه الحطب المُوْقَد كي تُشْوى في هبوب الوهج عليها بأناةٍ.

سال لُعاب دلشاد، وابتلَّ العِرْقان الزرقاوان تحت لسان زلفو. دوَّن ملاكُ الطَّعْم، المأمورُ باستقصاء دهاءِ الأذواق وأخاديعها، شيئاً على لوح الدخان بحبرٍ من ذَوْب شحم الإلية - أميرِ الشحوم. "عربات"، قالت البنتان، وعدَّتا بإشارات من أيديهما سِتَّ عربات جلس قرب عجلاتها ستة حوذيين، يغزلون بدخان لفافات التبغ خيوطاً لإزار الهواء العاري. الجياد ظلت في مقاودها غيرَ مُسَرَّحةٍ. سارَرَ بعضُها بعضاً، بكلام الخَلْق الصامت، عن أحوال الحيوانات الشُّعراءِ، والحيوانات المُغَنِّين. والحيوانات المعماريِّين، والحيوانات المشغولة بالفلسفةِ - الطبائعِ المُرتَّبةِ وفْقَ موازين العناصر، ومثاقيل الحواس التسع. ثم رفعت رؤوسها المنخفضة حين فرقع سوطٌ فوق صفحة الماء: جُرِحَ المسيلُ برهةً والْتَأَم. فرقعَ سوطٌ ثان. تراجعت البنتان قليلاً، محدِّقتينِ في ريبةٍ إلى الرجال المتأنقين، ذوي الطرابيش، يتناوبون على ضرب الماء بسياط الحوذيين. كانوا يضحكون ضحكاً مكسوراً في غلالة الشعور بضراوة الفعل الأَخْرَق: معاقبة النهر. وإذ انتهوا من التناوب على تدبير العقاب الغامض، أفسحوا للمرأة الوحيدة معهم سبيلاً إلى الضفة كي تُنجز القصاصَ الختامَ، فتقدمت الأنثى المعتمرةُ طوقاً مجدولاً من المُخمل المذهب ينسدل عليه غطاءٌ من كتانٍ شفيف. ضربت النهرَ بالسوط مرتين.

"لماذا تضرب هذه المرأةُ النهرَ؟"، ساءلت البنتان أمَّهما، فردت زلفو: "تضرب النهرَ من شدة قلقها".

لم تفهم البنتان المهقاوان نزوحَ الألفاظ، في الخيال، من التيه إلى التيه. أعادتا صوغَ المعقول: "جدَّتُنا غرقت في النهر، فما ضربْنا النهرَ".

تناهى اللسانُ التركيُّ صقيلاً في ندائه من الضفة الشرقية: "سمعت أنك تترجم كتاباً؟"، قال الصوتُ، وأَلْحَقَ سطرَهُ الملفوظ بإضافةٍ ملفوظةٍ: "دلشاد. إسمك دلشاد، أليس كذلك؟".

"بلى"، ياحضرة بكبكيجوك. إسمي دلشاد؛ ابن السيد شاهنور من

سياسيل، التي سمعنا أن الطريق إليها لم تعد محسوبة في أملاك الدولة العَليّة. هل الأمر صحيح؟".

تجاهل أوزال بكبكيجوك الشفرةَ اللحمَ في لسان دلشاد. ساءله ثانيةً: "ماذا تترجم؟".

شدَّت إحدى البنتين سترةَ أمها: "لماذا لم نضرب النهر على مافعله بجدتنا؟".

"ليس ذنبَ النهر أن يغرق فيه الناس"، ردت زلفو.

"إنه ذنبُ الماء، إذاً"، قالت إحدى البنتين.

"نشرب الماءَ، فلانغرق"، ردت زلفو.

"إذا شربنا النهرَ نغرق"، قالت البنتُ الأخرى بتأكيدٍ من صوتها - صوتِ المعادن المعقولة إذ تتهامس في خزائن المعقول.

تقدم دلشاد إلى حافة الضفة الغربية. تأوَّه العشب الغضُّ، المتوالد من خمائر ذاته، بالتعاقب الذي يُرضِع به الليلُ الثديُ السيِّدُ النهارَ المأجورَ. خَفَتَ خريرُ الماءِ، وأصغتِ الضفتان: "أترجم كتاباً من السريانية إلى الكردية، ياجناب بكبكجيوك".

"جهد ضائع. من سيقرأ الكتابَ بالكردية، ياجناب دلشاد؟"، قال أوزال، فارتجف الإنتفاخان تحت عينيه المسهدتين من أخبار العوالم المتناحرة بشفرات التاريخ الرهيفة، ومعاوله، وكلاليبه الحديد التي يُعلَّق إلى نصالها المعقوفة بلدانٌ وأُمم. نيزكُ الإنتداب الفرنسي كان يقضم، في انقضاضه الناريِّ الساحق، رغيفَ الأستانة من حوافه الجنوبية الغربية - قوسِ البحر الأبيض وسماءِ سهول القمح حتى جزيرة الكُرد العائمة على اللامياه، تحت نهد طوروس الفَلَكِ الشاسع. أقرباء أوزال، وأوزال نَفْسُه، بدوا في جلود أشباح تطوِّقها اللِّحى القصيرة، المشذَّبة بإتقانٍ من علوم الحلاَّقين - كَهَنةِ العافية المخذولة من تكرار استحضارها في تزيين

الوجوه والرؤوس. المرأة كانت أقل اكتراثاً بخصائص الشروق والمغيب في جواهر الوجود غير الصالحة لنظمها عقوداً للنساء، أو سُبَّحاتٍ للرجال. مشت إلى الضفة حتى جاورت أوزال. ابتسمت للعائلة الصغيرة على الضفة الأخرى.

"أيفرح النهر، أم يحزن، إذا غرق فيه أحد، ياأماه؟"، قالت إحدى البنتين، فضمت زلفو رأسَ البنت إلى خاصرتها: "مايُفرِحنا يُفْرِحُ النهرَ، ومايُحزِننا يُحْزِن النهر، ياعمري".

"أَحَزِن النهر لما غرقت جدتي فيه، ياأماه؟"، ساءلت البنتُ أمها، من جديد.

"بكى النهرُ"، ردت زلفو.

أزاح أوزال طربوشه عن شعره القصير. حكَّ صدغَه: "جهدٌ ضائع"، قال ثانية، فصرف دلشاد بصرَه عنه إلى الماء. عاينَ الممكناتِ المتماوجةَ في عبورها الساحر: "هذا جهدي، ياجناب بكبكيجوك. وأنا أَخْبرُ به إن كان ضائعاً"، ردَّ.

"إسمعْ ياجناب دلشاد. لديَّ جدَّة من أصل كردي. أمها كردية. مازالت حيَّة، لكنها تهذي بلغة أمها. كلما قالت شيئاً أشارتْ إلى أسفل. ماذا تعني هذه الإشارة بلغتكم الكردية؟". قال أوزال.

"تشير إلى خسارة عمرها، ياجناب بكبكيجوك"، ردَّ دلشاد.

"إحذرْ تورياتك، يابنيَّ"، قال أوزال.

"إنني أترجم، ياجناب بكبكيجوك"، ردَّ دلشاد.

"تقع أخطاءٌ في الترجمة، بين حين وآخر. ألا توافقني؟"، قال أوزال.

"بلى"، رد دلشاد. نقلَ بصرَه ـ بصرَ الصور المُنْتَشَلَةِ من غَرَقِ اللون ـ إلى أقرباء أوزال المنصرفين إلى شُرب كؤوسهم: "وجودكم هنا خطأٌ في الترجمة"، واستدار ماشياً باتجاه زلفو.

"ماذا قلتَ؟"، ساءله أوزال مستوضحاً، فلم يُجبه الصاعدُ سلالمَ الترجمة. "تعالَ اشربْ كأساً معنا قبل العاصفة أيها الترجمان"، قال اللسان التركي، ثم قهقه ملتفتاً إلى المرأة المجدولة من ألياف الهواء بجواره: "النهاياتُ لاتحتاج إلى ترجمة".

طاردت البنتان المهقاوان عنكبوتاً خلا مزاجه من المرح. السماء، التي علّقت، من قبل، قناديلَ من سحابٍ أبيض، عادت فأطفأتها. أسراب متفرقة من غيم أسود أثارت غباراً أسود في حظائر الأعالي الزرقاء.

نزلت قطرة مطر على أنف زلفو. فتحت يدها تلتقط حبرَ السماء الشفيفَ: "أمعك بزرٌ، يادلشاد؟ أُحب فصفصةَ البزر في المطر"، قالت.

" متى حملتُ بزراً في جيوبي، يازلفو؟"، ردَّ دلشاد.

قرصت زلفو عَضدَ زوجها: "ولِمَ لاتحمل بزراً؟ جيوبك فارغةٌ على أية حال".

مدَّ شبحُ أكيسا قبضتَه، من أعماق النهر، إلى سطح المياه. فتحَ راحتَه فانفلتَ في المجرى خيطٌ من بزر اليقطين ـ ثمرةِ الدَّورة الهيولى:

"لو خلا لنا السوقُ..

ماذا أفعلُ بكَ لو خلا لنا السوق؟

سأعيدُكَ حقلاً فيه ماأشتهي من بطيخ الله وشمّامه،

وسآخذ من بزرك، بعد تمليحه، مايكفيني لعبور البحر".

توقف دلشاد. نظر إلى النهر: "أتسمعين غناءً يازلفو؟".

شدته المرأةُ المخضَّبة بشعاعات من لون أمها: "تعال. لاأسمع غير الشتائم تتبادلها الملائكةُ والغيوم".

الفرسخ الثامن

(إِقْفِيْسُوْبْ حَشْبُوْتُوْ دِلِيْتَوْ)

رتب دلشاد المجلدات الإثنين والخمسين من "المُخْتَصر في حساب المجهول"، وفق أفاويح الأرقام الزمنية، داخل التجويف المستطيل في جدار البيت. كانت أنيقة بأغلفتها الصلبة المضغوطة من نشارة خيالات أربعةٍ: خيال شجر الحور، وشجر الرمان ـ خطيبِ ثمر الصيف المفوَّه، وشجر التوت، وقصب المُنْحَنيات النهرية. تمازجتْ تلك الأخيلةُ النشاراتُ في عجينٍ من صناعة أهل حلب، جُمِلَ، بعد جفافه، ألواحاً ليِّنة إلى كهوف الورّاقين المُضاءة بمصابيح الكهرباء ـ عقلِ النور المُسْتَحْدَث بشرائع النار الباردة، حيث يُفصَّل منها بهاءٌ حافظ للورق من تَلَف التقليب.

أكثر من أربعين سنة أبقى دلشاد مجلدات "المختصر" ـ التي تنامت بزيادة مجلَّد كل عام منذ حرث بمحراث قلبه أول سطر في كتاب جرجيس لوقا سالوحي الصغير في عدد ورقه ـ رهينةَ أغلفةٍ جلودٍ فصَّلتْها زلفو ذاتُ اليدين الحاذقتين في إثارة الريبة المتبادَلة بين الشكل ونظامه. قلمُ دلشاد ـ اليراعةُ المتَّخذة من الريشة الشوكية في حيوان النيْص ـ فتَّق كستناء الحروف عن لُبٍّ أخضر لتتجاور كنبات الحقل في تأليف العنوان الصارم، وتحته الرقمُ المتوارَثُ عن الجَدِّ الأوَّل ربيبِ الشكِّ المعصوم. لكن الآلات المحلِّقة بأجنحةٍ من الزيوت المعدنية، والصخب الرتيب، استدرجت مجلداتِ المترجم الشيخ من كهفها ـ ذلك التجويفِ المؤطَّرِ بالكلس المخفوق في عصارة نبات النِّيل الزرقاء ـ إلى غواية الزخرف الأنيق. زوج زُوْزَان، ابنة دلشاد الوحيدة من صلبه، حمل

كوم الورق المنفصل بعضه عن بعض بجلود مخدوشة في صندوقين من خشب الكينا، على المقعد الخلفي لدراجته النارية السوداء، إلى سلطان التجليد الأرمني أَرْتِيْن، في مشغله المشرف على ضفة نهر جغجغ الغربية: ضمَّت الآلاتُ الورقَ رزمةً إلى أخرى بسلوكٍ محتشم، وخيَّطت جوانبَ الصفائح تخييطاً وَشِيجاً. يدا أرتينَ تولَّتا، من ثم، تغليفَ كل جزءٍ من "المُخْتَصر.." بسترةٍ صلدة، خضراء، ذات بطانة ملتصقة بوجه الكتاب الواحد وظهره، قبل نقل العنوان، والتعاريق الزخارف إلى السترة الصلدة، مذهَّبةً بضغطٍ من ألواحِ رصاصٍ، نفرتْ في معدنها الكلماتُ الكرديةُ مُنتحلةً نَسَبَ الحرف العربِي.

غائراً برزَ التدوين والنقش. حمل الذهبُ كبدَهُ مضاءاً بحريق الباطن إلى بساتين الأغلفة الخضراء الإثنين والخمسين - بساتين الجهات المحسوبة من أقاليم السيد جرجيس سالوحي، التي ارتاب أرْتيْن في معاني كلماتها، فساءل صهرَ دلشاد: "ماهذه اللغة؟"، فردَّ جَمالو: "إنها الفارسية".

اهتزَّ عِرْقٌ في كبد دلشاد بانعكاس كبد الذهب عليه من أغلفة مجلَّداته حين انتهى من رصفها بيديه الهزيلتين. قلَّص أجفانَه كي يحيط بصرُهُ المنحسرُ في ضباب السنين، بالبهاء ناثراً حول التجويف في الحائط شُهُبَه النورانية كطحين. نادى بلسان حبوره: "زلفو. صارت لدينا مكتبة"، فردَّت المرأة العجوز من غرفة المؤنة: "ذلك القبر، في الحائط، يصلح لدجاجاتنا. إشتَرِ خزانةً من الصوفي مراد، ياأبازوزان".

اختلطت كلمات زلفو بالرعد العدَّاء في ثيابه الحديد من خلجان السماء إلى دهاليزها. دوَّت طبولٌ صغيرة، ثم عمَّ القصفُ، واختلط التقدير على الجمادات والأحياء، حتى انكشف الروحُ المأمورُ بإبلاغِ الوعيد إلى الخلائق المأمورة: هطل بَرَدٌ بثلاثة أوزان متتالية، على تجلٍّ محصولٍ من التشبُّه ببيضة الفاختة أولاً، وبيضة الحمامة ثانياً، فببيضة

الدجاجة ثالثاً. بيضٌ باردٌ، ثقيل، طاحنٌ، فَقَسَتْهُ يدُ الذُّعر عن فراخ بمناقيرَ لَهَبٍ إخترقت سقوفَ البيوت بعمق عقْدَتَيْ إصبع. نهشتِ الشجرَ، والعشبَ، وورق الخضار في البساتين الملتفَّةُ بعضُها على بعض في تَضَرُّعٍ إلى حماقة المعقول أن تكفَّ عن تعطيل المعقول. طيورُ السنونو - الرسُلُ بين طبائع الجهات تمزَّقت أشلاء في محيط السراي الحجريِّ العالي على حافة الإنهدام الترابي المترامي من الجنوب إلى الشمال، حيث الجداولُ الشهود على تقاسم مُنْصِفٍ للحقول بين زرَّاعي الفجل الجشِع، والخسِّ المؤرِّخ، والباذنجان الكتوم، والفلفل المتأمِّل على جبهتَيْ خصائصه الحلوة والحرِّيفة، والقُنَّبيط المجادِل، والملفوفِ أميرِ القضاء، واللِّفت المتوعِّك الطَّعم، والجزر الواشي، والبصل الزاهد، والبندورة المُغْتَلِمة، والبقدونس الشاعر، والثوم الفلكيِّ، والكزبرة العاشقة، والسِّلْق المؤذِّن، والخيار المتذبذب، والكوسا العدمية الطِّباع، واللوبياء الشَّكاكة، والكرفس المؤدَّب، والجرجير العلاَّمةِ في مذاهب النكاح.

عائلةُ النباتِ شُرِّدتْ مِزَقاً، وأَهينْ الربيعُ في مَنْطِقه: مامِنْ علامة باحتْ علانيةً، أو أسَرَّتْ، بالمُشْكل الطائش الذي قَلَبَ السحابَ بهلولاً أخرج الإيمانَ بالمطر عن طوره الأليف، فكأنما نسخ اللهُ وَعْدَ الطبيعة بوعيد المحنة: جُفِّفَ السحابُ حتى صار قديداً أبيضَ، وهُشِّمَ - من ثم - فانهار كُراتٍ بيضاء، أربع دقائق لاغير، في ربيع مفعم عافيةً بعناصر خياله الخالصة اليقين. تبعثرتْ خططُ الحياة، وامَّحى المأمولَ.

قبل أربعين عاماً، بزيادة خفيفة أو نقصان خفيف، اشترى دلشاد بيتَ الآغا شهاب الدين علي كُورَل، المُشرف من التلِّ المنهدم، شمال مدينة القامشلي، على الحقول المتراصفة المقسومة بتفرُّعات الجداول عن نهر جَغْجَغ. خلف الحقول بدت نصيبين، التي تدحرجت منها خُطى عائلة دلشاد إلى الحظوظ الواقعة على الجانب الآخر من قلبها الكردي، في رحلة بدأت من كلاس إلى أُورفا، فإلى ماردين، ثم نصيبينَ - المسرحِ السهل لعبور البغال بالآدميين وتواريخهم، عبر أدغال العُلَّيق والحور،

جنوباً. ممرَّاتُ مهرِّبي التبغ كانت مكشوفة كجمر لِفافات التبغ في الليل. رشوات صغيرة قلبت مخافر الدَّرك الصغيرة إلى مراكز للأدلاَّء يُفْتُون فُتْيَا الأمان، في الجهة التركية من الحدود. وقد بقيت الخرائطُ الترابية متداوَلةً بين أيدي الرجال الليليِّينَ، يتنشَّقون علاماتِها اللامرئيةَ بأنوف طبائعهم، حتى عمدت الدولة، بعد سنين، إلى زراعة ألغام تنبت منها شجرات النار، في الممرات المعلومة من الدَّرك التُّرك. لكن العارفين بأحوال المتاهات نصبوا جُسُوراً برازخَ في سماء الجِيْلة دحرجوا عليها أكياسَ التبغ الكبيرة إلى الشمال من الأرض المُلحقة بسورية، وأكياس خُمر النساء الموصلية، والتمر، إلى الجنوب من الأرض المُلحقة بتركيا. علوم العارفين تلك تواقتت مع إشراقاتٍ في وجدان بغالهم بَسَطت للبصائر الحيوانية رملاً لؤلؤاً على امتداد مسالك علومها، فلم تخطىء، بعد ذلك، في اختيار مديحها اللائق بخصائص الظلام المأمون: تَهَبُه أَشْعارَها، فيَهَبُ الظلامُ البغالَ، في انتشائه ببيان المديح، بصرَ الحِرْز.

في السنة الثانية من نَزْع غطاء الحرف العربي عن لسان مِلَّة التُّرك، بإشراف خيال أوربا من عقل مصطفى كمال على الشرق، جمع دلشاد نمورَ حقائقه الوديعة، ومتاعَ عائلته في صناديق مغلَّفة برقائق النحاس والأزرار المرايا، نازحاً إلى الجهة الثانية من الحدود ـ جهةِ المصائر المُعْتنِقة مذاهبَ اللاتعيين. أبناء مهران ذي اللقب الأزرق حَّملوه حزاماً مفرَّغاً، حشروا في جوفه قَدْر مايستطيع الجوفُ أن يحتملَ من الليرات الرشادية، الصالحة لاستنطاق الزمن، في أي مكان، بما يعرف من أحوال الذهب، ونثروا في حقل عمره بذورَ وصيَّتهم: "لاتقطع عنَّا فاكهةَ سالوحي، يادلشاد. البغالُ ذاهبة آيبة بين قَمَركم هناك، وقَمَرنا هنا"، قالوا، وقاطعوه حين تعلَّل على النحو الذي لم يُقنع أحداً بنهاية الترجمة: "خُذْ كيساً من الليرات الذهب. اشترِ بغالاً، ورُسُلاً، والأرضَ الممتدة على الحدود، من دجلة إلى بحر اسكندرونة يادلشاد. اشترِ دولةً، ومخافرَ حدود، ومعابر بتصاريح قانونية. سننتظر أن تصل إلينا، كل أشهرٍ،

أحمال من الترجمة". تبلل روحُ دلشاد بالغمام المَرِح في اللسان. لم يُقاوم: "ستصلكم"، قال.

بالحرف العربي ذاته، الذي شقَّ، بآلة الشهوة إلى سلطانٍ خالد، مجرى الخلافة من بوابات السراب الكبرى للصحراء إلى معاقل الينابيع المرصودة من رُقباء المياه الأزليين على تخوم البحر الأسود؛ بالحرف العربي ذاته جذَّف دلشاد بقارب أقاصيصه في الجهة الثانية من مرآة "المختصر في حساب المجهول". انقطع عن حراثة سطوره بضعة أيام لاغير، ريثما أعاد تأثيث البيت المُنْتَشَل من مُلْكية الآغا شهاب الدين الغريقة إلى مُلْكيته المُسْتَظْهَرة في برِّ أرض الجزيرة شمال سورية، بأوراق خُتِمَتْ وحُسِمَتْ منابتُ أصولها بأوراقِ نَقْدٍ: أوراقُ التوريث الرسمية مقابل أوراق المقايضة الرسمية: جهةٌ أختامٌ، وجهةٌ صورٌ ولون. كاغِدٌ أبيضُ رثيْثُ الحال، تسنده الإمضاءات العَليَّةُ بأسباب الشرع كعقدٍ، وكاغِدٌ أُعيدَ تدريب اللون فيه على عصيان مراتبَ من المُطْلَق، فكُلِّفَ جوهرُه العرضيُّ بتداول العناصر بيعاً وشراءاً، بهيبة كونه ورقاً معافىً بالمُطْلق الخفيِّ فيه.

بيتٌ لم يشبه بيوت الطين، المتناثرة من حوله. كان ذا طبقتين بُنِيَتَا من قوالب اللَّبِنِ المرصوفة عَرْضاً، فاتَّخذ البناءُ ثخانةً في جدرانه، وسِعَةً في أرجائه. طُوِّق الفراغُ النَّهِم على مداره بسُورٍ شُكْرٍ للخفيِّ الحَصِينْ كي يقيم على رَحْبٍ فيه، ورُصِفَتْ جنباتُ المعابر الدائرية بين شجر الصنوبر الإحدى والعشرين سطورُ الآيات، المُقْتَبَسَةُ من مصاحف الحدائق الجليلة: سطورُ الشاهْتَرَج ـ العناقيدُ الناطقةُ بإيمان اللون؛ وسطورُ الخَطْميِّ ـ النباتِ المُرْشِدِ في محاريب الزهر؛ وسطورُ البَرْواقِ ـ عقلِ الزنبقيات المُفَسِّر، مُتمِّم الشروح الناقصة في المتنِ الكاملِ لظلال الصيف؛ وسطورُ شَبِّ الليل ـ الزهرةِ الجاريَة لاتتفتح، أَدَباً، إلاَّ للمُعَلِّم المغيبِ. وسطور الأقحوانِ ـ خيَّاطِ السراويل الواسعة لهواءِ الربيع؛ وسطور الفُلِّ ـ جليسِ الطيوب المُنصتةِ إلى أشعار الماءِ المُتَهَتِّكة؛ وسطور

المردقوش اللاموثوق في تدوين الأنساب لأعراق زهوره المتشابكة.

قبائل أخرى من نبات اللون الناطق حلَّت في حديقة البيت بآدابها الأزلية، وسلوكها ـ سلوكِ البذور الأولى في عِلْم الوجود بسلوكِ البذور. ميرزا ياكوبو؛ البستانيُّ الأشوري، المتحدِّثُ بعربيةٍ مهجورة من معاني مفرداتها تولى حديقةَ دلشاد أولاً، ثم تولاها، في حقبة أخرى من تدوين سطور الآيات النباتية، بهيج الديموني، الشرطيُّ في مخفر القامشلي، الذي ورَّث ابنه البكر هنانو خفايا المشافهات المُلْغِزة في لغات الزهر، وتوريات الأريج. كانا يتناوبان على تدبير اليقظة، في ثلاثة فصول من العام، للأرواح المستضافة في خيام اللون ومنازل البهرج على الشجيرات، ثلاثة وعشرين عاماً، حتى اليوم الصاخب ذاك، حيث محا البَرَدُ سطورَ الآيات النباتيةَ، وأعاد الوحي المُرْسَل من خاطر البذورِ الأسلافِ أشلاءَ سديماً.

جمالو، زوج زوزان، ابنة دلشاد، نبتَ كمأَةً آدميةً على بوابة بيت صهره، بدراجته ـ دراجةِ نَفْخِ النار في أحشاء المعدن روحَ الثُّغْرة المعدنية. فتحها ودخل هاتفاً: "ماأحوالكم؟"، واستعرض، ببصر اللوعة، نكبةَ النبات، ونكبةَ ستِّ دجاجات محطَّمة الأعناق، لم تزل أرواحهن تنقر، من يد الغيب، حنطةَ المتاهة.

برزت زلفو مكمِّمةً فمَها بيدها اليسرى حسرةً. تقدم منها جمالو. أفسحت العجوزُ له مَعْبَر الهواء إلى البيت، فدخل الرجل ذو الشاربين الرقيقين، والخمار الأبيض الملفوف حول رأسه كعمامة. نزع حذاءه الموحل. ابتسم وهو ينظر إلى دلشاد واقفاً قرب التجويفِ المستطيلِ في الحائط ـ مكتبةِ العُمران الكسول، المحفوظة في حراسة الإطار الجيريِّ الأزرقِ زرْقَةَ عين الجنِّ. أوْمَضَ قلبُه بامتنانه لنفسه وسطَ جلبة البرق المرفوع على هَلَع الخلائق: هو الذي أقنع أبا زوجته بإخراج أجزاء الترجمة من التلف المُنذر إلى الحِفْظ المُبَشِّر؛ من رثاثة الأغلفةِ الرقيقة،

حبيسَةِ وَهَنها القارض إلى الأغلفةِ الجِلْد المعافاة برياضتها في بستان الوقت. حمل الرُزَمَ الصحائفَ إلى مَشْغل الأرمنيّ أرْتين، الذي اعتراه الحذَرُ: "ماهذه اللغة؟"، فسكب جمالو في أذنه قطرةَ العُقار المهدِّىء: "إنها الفارسية".

قبل سنة من ميلاد مجلدات "المُختصر.." في رعاية أغلفتها الصلبة الجديدة، مغتذيةً خمائرَ علوم أرْتين، خرجت سورية على العقد العفيف لتوريث الإخاء عنوةً مع مصر. كُسِرَ اللوحُ الجامع، وعادت المشافهةُ المسموعة إلى الجمادات. الرجال، الذين درَّبوا الظلالَ على الإصغاء إلى مساررات الآدميين في أحوال الحُكْم، وغلَّفوا بالذهب نازعَ الوشاية بين الأقران والجيران، انحسروا، بمُسدَّساتهم المرئية تحت السترات القصيرة، عن ممرات الوقت سنة ونصف السنة، لاغير. طوْقُ الوحدة، ذو النقوش النافرة من حديده على صور عقبان، ورَّث اللغةَ شكيمةَ الصراخ في الساحات بإطالة عمر الحاكم الواحد، وحِفْظ البقاء للأمة برعاية خياله ـ هوَ ـ للتاريخ، وتدريبه هُوَ للتاريخ على الإعتراف بأن هفوات التاريخ لن تتكرر قط، مادام هو من يُخرج التاريخَ من طفولة الوقائع إلى شباب المآثرِ، ومن طيش الإختلاف بين المِلَل والنِّحَل إلى سيادة عقل الضبط الكُلِّي على نَهْجٍ واحد: لم تعد الألسنة تتكلم إلا بالتبجيل للخَرَس.

كُسِرُ اللوحُ الجامعُ، فخرست الألسنةُ إجلالاً لسيادة نُطْقها الجديد. لكن الأمر تقوَّض ثانيةً، بانقلابٍ زعمَ إعادةَ الصواب إلى انقلابٍ مَجَّدتْهُ الأنفاسُ، فكُتِمتْ: الرجال، أولاءِ، ـ ذوو السترات القصيرة، المنتفخة من أجنَّةِ الموت ـ المسدساتِ في حواملها متدلِّيةً من الأحزمة المشدودة، ـ عادوا إلى الإقامة في أنفاس المتنفِّسين، وكلام المتكلمين، وإشارات المتساررِيْنَ بالإشارات، مغطين عيونهم بنظارات سُودٍ أكثر فظاظة من التحديق، بالبصر المكشوف، إلى دخائل الأحوال المستورة بحُجُبِ عظام الأقحاف على الأدمغة. ثم أُعيد تدريبُ الظلال، بعافية المدرِّبيْنَ الأشدَ مراساً في تلقين الحياة اعتلالَها المزمنَ بالشِّعار المُزمن، على نهش الأخيلة

الطليقة، فعادت الناسُ بلا أخيلة، خبراء في النجاة من هواجس الحرية إذا تودَّدت الحريةُ، خِلْسةً، إلى الفكر، وباتت تطيعُ الظلالَ المسكونةَ كلَّها ـ ظلالَ الشجر، والبشر، والطير، والجدران، الناطقَةَ منها والعَجْماء ـ وتُطعِمُها خبزَ حقيقتها الناضجَ في فُرن الخوف.

حين سأل أرتينُ صهرَ دلشاد عن تلك اللغة ـ التي سيمهِّد لها، بالنقش النافر على سبائك الرصاص، عبورَها من سديم الهواء الناطق في حنجرة الآدميّ إلى الشّكل المتجسِّد الناطق في خصِّيْصَتِهِ الجمادِ ـ كان الحَذَرُ على تمامه من أي شيء يتصل بالكرد؛ بخيالهم أو لغتهم، أو أخبار أرواحهم. إسم البرزاني، المتسرِّب مع رياح الجبال إلى السهول المتنسِّكة وهي تردِّد أسماءَ الأنهار الجليلة، أقلق الحكوماتِ بداعي يقظة الشرِّ في مِلَّةٍ من أهل المكان لايجدر بها زعْمُ امتلاك المكان، أو التشارك فيه مع عِرْق الأمة الوافدة، بشفاعة الفتوح القمرية والشمسية، من مصبات الرمال في الصحارى العريقة. رُقباءُ الحكومات على تخليص مَعْدَن الأمة من أخلاط الشعوبيين، وقيافوها إلى الشُّبهات، حصروا الكردَ في البرزخ بين العصيان المُفْتَرَض حتى إثباته عاجلاً أم آجلاً، وبين الولاء المحكوم بفساد دورته عاجلاً أم آجلاً. كان للكرد، في زعم المصادفات الأزلية بإيجادهم كُرداً، صديقٌ واحد هو: الجبل. وقد مَنَّتِ المعجزاتُ الناقصة عليهم بصديقٍ ثانٍ من كَرَم الإضافة هو: الألم.

الألم، والجبل، إذاً: صورة الرجل القصير القامة، المعصوب الرأس بغطاء ملفوف كالعمامة، كانت شديدة النطق، بحروفِ ظلالٍ، في هالة الكناية عن صديقَيِّ الكُرد: خلفه جبلٌ، وعلى وجهه عافيةُ الألم. تلك الصورة المتآكلة من مرورها بين الأيدي، المُسْتَنْسَخَة تصويراً عن صحيفة بلغة مِلَل اللاتينية، عبرت مرَّةً تحت بصر دلشاد، في منزل شريكه ـ شريك المتاجَرة بالماشية ـ علي عُوْجا. رهبةُ التيه مرت معها أيضاً. خفق قلبُ المجهول في صدر المعلوم. "هذا هو الملا مصطفى"، قال علي،

وتقرّى بإصبعه السبابة حزامَ طلقات البندقية حول خصر البرزاني: "كل طلقة قَدَرٌ من أقدار الله".

مدى ثلاثين سنة ظل دلشاد وعلي شريكين في تجارة الأغنام، الأول بماله، والثاني برعايته وفراسة القيَّاف في تَتَبُّع طيور الحظوظ إلى أسواق الجزيرة - أرضِ الميثاق بين الأنهار البعيدة عن البحر. أخوال دلشاد، الذين سبقوه في النزوح من سياسيل إلى عامودا، أوصوه باعتناق الإلهام المُوحى من البَرِّية إلى خيال المصادفات فيه. لكل امرىءٍ خيالٌ تنمو بغذاء عُنصره بزرةُ مصادفة مَّا. المصادفةُ صناعةٌ تنجزها اليقظةُ العسيرةُ للعقل في فِراش التأويل، قبل انقلاب اليقظة نسياناً. التفسير، وأَحكام التفسير، وآلات التفسير، كلُّها تقف مُعطَّلةً، بعد ذلك، عن إرجاع المصادفة إلى حالها - حالِ الضرورة الراسية على تعريفها بأداءِ الحساب الأليف، والإعتبار الأليف، والتوسُّط الأليف للوقائع في حدوثها. أخوال دلشاد أوصوه باتِّباع يقظة عقله على صورة البَرِّية: "الأرزاق أكثر عافية إذا عقدتَ عقْدَ قلبك مع الأفق. والمصادفاتُ، هناك، ماتتدبَّرُهُ أحوالُك لكَ من يقينها".

كان أمرُ الكنايات في لغة أخواله يتفرَّع على مذهبين: الإلهام الحيواني، والإلهام النباتي. إلهامان يقتنص الإنسان بأحدهما نَفْسَه في حقل العقل، على قَدْر انجذابه إلى هذا أو ذاك، فيحقِّق خاصيَّةَ خياله. وإذْ يتم الاستحواذ من أحد الإلهامين عليه، ويستتبُّ التطابقُ القادر على تصريف أحوالهِ وفْقَ مناهج التجارات، وشرائع المُقايَضات، وفِقْه البيع والشراء، تكونُ المصادفةُ - التي هي قَدَرُه العالم باتِّفاقات المُمكن الصغير مع المُمكن الكبير - قد باحت لعقل صاحبها بأَسرار الأَرزاق.

دلشاد لم يكن يميل، بطبع الإلهام المستحوذ عليه، إلى شؤون النبات ليغدو بستانياً، أو زَارعَ حقول، أو قيِّماً على خزائن السهول. رمى نرْدَ حظوظه القمريَّ على جلد مدبوغ من جلود بهائم الفردوس:

"أعطيتُ ولايةَ التسليم في خيالي للضأن". وكان نَرْدُ حظوظه قمريًّاً بحقٍّ؛ فالكوكب الذَّكر، الذي دَرَجَ لسانُ الجَمالِ في شِعاب الشرق على تشبيه الأنثى به إذا فاضتْ مَلاحتُها، أشرفَ على عقل الشَّحم تدريباً وتأديباً، فاكتنزت إلياتُ القطعان بشهوات النَّظْم في مديح المأكول النبيل، وتنعَّمتْ وَفْرَةُ البياض الدَّسِم بين الجلد واللحم بشهوات النثر في وصف السُّمنة الساحرة.

دلشاد، وعلي عوجا، دبَّرا اتفاقَهما، مناصفةً، على الربح. سرحت قطعانُ الأغنام في البرازخ بين الإنسان الشارد على تدوينِ أرقامِ الأكيد، واللهِ المدقِّق في سجلاَّت حساب الأكيد. تَضاعفَ المالُ، وتَلاذَّتِ الأحوال.

شؤون التجارة الموكَّلة إلى علي عوجا، مدرِّبِ أسواق الماشية على صوت الإصغاء إلى معاني العافية في صوت الحيوان، أبقت دلشاد حرّاً من إنشاء اللسان مخاطباتِهِ في تفخيم متاع البيع وأحوال البيع، كالتي يمهِّد لها الدلاَّلون بألفاظ القَسَم في مطالَعها وخواتيمها. ظلَّ الصاعدُ سلالَمَ الترجمة منصرفاً إلى رعاية بستان "المُختصر في حساب المجهول"، بإضافات البزور، والشَّتْل، والتَّطْعيم، فيحمل له مهرِّبو التبغ أوراقاً، كل ثلاثة أشهر، إلى أبناء مهران في كلاس، الذين ازدحمت مجالسُ سَمَرِهم بملائكة العُزلة المأمورين، وملائكة الخيال المأمورين، وملائكة الحِيْلة المأمورين، وملائكة الخيانة المأمورين.

ملائكةُ عزلةٍ مأمورون بإغلاق خزائن المهجور على ودائعه الأزلية. خجولون، قلقون، يكلِّم الواحدُ نَفْسَه، بصوت الطوفان الملجوم، عن الصُّور التي عَرَضَها الله على عين الوجود ثم أرجأ إطلاقها في كتاب المعلوم ثم محاها، فاكتأبتِ الحقائقُ.

ملائكةُ خيالٍ مأمورون بتوليد المُنازَعات الصاخبة بين الطبائع والعقل. عجولون، يلتقطون السطورَ المنفصلةَ عن جِصِّ الخالد،

ويعيدونها، بتدبير العَجَلة المأمونة، إلى سياق مُلْغِزٍ ينتشلَ الموتَ الفاشلَ من فضيحة مهمَّته الفاشلة، ويُهديه إلى سلوكٍ هرطقةٍ هو أملُ النهاية الناجحة كَموتٍ.

ملائكةُ حِيْلةٍ مأمورون بالإقامة في كلمات الرعاع، تلك التي رست في معجم الحمد للخسارة على فروع هي: التخمين، والظنُّ، والإشاعة، والنفاق، والطاعة، والحِكَم المُنتخَبَة، زمناً بعد آخر، في مبدإ الرجاء والقناعة، ثم الهياجُ بالمحاكاة، فالغدرُ انتقاماً من عياء الفَهْم عن الفَهْم. وملائكةُ الحيلة يؤنِّثون للزمن في كلمات الرعاع مجالسَ الشَّغَب على البرهان، وتقويض المُبْتَكَر.

ملائكةُ خيانة مأمورون بإغاثة المُشْكل كلَّما تراخى، حتى لايتوهَّم الملولون مُخْرجاً إلاَّ بالعَجَلة. والعجلةُ تغيثُ المُشْكلَ ثانيةً. وهُمْ، الملائكةُ أولاءِ، يضربون أعشارَ التبرير المعذِّب بأسداس التأنيب المعذِّب فيتولد رقمٌ هو حاصلُ الخطإِ القائم بتسيير المعقولات.

كانت زلفو، التي باتت تصغي في شيخوختها إلى بعض مايتناثر من فم دلشاد عن ملائكته، تتمنى عليه أن يُقْحِم أسماءَ بناتها الثلاث - دنيا وسَافيناز من زوجها الأول، وَزُوزان من صلبه هو - في أثير اللطائف فوق غَمْر "المُختَصَر..". لكنه تجلَّد: "من أين آتي بملائكة إناثٍ، ياأُمَّ البنات؟ ألا يكفيك أحفادٌ يحملون واحداً وعشرين إسماً؟".
وهم أحفادٌ قيَّض لهم مبشِّرو دولة الحزب إخراجَهم من عناية الدولة بتصنيفهم "مجهولين". علَّقوا تاريخَ أسلافهم بالفراغ عبر تعديل المكان ذاته تعديلاً يعيده، بالقوة، إلى ماينبغي أن يكونَ عليه: لا أثر لخطوات الكُرد على الزمن فيه.

جرى إحصاءٌ غامض، في السنة الثانية من عودة رجال الإستخبارات - مدرِّبي الظلال على الوشاية بكل شيء - إلى مزاولة حقِّ الدولة في جباية ضرائب السعادة الإلهية، والرفاه الإلهي، اللَّذين

أغدقتهما، بكَرَم لايوصف، على مواطنيها. إحصاء للسكان مُعفى من قوانين البرهان الّثقيلة، وأوزان المنطق العُشْريَّة، وكِهانة الإعتبار. إحصاء مجفَّف كاللحم القديد؛ مُملَّح بأمل الحزب في نقاء العناصر الأربعة متجسِّداً شِعاراً لوحدة العِرْق التي لم تكن الأرضُ لِتَكُونَ إلاَّ به. حَضر العِرْقُ أولاً فحضرتِ الأرضُ. والكُرد، الذين كانوا هناك، في الشمال المقسوم على جهتَيْ حدودٍ وُجدتْ بعد وجودهم بحساب الألفيَّات، صُنِّفوا مهاجرين نزحوا ثلاثة أمتار عمقاً إلى فردوس الحروف العربية. أُلقيتْ على آلافٍ منهم تبعةُ المجيء بالتاريخ المجهول إلى التاريخ المعلوم؛ المجيء من المجهول إلى المعلوم: بشرٌ مجهولون اقتحموا هواءَ بشرٍ معلومين.

أربعون عاماً لم تنفع دلشاد من استحداث صورة مواطن في الإحصاء المُمَجَّد بختم النقاءِ البَدْئي. آخرون لم تشفع لهم مئات السنين في رعاية أرواح أسلافهم على سهول الغَمْر العتيق هناك. آلافُ سنينٍ، على عدد الشَّعر في خصية اليربوع، أُسْقِطت من حساب سِجلاَّت التيه. محظوظين كانوا أولئك الذين طهَّرهم التسامحُ، بعد نَقْل بذور نشأتهم من حقول اللوعة الكردية إلى السطر الأخير في نشيد التصنيف العارم: الأصلُ: عربيٌّ.

إبنتا زلفو المهقاوان، دنيا وسافيناز، وأولادهما، تعثر بهما الحظُّ في صعوده إلى نشيد التصنيف. نَجَتْ زوزان وزوجها جمالو، وأولادهما. عنايةُ السخرية النبيلة قادتهم، فرحينَ، إلى وجدان السطر الباسل في النشيد الرزين للأُمَّةِ: الأصلُ: عربيٌّ.

إتِّفاقُ الحقائق الكسولة عطَّل، في منيٍّ دلشاد، نهوضَ دولة النَّسْل إلاَّ على رُكْنٍ واحد: زوزان المكتملة اللون. إبنة واحدة من صُلب دلشاد أضاءتْ أبديَةَ رحم زلفو بقنديل قلبها، ولَمَّا خرجتْ منه داخلةً إلى كهف المعاني المذعورة من نمور الكون انطفأ رحمُ زلفو. اجتهد زوجها،

طويلاً، في استقصاء الأغذية الموصوفة إنعاشاً لخمائر التوليد، كي يلقِّن بذورَ جسده أدبَ اللقاحات فازدادتْ طيشاً. عمَّت الفوضى زرائبَ حيواناته المنوية فلم تعد تهتدي إلى مسالك المَبِيْضِ ـ حديقةِ الصُّور في جسد زلفو.

في الليلة الأولى لدخول دلشاد على عروسه ـ ابنةِ المرأة البزوغ أكيسا ـ تعثَّر بصرُ ذَكَره في استئناف الآية التي سعى وحيُ لذته بها إلى لذة أمها. حياءُ النظر بعينيه إلى فرج زلفو، تحت ضوء السراج المُنْشِد نشيدَه الماجن، تسلل إلى عَصَب الولاية الموقوفة، بشرعِ الدورة الفلكية في إنشاء الخلائق، على نَعْظٍ لائقٍ بإتمام العِلَل الذهبية: إنصباب أعضاءٍ في قوارير أعضاءٍ.

حياءُ عَيْنَيْ دلشاد أيقظ حياءَ ذَكَره.

زلفو، التي تصغره بعامين، أعادت إلى سريرِ عُرْسهما، تلك الليلة المجروحة قليلاً بشفرة الحياء، أَنَفَةَ الضوضاء الموكولة ـ كأيِّ ملاكٍ موكولٍ ـ بترتيب المُطابقات في لغة قلبيْنِ، على دويِّ اللهاث لذَّةً في حنجرة ذَكَرٍ وحنجرة أنثى. فمُها المُملَّح، أبداً، في خيال دلشاد، نزعَ الحياءَ المُملَّح عن كَمَرته. دار لسانُها حول الحُوْق البُنِّي من أثر الختان القديم. ارتعش الجلدُ. ارتعش عريسُها: "ماذا تفعلين يازلفو؟"، قال بصوتٍ هبَّت عليه الشهوةُ من عِرْقينِ في باطِنَيْ فخذيه.

"أنفخُ في جلدكَ ريحاً"، ردتْ زلفو.

انبسط عقلُ الباه بعد انقباض. سَرَدَ فكرتَهُ سَرْداً نقياً فانتشرتْ مذاهبُ المنيِّ في ظُلُمات زلفو. نطق العريسان، من فم الكمال الهاذي، كلماتِ القِدَم.

لم يحْضُر الحياءُ، مرة أخرى، مجلسَ المُخاطبات الأزلية في مخدع زلفو ودلشاد إذ يتعرَّيان كي يبتكِر أحدُهما الآخرَ بخصائص الوجود

المسحور. لكن مشيئة نَقْل البذور، في جسد دلشاد، من إيمان الهيولى إلى شَكِّ الشكل أخلَّتْ بصناعتِها، فبقيت البذورُ تائهةً في تحصيل ثوابت لَقاحها: حلَّ العقمُ بعد نضوجِ ثمرة وحيدة على شجرة الرحم في بستان زلفو اسمُها زوزان. وهي الثمرة التي حملها جمالو إلى مخدع حظوظه، ومن ثم وهبتْها الدولةُ نَسَبَ الإقامة في نشيدها.

كان آخر شيء يُشغل دلشاد أن يحظى بتبعيَّةٍ، على سَنَن القانون، للدولة. هو مقيمٌ في بيت اشتراه، وله تجارةٌ في الغنم، وأمامه سهلُ حقولٌ بعده سهولٌ وأنهارٌ، وهضابٌ، وجبال، وشعوب حول بحار، وغابات وراء غابات حتى مدائن الجليد المفقودة في نهايات الأرض المفقودة. الهواء كلُّه هناك، ودلشاد مُواطنُ هواءٍ. سيبقى كذلك طالما لن يسائله أحدٌ في مايملك ومالايملك. سيبقى كذلك طالما لن يأخذ طريقَه إلى عالم أبعد من التلِّ الذي استقرَّ بيتُه عليه، مشرفاً على فروع من نهر جَغْجَغ تدوِّنُ بالماءِ سيرةَ الخيال الجامح لعقل النبات. لكن المناوشات المتقطعة بالبنادق بين مهربي التبغ وشرطة الحدود الأتراك باتت تقطع أنفاسَ الحقول هناك. كانت مقتصرةً، من قبل، على جهات الظلام الموصد خلف أدغال هِلِيْلِيْكِهْ، في الشمال الغربي البعيد نصف فرسخ، أو أكثر، عن القامشلي. مناوشاتٌ كثرثرة خفيضة بلسان النار، مهذَّبة، أيضاً: طلقة مقابلِ طلقة. شتيمة مقابل شتيمة. دَرَكٌ يتهدَّدون المهربين بألفاظ تتدحرج من كمائنها التركية، فيعيدها المهرِّبون إليهم مترجمةً بالكردية. إَخصاءٌ، وهَتْكٌ للأعراض، وأسماءُ فروجٍ ينتدب بها خيالُ الصياح وَجَعَ السكينة على الدغل.

المناوشات تلك، المحسوبة في سياق الضجر من ثوابت النُظُمُ الليلية وأسبابها، مسَّتْها حُمّى الأعراض القوية للبيان في لغة الوعيد المتبادَل: غزا المهربون مخفرَ الدَّرك ذات ليلة، فشرَّدوا الدَّركَ. إهانةٌ حطَّمتِ الميزان، فثارتْ حاميةُ الجيش في ثكنة نصيبين. حضر الجندُ في شاحنتين إلى المخفر، نصبوا مدفعاً قصفوا به أدغال العُلَّيق والحور، في

الصباح المُتْخَم من وجبة النُّور الدسمة. وجهوا الفوَّهة إلى الحقول بعد ذلك. خلطوا خيالَ شجيرات الفلفلِ والباذنجان والبامياء بخيال أخواتها. توقف القصف ليبدأ الاقتحام. شبكةٌ من الطلقات تخبَّط فيها التلُّ، حيث بيت دلشاد. ظهر الجنود التركُ سافرين ببنادقهم. انتشروا بين البيوت أربع ساعات تلصَّص فيها الناسُ عليهم، مذعورِيْن، من زوايا شبابيكهم. الدَّرك السوريون، في المخفر الذي يلي التلَّ جنوباً، نزحوا إلى المدينة حائرين في مراتب التأويل. موفدون من ثكنة الجيش، في القامشلي، انتقلوا إلى معْبَرَ الحدود. سُوِّي الأمرُ بعد وعدٍ بتشديد الرقابة، من جهة الحدود السورية، على مدارج الظلام، التي ترتقيها طيوفُ الحالمين بكوكب من التبغ يحجب دخانُ لِفافاته المشتعلةِ قمرَ الأرض تسعين عاماً.

لم يأتِ الدَّركُ لاستطلاع أحوال الناس بعد نهار الهول ذلك. بل حضر، في اليوم الثالث بحساب ساعات القلق، شخصان مدنيان، في سترتين قصيرتين تكشفان غِمْديْ مسدسيهما. طافا بالبيوت حتى حلاَّ منزلَ دلشاد. دخلا من البوابة المفتوحة إلى سطور الآيات المُقتَبَسة من مصاحف الحدائق. "ياأهل الدار"، نادى أحدهما الطيوفَ المحجوبة للخلائق الآدمية، فخرجت إليهما زلفو يتبعها زوجها. دارت الدجاجات قليلاً من حول الغريبين. تأمَّلتهما بعيون الطبائع المعقولة. رحَّب بهما دلشاد: "ادخلا"، قال بعربية لها نَبِرُ الرماد الدافىء. دخل الرجلان إلى الدار.

"أتعرفان مهرِّبيْن، أيها العجوزان الكريمان؟". هكذا بدأ أحد الغريبين استقصاءَ تاريخ الأسرار وتواريخِ مَطَالعها.

أجْفَل العجوزان من الإقتحام الصاخب للكلمات على لسان معانيها المُهذَّبة.

"لا. لانعرف مهرِّبين"، ردَّ دلشاد.

"أتريدان، مثلاً، أن يقتحم التركُ بيتكما؟"، قال أحد الغريبين، فنبض صدغُ دلشاد:

- لا، أيها السيد.

"دلونا، إذاً، على المهربين. نلجم المهربين يَنْجُ بيتُكما من غزوٍ تركي"، قال أحد الغريبين. "دلونا"، أضاف بصيغة الجمع.

"كيف ندلكم على من لانعرف، أيها السيد؟"، قال دلشاد بصوت مشدوخ.

قام أحد الغريبين عن الأريكة التي نبض في حشوها لولبٌ حديد. تقدم من التجويف المستطيل في الحائط - تجويف المكتبة المعروضة بلامهارة في إطار الجير الأزرق. استعرضَ الأغلفةَ المجلَّدة الصلبة، التي يتنفَّس منها النقشُ الذهبي الغائرُ هواءَ الحروف الذهبية. قلَّب مجلَّداً بين يديه فتبادلت السطورُ المعاني الفتيَّةَ والكهلةَ لأرقام العقل. أفاقت الحِيَلُ الكسولةُ إذْ مسَّها الضوءُ. أطبق الغريبُ الكتابَ وأعاده إلى سَكينة الجوف، ثم استرسل مع صاحبه في تحصيل الماهيات المهشمة بأسئلةِ حصادٍ في الرمل، تبادلا مناجلَها أمام عيون العجوزين:

- أنتما لاتعرفان مهرِّبي تبغٍ، إذاً؟

- لا. لانعرف أيها السيدان.

- واحداً فحسب. ألا تعرفان واحداً؟

- ....

"ياناسُ، أعطُونا مهرِّبين. اخلقوا مهرِّبين بالطُرق التي تشاؤون، وسلِّمونا أسماءَهم. سنمنحكم الحريةَ قَدْرَ ماتريدون؛ حريةً بلانهاية، في اختيار أسماء المهربين؛ في تأليف أشكالهم، وظلالهم، وعدد أطفالهم، وزرائب دوابهم. اخلقوهم. اعجنوا الكلماتِ، ونحن نتولى إنضاجَها في الفرن حتى تصير أشكالاً. هيُّوا، ابدأوا ياناس"، قال الغريبان

مستعجليْنِ أن تتقافز صورُ الخلائق الجديدة من ماءِ خيالِ العجوزيْن إلى شِباكِ تَسَامحهما اللانهائي.

نظر أحدهما إلى الآخر: "لابأس"، تمتما. قاما وانصرفا بلا استئذان. نكستِ الصيرواتُ عَلَمَ المعمور والمهجور فوق قلب دلشاد الملجوم وقلب زلفو المذهول.

قبل ظهيرة اليوم الثاني لتلك الزيارة الثقيلة من معادن اللسان في فَمَيِّ الغريبين، حضر أحدهما برفقة شخص آخر. تولى الوافد الجديد، من فوره، معاينة مجلدات "المختصر في حساب المجهول". عدَّها بتمامها. تقرَّى النقشَ الغائرَ حول منابت الحروف. ابتسم مراراً ابتسامةَ انتصاره على حيلة المعنى في قناع الكلماتِ الطنينِ: "أتحبُّ الملا مصطفى البرزاني؟".

ارتعش شارب دلشاد الأبيض. نظر إلى زلفو مستسلماً لاختلاط صور لاتُحصى في خياله: "سمعتُ بالبرزاني أيها السيد".

"لافائدة. لن أحصل على شيء منك، أيها العجوز"، قال الغريب الجديد وهو يُهأهِئ. "لاتصلك صحف من أي مكان. لاإذاعة تنقل إليك الأخبار، ومع ذلك سمعتَ بالبرزاني. جيد. هذا جيد. إذا سألتك أن تُسمي لي من أسْمَعَك أخبارَ البرزاني، ستنخلع قصبتُك الهوائية. ستتردد. ستتعلثم. لا. لن أضع عجوزاً مثلك في موقف كهذا. لكن أخبرني عمّا تحويه كتبك الكردية هذه؟"، قال بهدوء مسبوكٍ كرصانة النحاس القَلِق.

"هذه ليست كتباً كردية، أيها السيد"، رد دلشاد بنبرةِ انفراجِ في هواء الحروف على لسانه.

"لاتُخْرجني عن طوري"، قال الغريب الجديد مقتحماً بعينيه المُسْتَنطقتين حشدَ الصور في خيال دلشاد. "أَهذه ليست لغة كردية، أيها العجوز؟".

"بلى"، رد دلشاد. "إنما هي ترجمة كردية لكتاب سرياني".

هَأْهأَ الغريبُ المُسْتَنطِق: "أنا سرياني". اندفع الدم مَرِحاً في عروق دلشاد بعد وجوم وتباطؤ، فهرع بخطوتين واسعتين إلى محفظة من مخمل أسود، معلَّقة إلى الحائط، فوق صف المجلدات. محفظة بدت كعينٍ في بياض الجير، ناعسةٍ قليلاً. أيقظتها يدُ العجوز. "هاهو الكتابُ الأصل"، قال وهو يُخرج المصنَّفَ المتهدِّلَ الورق من غيبوبة المخمل، ونُعاسِ سواده.

قلَّب الغريبُ المُستنطِقُ الكتابَ بين يديه. قرأَ الحروفَ البوَّاباتِ المتجاورةَ بثبات على غلافه: "إِقْفِيْسُوْبْ حَشْبُوْتُوْ دِلِيْتَوْ". رفع عينيه إلى صفِّ المجلدات. تقدَّم من التجويف المحتضِنِ، بأجفانه الزرقاء، فراخَهُ الإثنين والخمسين. قاس طولَ الصفِّ بالأشبار من يده: "أحد عشر وثلاث أصابع"، قال، وعاد فحدَّد سُمْكَ المخطوط بالسبابة والإبهام: "عقلةُ إصبع". تنفَّس بثقْلٍ يستجمع شرودَ المنطق في خيال الغرفة: "أيها العجوز، بأي مِنفاخٍ نُفِخَتِ الترجمةُ؟ ألم يخْشَ المترجمُ أن تنفجر أمعاؤها؟".

"أنا ترجمتُ الكتابَ"، قال دلشاد بالسريانية. فوجِئَ المُستنطِقُ. ابتسم: "كَمْ تعادل الكلمةُ السريانية، في الميزان، من مثيلاتها في لغتكم، أيها العجوز؟". هَأْهَأَ ساخراً: "الكلمة تعادل كلمةً في اللغات". وأرخى كتفيه متمتماً بالسريانية: "لو كنتَ تنكح هذا الكتابَ الصغير، كل يوم، لما حَبل بحشدِ مجلَّداتك. كم هيَ؟"، ساءله مستغرباً.

"إثنان وخمسون"، ردَّ دلشاد.

"إثنان وخمسون؟ أحد عشر شبراً وضَرْطتان. أتظنني معتوهاً؟ اسْمَعْ"، قال. بحث في ثنايا خياله، المُستعاد من شروق البطش الطاهر عليه، عن مخرج لفكرته اللامكتملة: "لو كان هذا الكتاب الصغير دجاجة تجلس على عشر بيضات لما فقس منها أكثر من ثلاث. لكنني

سأتغاضى، أيها العجوز. لن أتهمك بالكذب، أو أقسرك على التصريح بالخفيّ في سطور مجلداتك. لي أب عجوز مثلك يجعلني رؤوفاً. تعالا"، قال متوجهاً بكلامه إلى دلشاد وصاحبه. "فلنحملْ هذه المجلدات إلى ساحة الدار".

مرتعداً حمل دلشاد ما يقدر عليه من أشجار الترجمة إلى ساحة الدار. بضع مرات دخل وخرج مع الغريبين بالأثقال البهية في أغلفتها السابحة على غَمْرٍ من روائح البساتين. تشمَّمها. نادى، بصوت خياله، ملائكةً مأمورةً بأحوال العَصَب كي توقف ارتعاشَ مرفقيه المكسوَّين بوبر السنين. ساءل الغريبَ المُستَنْطِقَ، مراراً، من وراء كتفيه، عن غايته من رصف تلك المجلدات لصقَ السور. ظن، في البداية، أن الغريبين يصادران الترجمة، فتمتم منكوباً: "لاتأخذاها بحقِّ إيمانكما"، فطمأنَهُ المستنطقُ: "لاتقلق". تمتم ثانيةً، وقد بزغ على عقله نيزكُ النار: "استحرقانها؟ بحقِّ أُمِّكما عليكما لاتحرقاها"، فأجابه المُستنطقُ بلسان حنوِّه على وَجَع الأرض كلِّها: "الجاهل، والهمجيُّ، وحدهما يحرقان الكتب، أيها العجوز. انظرْ إليَّ: أأبدو جاهلاً، أو همجيّاً؟".

إثنان وخمسون مجلداً، باتكاء المجلد على الآخر وقوفاً، تمَّ رصفُها. عينا دلشاد حوَّمتا، كذبابتين، حول كل حركة من الغريبين. جفَّ خياله من عجز التقدير. زلفو بقيت على عتبة باب البيت تعتصر يداً في راحة اليد الأخرى، باردة الشفتين؛ باردة اليقين. تحرَّك الغريبُ المستنطق. حرَّك الحياةَ المنقسمة على جبهتَيْ زفيرها:

"إسمعْ أيها العجوز. أنا لم أجرِّب مسدسي بعدُ. هذا مسدس جديد"، واستل كتلة الحديد السوداء من تحت سترته. فتحت زلفو فمها متأوِّهةً باختناق. نشرَ الهلعُ غبارَ طلْعِهِ على زهرات المعاني. "طلقة واحدة، أيها العجوز. لن أكون جشعاً. سأطلق طلقة واحدة على مجلداتك طولاً، لأعرف المدى الذي تستطيع رصاصة أن تخترقه في الورق"،

قال، ولقَّمَ جوفَ الآلة عقلَ الرصاص الهائجَ في بلاغته.

"ماذا تربح من فعلك هذا، أيها السيد؟"، ساءله دلشاد منكسِرَ اللسان.

"أربحُ المعرفة. وتربح أنت مجلداتك بعد خدْشٍ بسيط"، رد المُستنطق. ثم التفت إلى صاحبه: "قلْ لي، بحقِّ ضميرك عليك، ماذا كان سيفعل غيري لو عثر على هذه الأشبار من لغة لانعرف مافيها من دسائس العالم؟". بقي الغريب الآخر صامتاً.

وضع الغريبُ المُستنطق فوَّهة مسدسه على منتصف الغلاف الأول في كتلة الوق المستطيلة، مُقَرْفِصاً. تراجع دلشاد. تراخى، فاستسلم لجلوسٍ تحت شجرة صنوبر. اتكأ عليها بظهره يتبادلان نبضَ قلبيهما. دوَّت الطلقةُ مكتومةً في النقش الملتصق بفوَّهة الآلة الناطقة. أبعدَ الغريبُ المستنطق يده عن المجلدِ الدرعِ. بدا الثقب الصغيرُ محاطاً بدائرةٍ من هَباب البارود. أومأ إلى صاحبه:

ـ عُدَّ كمْ مجلداً اخترقتِ الطلقةُ.

أبعد الغريبُ الآخر المجلدات، بعضها عن بعض، بالتتالي، من مبتدإِ الطلقة. "ثلاثة وعشرون. بل. لا. استقرت الطلقة في منتصف الرابع والعشرين"، قال. أبدى المستنطقُ استغرابه: "ماذا لو كان هذا الورق لحماً وعظماً؟ مسدسي مخنَّث، ياصاحبي"، وأمسك بطرف سترة صاحبه: "تعال. جرِّبْ مسدَّسك".

"يكفي"، رد الغريبُ الآخر ببعض الحياء. حدق إليه الغريبُ المستنطِق. رازَ مقاديرَ امتناعه الشفيف. هزَّ رأسه خيبةً. "فلْنمض"، قال، ثم مدَّ إصبعه السبابةَ إلى الفراغ الذائب حول وجه دلشاد: "أَخفِ كتبَكَ هذه، أيها العجوز"، وخرج الإثنان من البوابة.

أربعة وعشرون ملاكاً تخبَّطوا، قليلاً، في تفسير خروجهم الصاعق

إلى الفراغ المُخَلْخَل. "فلْيجتمع الذين في مهمات إلى جهة، والذين بلامهمات إلى جهة أخرى"، قالَ بعضُهم لبعضٍ مرتبكينْ.

جرَّتْ زلفو خطواتِها الحديدَ على ترابٍ حديد. نظرت من علياءِ إنكسارها إلى دلشاد الجالس تحت شجرة الصنوبر ـ شجرةِ السطر التاسع في مصحف الحدائق. رفع دلشاد وجهَهُ إليها. نطقَ بلسان الإرث الذهبي: "هَلاَّ جئتِني ببعضٍ من بزر اليقطين، يازلفو؟".

لم تسأله زلفو عن المخارِج الضيقة للمعاني البسيطة، ومداخلها الواسعة. استدارتْ عائدةً إلى المنزل بغريزة الإصغاء إلى البزور. ولما اجتازت البابَ إلى الداخلِ المَضاءِ بشهوات الأثاث القوية، تناهى إليها صوتُ دلشاد رقيقاً، متقطِّعاً، فيه توسُّلٌ إلى المُمكنات الملآى بخيباتها: "سيد جرجيس. دعْني أُذكِّركَ... هاأنت تعود إلى... سيد جرجيس، لاأستطيع إعادة كتابك إليك الآن. مراراً... ليكُنْ... لابأس. ياسيد جرجيس، لم تنتهِ الترجمة بعد".

عادت زلفو بحفنة من بزر اليقطينِ ـ ثمرة الطَّعْم الواشي. مالت عليه تمدُّ يَدها المكوَّرة كي يلتقط البزر: "أكنت تتحدَّث إلى أحد، يادلشاد؟".

لم يتحرَّك دلشاد.

قرَّبت زلفو عينيها من وجهه في انحنائها: كان رأس دلشاد مرتخياً على صدره. قطرةُ دم واحدة انحدرتْ من منخره الأيسر واستقرت على شاربه. انبسطت راحَةُ زلفو. سقطت البزورُ من ثغرةِ القِدَم إلى الهباء. تهامستْ سطورُ نبات الشاهْتَرَج في الحديقة:

"سأعضُّكَ لو خلا لنا السوق.

سأرميكَ من قلبي إلى كبدي،

ومن كبدي إلى قلبي.

أنتَ لن تكونَ، بعد اليوم، إلاّ ماأكونُه بعد اليوم.
هاتِ فمَكَ المُملَّح من بزر اليقطين،
فأنا لن أنتظر أن يخلو لنا هذا السوق".

السويد

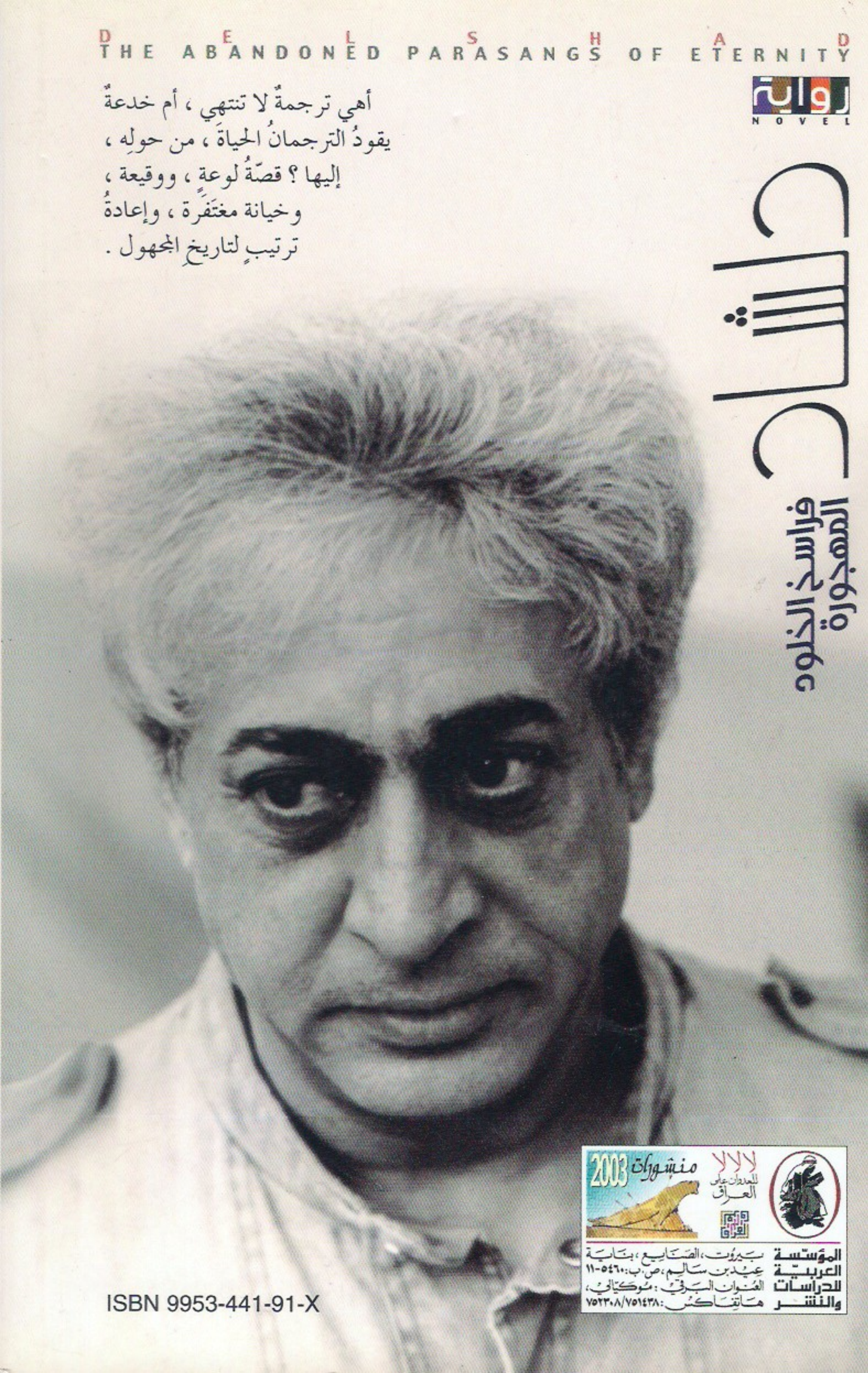
من: آب ٢٠٠٠

إلى: كانون الأول ٢٠٠٢

صدر للمؤلف

* كل داخل سيهتف لأجلي، وكل خارج أيضاً(شعر)
* هكذا أبعثر موسيسانا(شعر)
* للغبار، لشمدين، لأدوار الفريسة وأدوار الممالك(شعر)
* الجمهرات(شعر)
* الجندب الحديدي (سيرة الطفولة)(سيرة)
* الكراكي(شعر)
* هاتِهِ عالياً؛ هاتِ النَّفير على آخره (سيرة الصبا)(سيرة)
* فقهاء الظلام(رواية)
* بالشِّباك ذاتها، بالثعالب التي تقود الريح(شعر)
* أرواح هندسية(رواية)
* الريش(رواية)
* البازيار(شعر)
* الديوان (مجموعات شعرية في مجلد واحد)
* معسكرات الأبد(رواية)
* طيش الياقوت(شعر)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: عبور البشروش(رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: الكون(رواية)
* الفلكيون في ثلثاء الموت: كبد ميلاؤس(رواية)
* المجابهات؛ المواثيق الأجران؛ التصانيف، وغيرها(شعر)

* أنقاض الأزل الثاني(رواية)
* الأقراباذين (مقالات في علوم النَّظر)
* المثاقيل(شعر)
* الأختام والسديم(رواية)


D E L S H A D
THE ABANDONED PARASANGS OF ETERNITY
رواية
NOVEL
أهي ترجمةٌ لا تنتهي ، أم خدعةٌ
يقودُ الترجمانُ الحياةَ ، من حولِه ،
إليها ؟ قصّةُ لوعةٍ ، ووقيعة ،
وخيانة مغتَفَرة ، وإعادةُ
ترتيبٍ لتاريخِ المجهول .
دلشاد
فراسخ الخلود المهجورة
منشورات 2003
لا لا لا للعدوان على العراق
المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بيروت، الصنايع، بناية
عيد بن سالم، ص.ب: ٥٤٦٠-١١
العنوان البرقي: موكيالي،
هاتفاكس: ٧٥١٤٣٨/٧٥٢٣٠٨
ISBN 9953-441-91-X